غوستاف مايرينك

الدومينيكاني الأبيض



رواية

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع

ترجمة: د. الياس حاجوج

عنوان الكتـاب: **الدومينيكاني الأبيض**

اسـم المؤلــف: **غوستاف مايرينك**

اسـم المترجـم: **د. الياس حاجوج**

المـوضـــــوع: **روايــة**

عدد الصفحات: **212 ص**

القيـــــاس: **14.5 × 21.5 سم**

الطبعـة الأولى: **1000 / 2018 م - 1439 هـ**

ISBN: 978-9933-580-97-1

دار نينوى

للدراسات والنشر والتوزيع

سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكـس: **+963 11 2314511**

هاتــــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org

ninawa@scs-net.org

www.ninawa.org

دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع 

Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة - القسم الفني: دار نينوى

غوستاف مايرينك

الدومينيكاني الأبيض

روايــة

ترجمة: د. الياس حاجوج

غوستاف مايرينك

Gustav Meyrink
Der weiße Dominikaner

1921

وُلِـدَ غوسـتاف مايرينــك في فيينــا في 19. 1. 1869. في عــام 1889 أسّس مع ابـن أختـه كريسـتيان مورغنشـتيرن مصـرفاً في بـراغ. وسـرعان مـا جعلـه ظهـوره غريـب الأطـوار، واهتمامـه بسـائر ميـادين الغيبيات، محطّ إعجاب ومثار عداء في أوساط البوهيميين في براغ. بين عـامي 1901 و1909 أصـبح زمـيلاً في مجلـة "سيمبليسيسـيموس" السـاخرة. بعـد صـدور المجموعـة القصصـية الهجائيـة الناقـدة للعصـر "البورجوازي الألماني الصـغير فونـدرهورن"، أسّسـت روايتـه "الغـولم" عـام 1915 لشـهرته الأدبيـة. وفي أعمالـه الأدبيـة اللاحقـة، كـوّن مايرينـك معرفتـه الإيزوتيريـة، الـتي اسـتقاها مـن مصـادر أوروبيـة وآسـيوية. أقـام اتصالات مع بنّائين أحرار وطرق دينية شـرقية، ومع روحانيين ومحضّري أرواح، وكان مطّلعاً خير اطّلاع على ممارسـات السـحر الأسـود. تُـوفّي مايرينك في 4. 12. 1932 في شتارنبرغ.

تمهيد

"كتب السيد س أو السيد ع رواية" - ما معنى هذا؟ هذا يعني ببساطة شديدة: "قام بمساعدة مخيّلته بتصوير أشخاصٍ غير موجودين في الواقع، واختلق لهم أحداثاً ومعايشات، وشبك بعضهم ببعض". هكذا ينصُ الحكْم العام باختصار.

لا شك في أن كلّ إنسانٍ يعتقد أنه يعرفُ ما هي المخيّلة، ولكن قليلين جداً من يعرفون أنه توجد ضروبٌ غريبة للغاية من المخيّلة. ما قول المرء، على سبيل المثال، حينما تأبى يده، هذه الأداة الطيّعة جداً للدماغ ظاهرياً، فجأةً أن تخطّ على الورق اسم بطل القصة، الذي ابتدعه المرء أو تخيّله، وتصرُ بكلّ عنادٍ على اختيار اسمٍ آخر بدلاً منه؟ ألا يُصاب بالدهشة ويتساءل: هل أنا من "ينتجُ" فعلاً أم - - أم أن مخيّلتي في النهاية مجرد نوعٍ من جهاز استقبالٍ سحري؟ ما يُسمّى في ميدان الإبراق اللاسلكي هوائياً أو لاقطاً مثلاً؟

ثمة حالاتٌ نهض فيها أناسٌ ليلاً وأكملوا أعمالاً كتابية، كانوا قد تركوها منقوصة، وهم منهكون من متاعب النهار، وأنجزوا مهماتٍ، وحلّوا مسائل بشكلٍ أفضل، مما كان لهم أن يفعلوا في حالة اليقظة.

يحلو للمرء أن يفسّر أموراً كهذه بالقول: "إن العقل الباطن، الهاجع عادةً، ينبري للمساعدة". وإذا ما حصل شيء من هذا القبيل في لورد[1]،

---

[1] محجّ فرنسي مريمي (المترجم).

قيل: "والدة الإله قدّمتِ العون". من يدري، ربما كانت والدة الإله والعقل الباطن هما الشيء نفسه. ليس لأن والدة الإله هي العقل الباطن ليس إلاّ، كلا، بل لأن العقل الباطن هو "والدة" "الإله".

في هذه الرواية يلعبُ شخص اسمه كريستوفر تاوبنشلاغ دور إنسانٍ حيّ.

أما كونه عاش حقاً في وقتٍ من الأوقات، فهذا ما لم أفلحْ في العثور عليه؛ هو ليس وليد مخيّلتي بالتأكيد، هذا ما أعتقدُه جازماً؛ أقول هذا جهاراً، مجازفاً بأن المرء سوف يعدّني شخصاً يسعى إلى أن يجعل نفسه مثيراً للاهتمام.

ولست أرى أيّ مبرّرٍ هنا لأن أصف بدقة الطريقة التي تمّ بها إنجاز الكتاب؛ يكفي أن أعرض ما حدث في خطوطٍ عريضة وبما قلّ ودلّ من الكلام. ولعل القارئ يعذرني على أن الحديث في ذلك سيكون عني شخصياً في بعض العبارات، وهو عيبٌ لا يمكن تفاديه، للأسف.

كانت الرواية جاهزةً في ذهني بكامل ملامحها وخطوطها، وبدأتُ بوضعها على الورق، فإذا بي ألاحظ - لاحقاً، لدى مراجعة المخطوط - أن الاسم "تاوبنشلاغ" كان قد تسلّل إليها من غير أن أدرك ذلك في حينه. بل أكثر من هذا: الجمل، التي كنت أنوي تسطيرها على الورق، كانت قد تغيّرتْ تحت القلم، لتعبّر عن شيءٍ مختلف كلياً عمّا كنت أريد قوله؛ لقد نشأ صراعٌ بيني وبين "كريستوفر تاوبنشلاغ"، كانت الغلبة فيه في نهاية المطاف لهذا الأخير.

كنت قد خطّطتُ لتوصيف مدينةٍ صغيرة، بلدة تعيش في ذاكرتي: وانقلب ذلك إلى صورةٍ مغايرة كلياً، صورة تمثُلُ أمامي بحدّةٍ وحيوية

أشد من تلك المُعاشة في الواقع. ولم يبقَ أمامي، في النهاية، إلاّ أن أحقّق مشيئة المؤثِّر، الذي يُطلقُ على نفسه اسم كريستوفر تاوبنشلاغ، وأن أعيره يدي، إن صحّ التعبير، ليكتب ما يشاء، ويحذف من الكتاب كلّ ما هو وليد خواطري الخاصة.

لنوصّفْ واقع الحال ونقول: كريستوفر تاوبنشلاغ ذاك هو كائنٌ غير مرئي قادرٌ، بطريقةٍ غامضة، على التأثير في إنسانٍ في كامل وعيه والتحكّم به وتوجيهه حسب مشيئته؛ وهكذا يطرحُ السؤال نفسه: لماذا استخدمني إذاً لوصف سيرة حياته، وسرد مسار تطوّره الروحي؟ أكان ذلك عن غرور؟ أم كي يتمّ إنجاز رواية؟

لكلّ قارئٍ أن يجيب بنفسه.

وأنا سأحتفظُ لنفسي برأيي الخاص. ربما تكفُ حالتي قريباً عن كونها حالة فردية؛ ربما يمسكُ "كريستوفر تاوبنشلاغ" ذاك يدَ شخصٍ آخر غداً. وما يبدو أمراً غير مألوف الآن، قد يكون أمراً عادياً غداً!

ربما هي المعرفة القديمة المتجدّدة على الدوام في الطريق: "كلّ فعلٍ يحدثُ هنا، يحدثُ طبقاً للقانون الطبيعي؛ أما القول: أنا فاعل هذا الفعل – فهو هراءُ مغرورٍ". فهل شخص كريستوفر تاوبنشلاغ مجرد بشير، هل هو رمز، هل هو، كشخصية، القناع المتوالد ذاتياً لقوةٍ عديمة الشكل؟ قد تكون فكرة كون الإنسان مجرد دمية عرائس، فكرةً مقيتة بلا ريب عند المتحذلقين المتفاخرين جداً بأنهم "أسياد البيت".

عندما تملّكتْني أحاسيس مشابهة ذات يوم، وأنا في معمعة الكتابة، راودتْني فجأةً الفكرة التالية: أليس كريستوفر تاوبنشلاغ هذا، ربما، شيئاً أشبه بـ أنا منشقّةٍ عني؟ هيئة خيالية مؤقتة تستحيل إلى حياةٍ

مستقلّة، متولّدة ومولودة في داخلي، كما يُفترَض أن يحصل عند الأشخاص الذين يعتقدون أنهم يشاهدون أطيافاً بين الحين والآخر، لا بل يتحدّثون معها أيضاً؟ وكما لو أن ذاك الشخص غير المرئي قد قرأ أفكاري، فقطع على الفور مجرى السرد، وأدخل، مستخدماً يدي التي تكتب، الجوابَ الغريب بما يشبه جملة معترضة: "هل أنتم" - (بدا لي من السخرية أن يخاطبني بصيغة "التفخيم" لا بصيغة المفرد) - "هل أنتم مثل سائر البشر، الذين يُخيَّل إليهم أنهم أفراد، أنهم شيءٌ آخر غير "انشقاق — أنا"؟ انشقاق عن تلك الأنا الكبيرة، التي تُسمّى اللّه؟".

كثيراً ما أعملتُ ذهني، منذ ذلك الحين، في مغزى هذه الجملة، إذ كنت آملُ أن أجد فيها مفتاح اللغز، الذي يحيطُ بشروط وجود كريستوفر تاوبنشلاغ بالنسبة إلي. واعتقدتُ ذات مرة، وأنا في خضمّ تأمّلاتي، أنني اكتشفتُ نوعاً من الضوء، فإذا بـ- "نداءٍ" مشابه يحيّرني ويبلبلُ أفكاري: "كلّ إنسانٍ تاوبنشلاغ، ولكن ليس كلّ إنسانٍ كريستوفر، معظم المسيحيين يتوهّمون ذلك ليس إلاّ. عند المسيحيِ الحقيقي تطيرُ الحمامات البيضاء و".

منذ ذلك الحين قطعتُ الأمل في اقتفاء أثر السرّ، ونبذتُ، في الوقت نفسه، كلّ تفكيرٍ في أنني ربما كنت ذات مرة كريستوفر تاوبنشلاغ ذاك في حياةٍ سابقة - طبقاً للنظرية القديمة القائلة إن الإنسان يتجسّد على الأرض مراتٍ عديدة -.

لعله خيرٌ لي أن أعتقد أن ذلك الشيء، الذي يقودُ يدي، هو قوةٌ حرّة رصينة متحرّرة من كلّ هيئةٍ أو شكل؛ غير أنني حينما أستيقظُ صباحاً، بعد نومٍ خالٍ من الأحلام، أرى أمامي أحياناً، بين مقلة العين والجفن،

صورة رجلٍ مسنّ أشيب الشعر وأمرد، فارع الطول ورشيق القوام كالشباب، كذكرى من الليلة الفائتة، ويغمرُني طوال النهار شعورٌ لا يمكن التخلّص منه: لا بد أنه كريستوفر تاوبنشلاغ.

غالباً ما راودتني الفكرة الغريبة التالية: إنه يعيش فيما وراء الزمان والمكان، وحينما تمتدُّ يد الموت إليك، يرثُ حياتك.

ولكن ما الداعي لذكر مثل هذه الاعتبارات، التي لا شأن للآخرين بها! فأنا أقدّمُ الآن أخبار كريستوفر تاوبنشلاغ كما حدثتْ، في صورةٍ غير مترابطة، ومن غير زيادةٍ أو نقصان.

1

خبر كريستوفر تاوبنشلاغ الأول

مهما عدتُ بذاكرتي، لا أذكرُ إلاّ أن أهل البلدة يدّعون أن اسمي تاوبنشلاغ.

عندما كنت أهرعُ، عند الغسق من منزل إلى منزلٍ، وأنا فتىً صغير، حاملاً قضيباً طويلاً على رأسه فتيل، وأشعلُ الفوانيس، كان أولاد الزقاق يتقدّمونني، وهم يضربون كفّاً بكفٍّ على نحوٍ إيقاعي ويغنّون: تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ، تّرارارا تاوبنشلاغ.

لم يكنْ ذلك يضايقني، وإن لم أشاركْهم الغناء يوماً.

فيما بعد، التقط الكبار الاسم، وراحوا يخاطبونني به، إن هم أرادوا مني شيئاً.

أما اسم كريستوفر، فله شأن آخر. كان مكتوباً على قصاصةٍ معلّقة برقبتي، عندما عُثِرَ عليّ رضيعاً أمام باب كنيسة مريم ذات صباح.

لا بد أن أمّي كانت قد كتبتْ هذه القصاصة، حينما تركتْني هناك وقتذاك.

إنها الشيء الوحيد الذي زوّدتْني به. لذلك أحسّ أن اسم كريستوفر شيءٌ مقدّس منذ القدم. لقد انطبع في جسدي، وحملتُه معي طوال

حياتي كشهادة معمودية - صادرة عن عالم الأبدية -، كوثيقةٍ لا يستطيع أحد أن يسرقها مني. كان الاسم ينمو وينمو كبذرة، صاعداً من الظلمة، إلى أن ظهر ثانيةً بوصفه الاسم الذي كان منذ البدء، واندمج بي ورافقني في عالم عدم التفسّخ. وكما ورد هناك: يُزرَع قابلاً للتفسّخ، وسوف يُبعَث غير قابلٍ للتفسّخ.

لقد جرى تعميد يسوع وهو إنسانٌ راشد بكامل وعيه لما يحدث: الاسم، الذي كان أناه، نزل إلى الأرض؛ أما البشر اليوم فيُعمَّدون وهم رضّع؛ فكيف لهم أن يدركوا ما يحصل لهم! يهيمون على وجوههم في الحياة نحو القبر، كأبخرة تصدّها نسمة الهواء إلى المستنقع؛ تتعفّن أجسادهم ولا يشاركون أبداً في الذي يُبعَث - اسمهم -. أما أنا فأعرف، بقدر ما يجوز لإنسان أن يدّعي أنه يعرف، أن اسمي كريستوفر.

تسري في البلدة أسطورةٌ مفادها أن راهباً دومينيكانياً، يُدعى رايموند بينّافورت، شيّد كنيسة مريم من هِباتٍ أُرسِلَتْ إليه من متبرّعين مجهولين من كلّ حدبٍ وصوب.

ثمة نقش أعلى الهيكل: "Flos florum[2] - هكذا سأصير بعد ثلاثمائة سنة، فيما يبدو". وقد ثبتوا فوقه لوحاً خشبياً ملوّناً بالمسامير، غير أنه يسقطُ المرة تلو الأخرى، في يوم مريم العذراء نفسه من كلّ سنة. ويُقال إنه في ليالٍ معينة، حيث يكون القمر هلالاً، والظلامُ دامساً إلى درجة أن المرء لا يرى إصبعه، تُلقي الكنيسة بظلٍّ أبيض على ساحة

---

[2] Flos florum: زهرة الأزهار (المترجم).

السوق السوداء. ويُقال إن هذه هي هيئة الدومينيكاني الأبيض بينّافورت.

عندما أصبحنا، نحن أبناء دار الأيتام واللقطاء، في الثانية عشرة من العمر، كان علينا الذهاب إلى الكنيسة للاعتراف لأول مرة.

وفي الصباح التالي صرخ القسّ في وجهي: "لماذا لم تعترفْ؟".

"لقد اعترفتُ، يا أبونا!".

"أنت تكذب!"

رويتُ له ما كان قد حدث: "وقفتُ في الكنيسة وانتظرتُ أن يناديني أحدهم، فإذا بيدٍ تلوّح لي، وعندما دنوتُ من موضع الاعتراف، كان يجلسُ في الداخل راهبٌ أبيض، وسألني عن اسمي ثلاث مرات. في المرة الأولى لم أعرفْه، وفي المرة الثانية عرفتُه حق المعرفة، ولكنني نسيته قبل أن أتمكّن من النطق به؛ وفي المرة الثالثة تصبّب العرق البارد على جبيني وكان لساني مشلولاً، ولم أستطعِ الكلام. ولكن أحدهم صرخ من داخل صدري: "كريستوفر" - - ولا بد أن الراهب الأبيض سمع ذلك، إذ إنه كتب الاسم في الدفتر، وأشار إليه وقال: "هكذا أصبحتَ من الآن فصاعداً مسجّلاً في كتاب الحياة". ثم باركني وقال: "مغفورةٌ لك خطاياك - الماضية والمستقبلية".

مع كلماتي الأخيرة، التي تفوّهتُ بها بصوتٍ خافت جداً، كي لا يسمعها أحد من رفقائي، إذ كنت خائفاً، تراجع القسّ خطوة إلى الوراء، وكأنه في حالةٍ من الذعر الجنوني، ورسمَ إشارة الصليب.

في الليلة نفسها، حدث لأول مرة أنني غادرتُ المنزل بطريقةٍ غير مفهومة، من دون أن أستطيع تفسير كيفية عودتي إلى البيت.

كنتُ قد استلقيتُ في سريري عارياً، واستيقظتُ صباحاً وأنا في كامل ملابسي وبحذاءٍ طويل معفّر. وكانت في جيبي أزهار جبلية، لا بد أنني قطفتها من التلال والروابي.

غالباً ما سارت الأمور على هذا النحو فيما بعد، إلى أن تنبّه المسؤولون في دار الأيتام إلى الأمر، وقاموا بضربي، لأنني لم أتمكّنْ إطلاقاً من إخبارهم أين كنت.

ذات يوم استُدعيتُ إلى القسّ في الدير. كان هذا الأخير يقف وسط الغرفة مع السيد المسنّ، الذي تبنّاني لاحقاً، وخمّنتُ أنهما كانا قد تكلّما في موضوع تجوالي.

وفيما كان السيد المسنّ يأخذ بيدي متّجهاً إلى منزله، قال لي وهو يلتقط أنفاسه اللاهثة مع كلّ جملةٍ بشكلٍ عجيب: "جسدك لا يزال صبيانياً ولم ينضجْ بعد. ولا يجوز له أن يصحبك. سوف أربطك".

كان قلبي يرتعد خوفاً، ذلك أنني لم أفهمْ قصده. على باب منزل السيد المسنّ، المزيَّن بمسامير ضخمة، ثمة لوحةٌ كُتِبَ عليها: بارثولوميوس فرايهر فون يوخَر، مُوقِد الفوانيس المتطوّع.

لم أفهمْ كيف لرجلٍ نبيل أن يكون مُوقِد فوانيس؛ والحق أنني، وفي اللحظة التي كنت أقرأ فيها اللوحة، وصل شكّي في قدرتي على التفكير الواضح أصلاً، إلى حدٍ خُيِّلَ إليّ معه وكأن كلّ العلم البائس، الذي لقّنوني إياه في المدرسة، تساقط عني كقصاصات من ورق.

وعلمتُ لاحقاً أن الجدّ الأعلى للبارون كان مُوقِد فوانيس بسيطاً، وقد تمّ تشريفه بلقب النبالة لسببٍ أجهله. ومنذ ذلك الحين وشعارُ أسرة فون يوخَر يضمّ مصباحاً زيتياً ويداً وعصا، إلى جانب رموزٍ

أخرى، ويتقاضى البارونات، جيلاً بعد جيل، مرتّباً تقاعدياً صغيراً من البلدة، سواء أدّوا وظيفتهم في إشعال فوانيس الشوارع أم لا .

كان عليّ، في اليوم التالي، أن أتولّى هذه الوظيفة بناءً على طلب البارون. لقد قال: "ينبغي أن تتعلّم يدُك ما سوف تواصله روحُك فيما بعد . لعلها مهنة لا تزال تُعدّ وضيعة، إلى أن يتمّ تشريفها حينما تستطيع الروح أن تضطلع بها ذات يوم. إن العمل الذي تأبى النفس أن ترثه، ليس جديراً بأن ينفّذه الجسد" .

نظرتُ إلى السيد المسنّ، والتزمتُ الصمت، إذ إنني لم أكنْ أفهمُ آنذاك ما يقصده.

أضاف بتهكّمٍ ودود : "أم أنك تفضّل أن تصبح تاجراً؟" .

سألتُ بحياء: "وهل ينبغي عليّ أن أعود وأطفئ الفوانيس في الصباح ثانيةً؟" .

ربتَ البارون على خدّي وقال: "بالطبع، عندما تحضرُ الشمس، لا يعود البشر بحاجة إلى أيّ ضوءٍ آخر" .

في بعض الأحيان، حينما كان البارون يتكلّم معي، كان يختلسُ النظر إليّ بطريقةٍ غريبة؛ وكان يلوحُ في عينيه سؤالٌ صامت مفاده: "هل تفهم أخيراً؟"، أو كان يقصد بذلك: "أنا شديد الجزع، ألا تستطيع تخمين ذلك؟" .

في مثل هذه الحالات كنتُ أشعرُ بحرقةٍ لاذعة في صدري، كما لو أن ذلك الصوت، الذي كان قد صرخ آنذاك، أثناء اعترافي أمام الراهب الأبيض، باسم كريستوفر، يعطيني جواباً غير مسموع.

كان البارون مشوّهاً بجدرةٍ ضخمة في الجهة اليسرى من عنقه، بحيث أن ياقة سترته لا بد أن تبقى مفتوحة كي لا تعيق حركة العنق.

ليلاً، حينما تكون الستـرة معلّقة على الكرسي ذي المسند وتبدو كجذعٍ مقطوع الرأس، غالباً ما كان يداخلني فزعٌ لا يوصف؛ ولم يكنْ في مقدوري التخلّص منه، إلاّ إذا تصوّرت أيّ تأثيرٍ لطيف وودود للغاية كان ينبعث من البارون في الحياة. رغم مرضه ومظهره، الذي يكاد يثير الضحك عندما تبرزُ لحيته الشيباء عن الجدرة كمكنسةٍ منفوشة، كان لدى مربّيّ شيءٌ ما شفّافٌ ومرهف جداً، شيءٌ ما طفولي على نحوٍ محيّر، شيءٌ يفيدُ بعدم القدرة على إيذاء أو جرح أحد، يشتدّ تصاعده عندما كان يتسربلُ بمسحة التهديد في بعض الأحيان، أو ينظرُ إلى أحدهم نظرةً صارمة من خلال العدستين المقرّبتين الحادّتين لنظّاراته قديمة الطراز.

في مثل هذه اللحظات كان يبدو لي أشبه بعقعقٍ ضخم ينزرعُ أمام أحدهم مباشرةً، كما لو أنه يتحدّاه للقتال، عيناه جاحظتان في أقصى حالات اليقظة، ويكاد لا يستطيع إخفاء خوفه: "ولكنك لن تجرؤ على اصطيادي مثلاً!؟".



كان منزل عائلة يوخَر، الذي قُدِّرَ لي أن أعيش فيه سنواتٍ كثيرة، واحداً من أقدم منازل البلدة؛ منزل يضمُ عدة طوابق، كان قد سكن فيه أجداد البارون - كلّ جيلٍ في طابقٍ أعلى من الجيل السابق، كما لو أن توقهم إلى الاقتراب من السماء يكبر باستمرار.

لا أستطيعُ أن أذكر أن البارون قد وطأ في أيّ وقت هذه الحجرات القديمة، التي كانتْ نوافذها المطلّة على الزقاق رماديةً ومعكّرة؛ فقد عاش معي في الغرف القليلة بسيطة الأثاث والمطلية بالأبيض والواقعة تحت السطح مباشرةً.

من المعروف أن الأشجار تنمو في أيّ مكانٍ في الأرض، ويجلسُ الناس تحتها متظلّلين بفيئها؛ أما عندنا فتنمو شجرة بيلسانٍ ذات أزهار بيضاء فوّاحة، في قدْرٍ حديدي صدئ، كان مخصَّصاً فيما مضى لمزراب المطر، يمتدّ منه إلى بلاط الشارع في الأسفل أنبوبٌ مليء بالتراب والأوراق العفنة المقذوفة بفعل الريح.

وهناك في الأسفل ينسابُ نهرٌ رمادي لا أمواج فيه، ناشئٌ عن تجمّع مياه الجبال، بمحاذاة المنازل القديمة ذات اللون الوردي والبنّي المصفرّ والأزرق الفاتح والنوافذ الجرداء، والتي تقبعُ عليها الأسقف كقبّعاتٍ طحلبية اللون لا حواف واضحة لها. يجري النهر على شكل دائرةٍ حول البلدة، التي تبدو ضمن هذه الدائرة أشبه بجزيرة تحبسها عروة من المياه؛ فهو يأتي من الجنوب ويتّجه نحو الغرب، ثم يلتفّ حول البلدة، ليعود نحو الجنوب ثانيةً، عابراً هناك لساناً برّياً ضيّقاً يقع فيه منزلنا كآخر منزل، ويفصله عن الموضع الذي يبدأ فيه بتطويق البلدة، - ليختفي بعد ذلك عن الأنظار خلف رابيةٍ خضراء.

ثمة جسرٌ خشبي بنّي اللون محفوف بسورٍ من الألواح السميكة بارتفاع قامة الرجل - أرضيتُه من جذوع الأشجار القشرية الخشنة، كانت تهتزُ عندما تمرّ عليها العربات التي تجرّها الثيران - وهو يسمحُ بالانتقال إلى الضفة الأخرى المكسوّة بالغابات، حيث تهوي أجزاء من التربة الرملية في المياه.

ومن فوق سطح منزلنا، يمكن النظر إلى السهول العشبية البعيدة، التي تحلّقُ الجبال في أفقها الضبابي البعيد كالغيوم، بينما تجثمُ الغيوم على الأرض كالجبال.

في وسط البلدة يرتفعُ مبنىً برجيّ متطاول، لم يعدْ ينفعُ ولا يضرّ في شيء، وهو يتلقّفُ الوهج اللاسع لشمس الخريف بنوافذ لا حواجب لها تشعُ ناراً.

وفي ساحة السوق، الخالية من الناس دائماً، تنتصبُ مظلاّت التجّار الكبيرة، وسط أكوامٍ من السلال المقلوبة، كلعبٍ ضخمة منسيّة، وينمو العشب في الشقوق بين أحجار أرضيتها.

في أيام الآحاد، عندما تحرقُ الحرارة جدران المجلس البلدي باروكي الطراز، تتصاعدُ من الأرض أحياناً النغماتُ المكظومة لموسيقا نحاسية، تحملُها نسمة هواءٍ باردة، - ثم تصبح أقوى فأقوى، وتتثاءب بوّابة حانة "تُسوم بوست" فجأةً، ويسيرُ أحياناً موكبُ زفافٍ بخطىً متّئدة إلى الكنيسة في زيٍّ قديم ملوّن، ويلوّحُ فتيانٌ بعصائب ملوّنة بالأكاليل احتفالاً، وفي المقدّمة ثلّة من الأطفال، يترأّسهم طفلٌ معوّق في العاشرة من العمر، ضئيل الجسم وخفيف الحركة كابن عرس، رغم استخدامه عكّازين، وهو يكاد يُجَنّ من الفرح والسرور، كما لو أن فرح الأطفال يخصّه وحده، في حين يرزحُ الآخرون جميعاً تحت وطأة جدّية الاحتفال.

ما إن استلقيتُ في السرير في ذلك المساء الأول، بغية الخلود إلى النوم، حتى فُتِحَ الباب، وتملّكني من جديد خوفٌ غامض، إذ تقدّم مني البارون، وظننتُ أنه يريد أن يربطني، كما كان قد توعّدني.

بيد أنه اكتفى بالقول: "أريد أن أعلّمك الصلاة؛ - كلّهم يجهلون كيفية الصلاة. فالمرء لا يصلّي بالكلام، بل يصلّي باليدين.

من يصلّي بالكلام، فهو يستجدي ويتوسّل. والمرء لا يستجدي. الروحُ على علمٍ مسبق بما أنت في حاجةٍ إليه. أما عندما تتلامسُ راحتا

اليدين، فتكون اليد اليسرى في الإنسان منضمّةً إلى السلسلة عبر اليد اليمنى.

هكذا يكون الجسد مقيَّداً بإحكام، وتتصاعدُ من رؤوس الأصابع شعلةٌ بشكلٍ حرّ. - هذا هو سرّ الصلاة، الذي لا يردِ في أيّ كتاب".

في هذه الليلة تجوّلتُ لأول مرة، من غير أن أستيقظ في السرير صباحاً، وأنا بملابسي وبحذاءٍ معفّر.

2

عائلة موتشلكناوس

يبدأ الشارع، الذي تسمّيه ذاكرتي صفّ الخبّازين، بمنزلنا، الذي ينتصب فيه منفرداً كأول منزل.

يطلُّ منزلنا على الأراضي الريفية من ثلاث جهات، أما الجهة الرابعة، فيفصلها عن المنزل المجاور زقاقٌ، هو من الضيق إلى حد أن باستطاعتي ملامسة جداره، إذا ما فتحتُ النافذة المطلّة على الدرج، وانحنيتُ إلى خارجها. -

لا اسم لهذا الزقاق بين المنزلين، فهو مجرد ممرٌ ضيّق يمتدّ صعوداً - ممرٌ لا مثيل له على وجه البسيطة -، ممرّ يصل بين ضفّتي النهر؛ فهو يعبرُ هنا اللسان البرّي لتلك الحلقة المائية، والذي نسكن فيه.

في الصباح الباكر، عندما أمضي لإطفاء الفوانيس، ينفتحُ عادةً بابٌ في الأسفل في المنزل المجاور، وتقومُ يدٌ مسلّحة بمكنسةٍ بكنس نشارة الخشب إلى النهر المتدفّق، الذي يتيح لها القيام برحلةٍ حول البلدة بكاملها، ليجرفها بعد نصف ساعة على بعدٍ يزيد عن خمسين متراً من فوق السدّ، حيث يودّعُ البلدة هادراً.

يُفضي الممرّ في نهايته هذه إلى صفّ الخبّازين؛ وعند الناصية ثمة محلٌ في المنزل المجاور تعلوه لافتة مكتوب عليها:

مصنع المثاوي الأخيرة

بإشراف

أدونيس موتشلكناوس

وفي السابق كان مكتوباً عليها:

معلّم خراطة ونجّار توابيت؛

هذا ما لا يزال بإمكان المرء أن يقرأه بوضوح، حينما تبتلّ اللافتة بالمطر؛ حيث تنكشف عندها اللافتة القديمة ثانيةً.

كلّ يومٍ أحد يذهب السيد موتشلكناوس، برفقة زوجته أغلايا وابنته أوفيليا، إلى الكنيسة؛ حيث يجلسون في الصفّ الأول. هذا يعني أن السيدة والآنسة موتشلكناوس تجلسان في الصفّ الأول. أما السيد موتشلكناوس فيجلس عند الزاوية في الصفّ الثالث، أسفل التمثال الخشبي للنبي يونس؛ حيث تسودُ ظلمةٌ دامسة.

كم يبدو لي كلّ هذا الآن، بعد هذه السنوات الكثيرة، مضحكاً للغاية و - - ومحزناً أيضاً بشكلٍ لا يوصف.

السيدة موتشلكناوس تتدثّرُ باستمرار بثوبٍ حريري أسود له حفيفٌ مسموع، يبرزُ منه كتاب الصلوات المخملي الأحمر أشبه بهاللويا بالألوان. وتسيرُ السيدة بخطواتٍ متقاربة بحذاءٍ طويل مدبَّب باهت اللون ذي شريطٍ مطّاطي، رافعةً أذيال ثوبها عند كلّ نقرة مياهٍ بكلّ عناية؛ وعلى وجنتيها ثمة شبكةٌ كثيفة من العروق الدقيقةِ الحمراء المتصدّعة الضارية إلى الزرقة، تحت بشرةٍ مطلية بالأصباغ الوردية، تشي بدنوّ الشيخوخة؛ أما العينان، المعبّرتان جداً عادةً، فمكحّلتا الرموش بعناية، مسبّلتا الجفون بحياء، إذ من غير اللائق أن تشعّا بالإغواء الأنثوي الآثم، بينما تدعو الأجراسُ الناسَ إلى بيت الربّ.

أما أوفيليا فترتدي ثوباً إغريقياً فضفاضاً، وتضعُ قوساً ذهبية حول شعرها الأجعد ذي اللون الأشقر الرمادي، الذي ينسدلُ حتى كتفيها. ولم أرَها يوماً إلاّ وكان شعرها متوّجاً بإكليلٍ من الريحان.

تتمتّع أوفيليا بمشيةٍ رزينة وهادئة وجميلة كملكة. والحق أن قلبي يخفقُ كلما فكّرتُ فيها.

تتبرقعُ أوفيليا بإحكامٍ وهي في الطريق إلى الكنيسة - ولم أرَ وجهها إلاّ متأخّراً جداً، مع عينيها الواسعتين القاتمتين ذات النظرة الشاردة، اللتين تتميّزان عن شعرها الأشقر على نحوٍ شديد الغرابة.

أما السيد موتشلكناوس، في سترة الأحد السوداء الطويلة المتهدّلة، فغالباً ما يسير خلف السيدتين بقليل؛ وإذا ما نسي نفسه وأصبح بمحاذاتهما، همستْ له السيدة أغلايا:

"أدونيس، نصف خطوة إلى الوراء!".

وجهُه كئيبٌ نحيل ومستطيل، ذو لحيةٍ خفيفة محمرّة وأنفٍ معقوف شديد البروز كمنقار طير، يعلوه جبينٌ مقعر ينتهي بقمّة رأسٍ مدبّبة صلعاء، تبدو مع حزام الشعر البقعي المحيط بها، كما لو أن صاحبها قد نطح بها فراءً أجرب، ونسي أن يمسح البقايا العالقة حولها.

إطار القبّعة الأسطوانية، التي كان يضعها السيد موتشلكناوس في كلّ مناسبةٍ احتفالية، يجب أن يكون دائماً مبطّناً من ناحية الجبين بكبكوبةٍ من القطن بسمك الإصبع، كي تثبتُ في مكانها ولا تهتزّ.

لا يُرى السيد موتشلكناوس في بحر الأسبوع أبداً. فهو يأكلُ وينام في ورشته في الأسفل. بينما تعيشُ سيدتاه في عدة غرفٍ في الطابق الثالث.

والحق أنني لم أعرفْ أن السيدة أغلايا وابنتها والسيد موتشلكناوس أسرة واحدة، إلاّ بعد مضيّ ثلاث إلى أربع سنوات من تبنّيّ البارون لي واستضافتي في منزله.



ثمة جلبةٌ رتيبة غير مفهومة تملأ الممرّ الضيّق بين المنزلين من مطلع الفجر إلى ما بعد منتصف الليل، كما لو أن سرباً من النحل الضخم، في مكانٍ ما من جوف الأرض، لا يهدأ ولا يستريح؛ وتترامى الجلبة إلينا في الأعلى بشكلٍ خافت ومخدِّر، حينما يسكن الهواء. - كانت هذه الجلبة تثيرني في البداية، وكنتُ مضطراًّ إلى سماعها نهاراً باستمرار، حيث يُفترَضُ بي أن أدرس وأتعلّم، من غير أن يخطر لي، ولو لمرةٍ واحدة، أن أسأل عن مصدرها. لا يبحث المرء عن سبب وقائع تتكرّر بلا انقطاع؛ فهي تبدو له بديهية، ويعتادُ عليها ويرتضي بها، مهما كانت في الواقع غير مألوفة. لا يغدو الإنسان شغوفاً بالمعرفة، أو يولّي هارباً، إلاّ عندما تُصاب الحواس بالذعر.

هكذا اعتدتُ على هذه الجلبة، كما لو أنها طنين في الأذن، إلى درجة أنني، حينما تصمتُ ليلاً فجأةً، كنتُ أنهضُ من نومي بغتةً، معتقداً أن أحداً ما أنزل بي ضربة.

ذات يوم، وبينما كانت السيدة أغلايا تنعطفُ حول الناصية بسرعة، وهي تسدُ أذنيها بيديها، طيّرتْ من يدي سلّة بيض، فاعتذرتْ قائلةً: "يا إلهي، بنيّ العزيز، هذا مردّه إلى عملية الخراطة الفظيعة التي يقوم بها الـ المُعيل". وأكملتْ، كما لو أنها تلتقط أنفاسها: "و - و - وصبيانه".

فكّرتُ بيني وبين نفسي: "إذاً، مخرطة السيد موتشلكناوس هي التي كانت تئزُ وتطنّ على هذا النحو!"، وعلمتُ فيما بعد أنه لا يوجد لديه صبيان مساعدون على الإطلاق، وأن المصنع يقومُ على كتفيه هو وحده.

كان مساءً مظلماً ومكفهراً لا ثلج فيه، وكنت أهمّ بإبعاد غطاء الفانوس عند الناصية بعصاي لإشعاله، فإذا بصوتٍ هامس يناديني: "بسّت، بسّت، سيد تاوبنشلاغ!"، وعرفتُ فيه صوت معلّم الخراطة موتشلكناوس، وكان واقفاً في الممرّ يلوّحُ لي بمئزره الأخضر وخفّيه اللذين يحمل كلّ منهما رأس أسدٍ مطرّز بلآلئ ملوّنة.

"سيد تاوبنشلاغ، أرجوك، دعِ المكان هنا معتماً اليوم، إن أمكن، لو سمحت" - "أتعرف" - تابع، لأنه لاحظ كم كنتُ مبهوتاً، رغم أنني لم أجرؤْ على السؤال عن السبب، "أتعرف، - ليس لأنني أودّ التغرير بك للإخلال بواجبك المهمّ، لا سمح الله، ولكن كرامة السيدة قرينتي ستكون على المحكّ، إذا ما انكشف ما أقوم به من عمل. وسوف يضيعُ مستقبل ابنتي كممثلة إلى الأبد. - لا يجوز لعينٍ بشرية أن ترى ما يحدث هنا الليلة!". -تراجعتُ خطوة إلى الخلف، فقد أفزعتْني نبرة كلام الرجل المسنّ، وهو يخاطبني بسحنةٍ شوّهها القلق، - "لا، لا، أرجوك، لا تهربْ، سيد تاوبنشلاغ! - إنها ليست جريمة! - طبيعي أنه إذا ما انفضح الأمر، لا بد أن أنتحر غرقاً! - أتعلم، لقد تلقّيتُ في الواقع طلبيةً - طلبيةً مريبة للغاية من زبونٍ في المدينة، وسوف يتمّ شحنها في عربةٍ الليلة، بعد أن يخلد كلّ شيءٍ إلى النوم؛ والطلبية في الحقيقة... إحم".

أحسستُ أن عبئاً قد انزاح عن كاهلي.

مع أنني لم أستطعْ أن أعرف ما هو الموضوع بالتحديد، إلاّ أنني خمّنتُ أنه شيءٌ بريء لا ضرر منه بالتأكيد.

قلتُ عارضاً خدماتي: "هل يُفترَض بي أن أساعدك في التحميل؟".

كاد معلّم الخراطة يعانقني من فرط بهجته: - "ولكن ألن يعلم السيد فرايهر بالأمر؟"، سألني بنفَسٍ واحد مهموماً من جديد. "وهل يُسمَح لك بالنزول في ذلك الوقت المتأخّر؟ - فأنت لا تزال صغير السنّ!".

طمأنتُه بقولي: "لن يلحظ مربّيّ شيئاً".

وعند منتصف الليل سمعتُ مناداةً باسمي بصوتٍ خافت من الأسفل.

نزلتُ الدرج متسلّلاً، ورأيتُ معالم عربة نقلٍ تقفُ في العتمة.

كانتْ حوافر الخيل ملفوفةً بالخرق كي لا تُسمع طرقاتها - وكان يقفُ بجانب معلّم الخراطة عامل النقل، ويبتسم في كلّ مرةٍ يجرّ فيها السيد موتشلكناوس من ورشته سلّة مليئة بأغطيةٍ خشبية دائرية كبيرة بنّية اللون، في وسط كلّ منها مسكة.

اندفعتُ على الفور، ورحتُ أساعد في التحميل. لم تمضِ ساعةٌ واحدة حتى كانت العربة مليئة حتى أعلاها، وراحتْ تتهادى على الجسر المسيّج، وسرعان ما اختفتْ في الظلام.

سحبني الرجل المسنّ إلى داخل ورشته رغم ممانعتي.

ثمة طاولةٌ دائرية ناعمة الملمس، عليها إبريقٌ من البيرة وكأسان، وكانت الكأس المخصّصة لي منهما، كما هو واضح - وهي قطعةٌ حسنة الجلخ -، تتلقّفُ، مثل قرصٍ زجاجي نيّر، كلَّ الضوء الشحيح لمصباح الزيت الصغير المعلّق أعلاها؛ بينما كان باقي الحجرة المستطيلة يقبعُ في العتمة. ولم أستطعْ تمييز الأشياء، إلاّ بعد أن اعتادتْ عيناي على العتمة، وتأقلمتْ معها شيئاً فشيئاً.

وكان هناك محورٌ فولاذي يمتدُ من حائطٍ إلى حائط، تُديرُه من الخارج ناعورةٌ في النهر تدفع المياه في ساقية أثناء النهار. - أما الآن فكانتْ تغفو عليه عدة دجاجات.

وهناك سيورٌ جلدية تتدلّى على المخرطة كعُرى مشانق. - ويبرزُ في الركن تمثالٌ خشبي للقديس سيباستيان والسهام تخترقه. وعلى كلّ سهمٍ كانت تنام دجاجة كذلك.

ثمة تابوتٌ مفتوح، في داخله بضعة أرانب منزلية غافية تُحدث صوتاً بين الحين والآخر، ويقعُ هذا التابوت عند النهاية السفلية لمضجعٍ خشبي بائس، كان معلّم الخراطة يستعمله كسرير.

لم يكنْ يزيّن الغرفة سوى رسمٍ مغطى بالزجاج ذي إطار ذهبي ومحاطٍ بإكليل من الغار؛ وهو يمثّلُ سيدةً شابة في وضعيةٍ مسرحية، عيناها مغمضتان وفمها نصف مفتوح، عاريةً إلاّ من ورقة توت، بشرتها بيضاء كالثلج، كما لو أنها تقفُ موديلاً وهي مطلية بماء الجبس.

حينما لاحظ السيد موتشلكناوس أنني توقّفتُ أمام الصورة، احمرّ وجهه خجلاً، وسارع إلى القول: "إنها السيدة قرينتي، في الوقت الذي اتفقنا فيه على الارتباط الأبدي"، ثم تنحنح وأضاف شارحاً: "لقد كانت في الحقيقة حوريةً من المرمر. - - نعم ، نعم، ألويْزيا - هذا يعني أغلايا - السيدة قرينتي، لقد كان من سوء حظّها أن أطلقَ عليها أهلُها الأبرار في المعمودية، وهي طفلة صغيرة، هذا الاسم المُخجل ألويْزيا . ولكنك لن تستخدمه أو تبوح به، سيد تاوبنشلاغ، أليس كذلك! وإلاّ تأثّرت السمعة الفنّية للآنسة ابنتي. إحم". - ثم قادني إلى الطاولة، وانحنى وهو يقدّمُ لي أريكة، وصبّ لي كأساً من البيرة الخفيفة.

بدا أنه نسي تماماً أنني كنت فتىً يافعاً - لم أتجاوزِ الخامسة عشرة من العمر -، إذ كان يتحدّثُ إليّ كما يتحدّثُ إلى شخصٍ راشد، كما يتحدّثُ إلى سيدٍ يفوقه بالقدْر والعلم والثقافة.

اعتقدتُ بدايةً أنه لم يكنْ يبغي من حديثه إليّ غير مؤانستي، ولكنني سرعان ما خمّنتُ من نبرته المضغوطة والخوّافة، كلما نظرتُ إلى الأرانب، أنه كان يرغب في صرف انتباهي عن المحيط الفقير المتواضع.

هكذا بذلتُ جهدي للجلوس بهدوءٍ وعدم السماح لعينيّ بالطواف في المكان.

سرعان ما دخل في حالةٍ من الإثارة العميقة. وظهرتْ على خدّيه الغائرين بقعٌ دائرية حمراء.

كان كلامه يشي بوضوحٍ متزايد بالجهد المتشنّج الذي كان يبذله لتبرير نفسه إزائي!

كنتُ آنذاك أشعرُ بأنني لا أزال طفلاً بمعنى الكلمة - فضلاً عن أن معظم ما رواه لي كان يفوقُ قدرتي على الفهم والاستيعاب -، إلى حد أنه داخلني تدريجياً فزعٌ خفيف لا أدري له سبباً، بفعل التنافرات والمفارقات العجيبة التي أثارها فيّ حديثه.

فزعٌ أخذ يتآكلني في العمق، وكان يستفيقُ في داخلي بقوةٍ أخذتْ تزداد من سنةٍ لسنة، حتى بعد أن أصبحتُ رجلاً، وذلك كلما طفتِ الصورة في ذاكرتي بالمصادفة. ومع نموّ معرفتي بالفظاعات التي يفرضُها الوجود على الإنسان، ازدادتْ أيضاً كلّ كلمة، تفوّه بها معلّم الخراطة آنذاك، عريّاً فاقعاً واتّسع أفقها في ذاكرتي، وأمكنها أن تتحوّل إلى كابوس، إذا ما استحضرتُ في ذهني السياقات وتخيّلتُ القدَر

البائس لمعلّم الخراطة والظلمةَ الدامسة التي كانتْ تلفُ نفسَه وحالةَ النشاز الفظيع والتنافر المروّع بين المهزلة الشبحية، التي كانت تلازمه، وبين استعداده المغالي، والمؤثّر جداً في آن، للتضحية في سبيل مثلٍ أعلى مزيّف، لم يكنْ للشيطان نفسه أن يُدخله في حياته سراباً أشد شماتةً.

أحسستُ آنذاك، كطفل، بأن حديثه، أودّ القول: أشبه باعترافٍ مجنون بخطاياه، اعتراف كان المقصود به آذاناً أخرى غير أذنيّ، ولكنني كنت مضطراً إلى الاستماع إليه، شئتُ أم أبيت، تمسكني يدٌ غير مرئية أرادتْ صبّ السمّ في دمي.

والحق أن وهم معلّم الخراطة بأنني كنت في مثل سنّه أو أكبر منه سناً، لا فتىً صغيراً، قد انتقل إليّ بشدةٍ وحيوية، إلى حد أنني مررتُ بلحظاتٍ شعرتُ فيها أنني هشٌ ومتداعٍ كعجوزٍ هرم. "أجل، أجل، كانت فنّانة كبيرة وشهيرة"، هكذا بدأ على وجه التقريب؛ "أغلايا! ما من أحدٍ في هذا العشّ الوضيع يخمّن ذلك. هي لا تريد أن يعلم بذلك أحد! أتعلم، سيد تاوبنشلاغ، أنا لا أستطيعُ البوح بذلك كما أشاء. أنا أكادُ لا أجيد الكتابة. هذا سرٌ فيما بيننا، أليس كذلك؟ كما كان الحال منذ لحظاتٍ فيما يخصّ الأغطية الخشبية طبعاً. أنا لا أجيدُ في الواقع سوى كتابة كلمةٍ واحدة" - تناول قطعة طبشور من جيبه ورسم على الطاولة -، "وهي هذه: أوفيليا".

"كما إنني لا أجيدُ القراءة إطلاقاً. أنا في الحقيقة" - انحنى إلى الأمام وهمس في أذني سراً -"اعذرْني على التعبير: مغفَّل. أتعلم: كان أبي قاسياً جداً في الحقيقة، ولأنني ذات مرة، وأنا ولدٌ صغير، تركتُ الغراء يشتعل، حبَسني مدة أربع وعشرين ساعة في تابوتٍ معدني، كان

قد انتهى من تصنيعه للتو، وقال إنه سيدفنني حيّاً. صدّقتُ ذلك بالطبع، ومرّ عليّ الوقت في الداخل مخيفاً جداً أشبه بدهرٍ في الجحيم لا نهاية له، إذ لم يكنْ باستطاعتي الحركة، ولا حتى التنفّس تقريباً. وقد كسرتُ أسناني الأمامية السفلية خوفاً من الموت. ولكن"، أضاف بصوتٍ خافت تماماً، "لماذا تركتُ الغراء يشتعل! وفيما هم يُخرجونني من التابوت، فقدتُ صوابي. والكلام أيضاً. ولم أتعلّم الكلام ثانيةً إلاّ بعد عشرين سنة. ولكن هذا سرّ فيما بيننا، أليس كذلك، سيد تاوبنشلاغ! فإذا علم الناس بفضيحتي، ضاعتِ السمعة الفنّية للآنسة ابنتي! إحم. - ثم عندما انتقل أبي إلى رحمته تعالى - وقد تمّ دفنه في التابوت نفسه - وخلّف لي المحلّ والمال أيضاً - كان أرمل -، أرسلتْ لي العناية الإلهية من باب مواساتي - إذ إنني ظننت أنني لا بد أن أموت من البكاء حزناً على أبي - أوبرّيغيسييه باريس كملاكٍ إلى البيت. ألا تعرف السيد باريس الفنّان؟ إنه يأتي إلينا كلّ يومين لإعطاء الآنسة ابنتي دروساً في التمثيل المسرحي! اسمه على اسم الإله الإغريقي باريس؛ إنها العناية الإلهية منذ نعومة أظفاري. إحم. - السيدة قرينتي الحالية كانتْ في ذلك الوقت لا تزال شابة. إحم. - هذا يعني، أقصد أنها كانتْ لا تزال فتاة. إحم. - وقد لجمَ السيد باريس مسيرتها الفنّية. كانت حوريةً من المرمر في مسرحٍ سرّي في العاصمة. إحم".

من أسلوبه المفكّك، الذي كان ينطقُ به الجمل، ومن الفواصل والوقفات الصغيرة غير المقصودة، التي كان يمضي في حديثه بعدها في كلّ مرة، لاحظتُ أن ذاكرته كانتْ تنطفئ بين الحين والآخر، لتتّقد من جديد، أشبه بالشهيق بعد الزفير. لقد كان واقع الحال في وعيه كالمدّ

والجزر. وشعرتُ غريزياً بأنه "لم يكنْ قد تخفّف بعد من ذلك العذاب المخيف في التابوت المعدني؛ فهو لا يزال مدفوناً حيّاً إلى اليوم".

"إذاً، ما أن ورثتُ المحلّ آنذاك، حتى دخل السيد باريس بيتنا، وقال إن حورية المرمر الشهيرة أغلايا رأتْني بالمصادفة أثناء الدفن، بينما كانت تعبرُ بلدتنا. إحم. - وإنها حينما شاهدتْني أبكي عند قبر أبي، قالتْ (انتفضَ موتشلكناوس واقفاً فجأةً، وراح يتكلّم بلهجةٍ خطابية منغمة، كما لو أنه يرى الكلام مكتوباً في الجوّ بحروفٍ من نار)، قالتْ: "أريد أن أكون لهذا الرجل البسيط سنداً في الحياة ونوراً في الظلمة لا ينطفئ أبداً. أريد أن ألدُ له طفلاً تكون حياته مكرَّسة للفنّ. أريد أن أفتح نوافذ عقله على الرفعة والسموّ، ولو حطّمتُ قلبي جراء ذلك في وحشة الحياة العادية الرتيبة. وداعاً للفنّ! وداعاً للشهرة! وداعاً لمواقع المجد والنجاح! أغلايا تذهب ولن تعود". إحم". مسحَ جبينه بيده، وجلس ثانيةً على كرسيه ببطء، كما لو أن الذكرى انقطعتْ فجأةً.

"إحم. وفيما كنا نجلس ثلاثتنا آنذاك إلى وليمة العرس، أخذ السيد أوبرّيغيسييه يبكي بصوتٍ عالٍ وهو ينتّف شعره. وراح يصرخ بلا انقطاع: "إذا خسرتُ أغلايا، أصبح مسرحي أطلالاً. أنا رجلٌ ميت".

- إحم. الألف غولدن، التي أجبرتُه على قبولها، كي لا يخسر كلّ شيءٍ على الأقل، لم تكفِ لمدةٍ طويلة بالطبع. إحم.

منذ ذلك الحين وهو حزينٌ كئيب. ولم يستردَّ جزءاً من قواه إلاّ الآن، حيث اكتشف الموهبة العظيمة للآنسة ابنتي. إحم. لا بد أنها ورثتْها عن السيدة والدتها. إحم، بعض الناس تتلقّفهم إلهة الفنّ وهم في المهد: أوفيليا! أوفيليا!". تملّكتْه بغتةً حماسةٌ عارمة؛ فأمسك ذراعي وهزّني

بعنف. "هل تعلم أيضاً، سيد تاوبنشلاغ، أن أوفيليا، طفلتي، طفلة مباركة؟ كلما جاء السيد باريس ليستلم مرتّبه هنا عندي في الورشة يقول : "لا بد أن الإله فستالوس نفسه كان حاضراً عندما أنجبتماها، معلّم موتشلكناوس!". أوفيليا" - وانخفض صوته ثانيةً إلى نبرة الهمس - ، "ولكن هذا سرّ أيضاً، على غرار الحال منذ قليل بخصوص الـ أجل، بخصوص الأغطية الخشبية. إحم. - أوفيليا أبصرت النور بعد ستة أشهرٍ فقط.

إحم. يحتاج الأطفال الآخرون إلى تسعة أشهر. إحم. - ولكن ليس في الأمر معجزة. فوالدتها أيضاً وُلِدَتْ والحظّ يرفرفُ فوقها. إحم. هل تعلم، سيد تاوبنشلاغ، أنها كادت أن تتربّع على عرش؟! ولولاي أنا - غالباً ما تنهمر دموعي عندما أفكّر في ذلك - لأمكن أن تكون اليوم جالسةً في عربة ملكية تجرّها أربعة أحصنة بيضاء، بيد أنها ترجّلتْ إليّ. إحم. - وفيما يخصّ العرش" - رفعَ أصابع القسَم الثلاثة -، "كان الأمر كما يلي - بشرفي لا أكذب -: كان السيد أوبرّيغيسييه في شبابه في الحقيقة، وأنا أعرف ذلك عن لسانه شخصياً، مستشاراً كبيراً عند ملك بلاد العرب في بلغراد. كان هناك من أجل تدريب حريم جلالة سموّه. إحم. وكانت السيدة قرينتي الحالية، وجراء مواهبها، قد ترقّتْ إلى مرتبة ما يُسمّى في بلاد العرب "الخليلة" الأولى - بوصفها سيدةً بديلة لجلالة سموّه؛ فإذا بجلالته يُقتَل، ويهربُ السيد باريس والسيدة زوجتي ليلاً عبر النيل.

إحم. - ثم أصبحتْ - كما تعلم - حوريةً من المرمر، في مسرحٍ سرّي كان السيد باريس يُديره في حينه. إلى أن تخلّتْ عن النجاح والمجد. كما ترك السيد باريس مهنته أيضاً وكرّس نفسه لتعليم وتدريب أوفيليا.

إحـم. - وهـو يقـول دائمـاً: "جميعنـا يجـب أن نعـيش لأجلـها، وتتمثّـلُ رسـالتك السـامية، سـيد موتشـلكناوس، في تجنيـد كلّ شـيءٍ كـي لا تـوأدَ مسـيرةِ أوفيليـا الفنّيـة في مهـدها بسـبب ضـائقةٍ ماليـة". - أتـرى، سـيد تاوبنشـلاغ، هـذا أيضـاً سـبب اضـطراري لقبـول طلبيـات مريبـة - أنـت تعـرف بـالطبع! - صـنعُ التوابيـت لا يـدرُ مـا يكفـي مـن المـال. فـالموتى قليلـون. إحـم. - كـان لي أن أتحمّـل نفقـات تعليم الآنسـة ابنـتي، لـولا أن الشاعر عالمي الشهرة، السيد البروفسور هاملت في أمريكا، يطلبُ الكثير المـال. والحـق أنـني اضـطررتُ إلى أن أحـرّر لـه سـند ديـن، ولا بـد لي مـن أسدّده الآن من خلال عملي. إحم. - إن السيد البروفسور هاملت هو في الحقيقة أخو السيد باريس في الرضاعة، وعندما سمع بموهبـة أوفيليا العظيمة، قام بنظْم قطعةٍ مسرحية خصيصـاً لهـا. وكـان عنوانهـا: "ملـك الدانمارك". وفيها يُفترَض بوليّ العهد أن يتزوّج مـن الآنسـة ابنـتي، ولكـن جلالـة السـيدة والدتـه لا تسـمح بذلك، مـا يـدفعُ أوفيليـتي إلى الانتحـار غرقاً. أوفيليتي تنتحرُ غرقاً!". فاصلٌ اعتباطي قصير، كان السيد المسن بأمسّ الحاجـة إليـه. "حينمـا سـمعتُ بهـذا، كـاد قلـبي يتقطّـع. كـلا، كـلا، كلا! أوفيليتي، مقلـة عيني، دنيـاي كلـها، لا يجـوز أن تنتحـر غرقـاً! حتـى وإنْ كان ذلك في قطعةٍ مسرحية. إحم. - جثوتُ بين يديّ السيد باريس، وظللتُ أرجوه وأتوسّـل إليـه إلى أن كتـب للسـيد البروفسـور هاملـت. وقـد وعـدَ السـيد البروفسـور بأنـه سـوف يرتّـب الأمـور علـى نحـو تتـزوّجُ معـه أوفيليتي من وليّ العهد، ولا تموتُ غرقاً، شريطة أن أحرّر له سـند ديـن. كتب السيد باريس سند الدين، وذيّلته أنـا بثلاثـة صـلبان. ربمـا تضـحكُ من ذلك، سـيد تاوبنشـلاغ، لأنهـا مجـرد قطعـةٍ مسـرحية، وليسـت واقعـاً

حقيقياً! ولكن انظرْ، في القطعة المسرحية تُدعى أوفيليتي أوفيليا أيضاً. أتعلم، سيد تاوبنشلاغ، أنا لست أكثر من مغفّل؛ ولكن ماذا لو ماتتْ أوفيليتي غرقاً فعلاً؟ ما مصيري في هذه الحالة؟ ألن يكون خيراً لي لو أنني اختنقتُ على الفور في التابوت المعدني آنذاك؟!".

أحدثتِ الأرانب ضجيجاً عالياً في تابوتها. ارتعش معلّم الخراطة ودمدم: "يا للأرانب اللعينة!".

حلّ فاصلٌ طويل؛ فانقطعتْ سلسلة أفكار الرجل المسنّ تماماً. وبدا أنه نسي وجودي كلياً، ولم تعدْ عيناه تريانني. نهضَ بعد برهة، اتّجه صوب المخرطة، وضع سيْر نقل الحركة حول قرص التدوير وشغّله. وسمعتُه يدمدم: "أوفيليا! كلا، لا يجوز لأوفيليتي أن تموت! يجب عليّ أن أعمل وأعمل، وإلاّ فهو لن يغيّر القطعة المسرحية، و-". وابتلع أزيزُ الآلة كلماته الأخيرة. فما كان مني إلاّ أن تسلّلتُ بهدوءٍ خارجاً من الورشة، وصعدتُ إلى غرفتي. وفي السرير، شبكتُ يديّ، وتضرّعتُ إلى الله، لست أدري لماذا، أن يحرس أوفيليا ويحفظها.

3

التجوال

مررتُ في تلك الليلة بمعايشةٍ عجيبة؛ لعلّ الآخرين يسمّونها حلماً، إذ إنهم لا يعرفون سوى هذه التسمية القاصرة لكلّ ما يعايشه الإنسان وجسده نائم.

كعهدي دائماً قبل الخلود إلى النوم، كنت قد شبكتُ يديّ "لأضع اليسرى على اليمنى"، على حد تعبير البارون.

والحق أن فائدة هذا الإجراء لم تتّضحْ لي، إلاّ مع الخبرة التي اكتسبتها شيئاً فشيئاً بمرور السنين. لعلّ أيّة وضعيةٍ أخرى لليدين تحقّق الغرض نفسه، في حال قُرِنَ بها التصور التاليّ: الجسد يتمّ تقييده.

كلما استلقيتُ للنوم على هذا النحو، منذ أول مساء لي في منزل البارون، كنت أستيقظُ صباحاً على الشعور بأنني تجوّلتُ في النوم مسافةً طويلة على طريق، وأحسُ كأن عبئاً ثقيلاً انزاح عن كاهلي، عندما أستيقظُ في كلّ مرة، وأجد أنني مستلقٍ في السرير عارياً ومن دون حذاء معفّر - كما كان الحال في دار الأيتام فيما مضى - ولا حاجة بي للخوف من أيّ ضربات؛ بيد أنني لم أكنْ أتذكّرُ، أثناء النهار أبداً، إلى أين تجوّلتُ في الحلم.

وقد حدث لأول مرة في تلك الليلة أن الغشاوة زالتْ عن عينيّ.

لعلّ الطريقة الغريبة، التي عاملني بها معلّم الخراطة موتشلكناوس، قبل ذلك بقليل، وكأنني راشد، هي السبب الخفي في أن "أنا"، كانت خجولةً ومرتبكة أثناء النوم حتى ذلك الحين - ربما هي كريستوفر ذاك -، استفاقتْ في داخلي إلى وعيها وبدأتْ ترى وتسمع.

حلمتُ أولاً - هكذا بدأ الأمر - بأنني دُفنتُ حيّاً، ولم يكنْ باستطاعتي تحريك يدي ولا قدمي؛ ولكنني لم ألبثْ أن ملأتُ صدري بأنفاسٍ قوية وحطّمتُ غطاء التابوت؛ ثم مضيتُ في طريقٍ زراعية بيضاء منعزلة، كانت مخيفةً أكثر من التابوت، الذي أفلتُ منه، إذ عرفتُ أنها لن تنتهي أبداً. أحسستُ بشوقٍ إلى العودة إلى تابوتي، فإذا به ينتصبُ، هو أيضاً، في عرض الطريق.

كان طريّ الملمس كاللحم، وله ذراعان وساقان ويدان وقدمان كجثّة. وعندما دخلتُ فيه، لاحظتُ أنني لم ألقِ بأيّ ظلّ، وعندما نظرت إلى نفسي متفحّصاً، وجدتُ أنني لم أكنْ أمتلك جسداً؛ ثم تحسّستُ عينيّ، لم أكنْ أمتلك عينين؛ وعندما أردتُ النظر إلى يديّ المتلمسّتين، لم أرَ يدين.

وفيما كان غطاء التابوت ينغلقُ فوقي ببطء، خُيِّلَ إليّ وكأن تفكيري وشعوري، كمتجوّلٍ على الطريق الزراعية البيضاء، تفكيرُ وشعور رجلٍ طاعنٍ في السنّ، وإنْ لم ينحنِ ظهره بعد؛ ثم أثناء نزول غطاء التابوت اختفى هذا التفكير والشعور، تبخّر، وخلّف وراءه، كراسبٍ، أسلوبَ التفكير شبه الأعمى وشبه المتبلّد الذي اعتاد أن يملأ دماغ ذلك الفتى المراهق الأشبه بالغريب في هذه الحياة، والذي هو أنا.

وعندما انغلق الغطاء، استيقظتُ في سريري. هذا يعني أنني اعتقدت أنني استيقظت. كان الجوّ لا يزالُ مظلماً، ولكنني شعرتُ من رائحة البيلسان المخدِّرة، التي كانت تتسرّب إلى الغرفة عبر النافذة، أن أول نسمةٍ من الصباح القادم قد صعدتْ من التربة، وأن الوقت قد حان للخروج وإطفاء الفوانيس في البلدة. تناولتُ عصاي، وتلمّستُ طريقي نزولاً على الدرج. ثم، حينما أتممتُ مهمّتي، عبرتُ الجسر المسيَّج وصعدتُ جبلاً؛ ومع أن كلّ حجرٍ في الطريق بدا لي معروفاً، لم أستطعْ أن أتذكّر أنني كنتُ هنا في أيّ وقتٍ كان.

ثمة أزهارٌ ألبية وعشبٌ قطني كندف الثلج وأزهار خزامى عطرة كانتْ تملأ مروج المرتفعات المثقلة بالندى، والتي كانتْ لا تزالُ بلونٍ أخضر مسودّ في ضوء الفجر الباهت.

ثم أخذتِ السماء تنفرجُ عند حافة الأفق البعيد، والدم المنعش لشفق الصباح ينساب بين الغيوم. وبدأت الخنافس الزرقاء اللمّاعة والذباب البرّي الضخم يغادر التربة مرفرفاً بأجنحته الزجاجية فجأةً، وكأنما أيقظه نداءٌ سرّي غير مسموع، ليبقى في الهواء محلّقاً في مكانه على ارتفاع قامة الرجل، وهو يديرُ رأسه صوب الشمس المستفيقة.

سرتْ عبر أطرافي قشعريرةٌ هزّتني في العمق، حينما رأيتُ هذه الصلاة الصامتة الرائعة للمخلوقات، وشعرتُ بها وفهمتُها.

استدرتُ على أعقابي واتّجهتُ نحو البلدة ثانيةً، يسبقني ظلّي العملاق، وقدماه ملتصقتان بقدميّ على نحو لا ينفصم. يا لهذا الظلّ، يا لهذا الرباط الذي يقيّدنا بالأرض، يا لهذا الشبح الأسود الذي يخرجُ منا ويبوحُ بالموت الساكن فينا، إذا ما سقط ضوءٌ على جسدنا! كانت

الشوارع تقبعُ في ضوءٍ ساطع، فيما أنا أنعطف من أحدها إلى الآخر. وكان الأطفال في طريقهم إلى المدرسة بكلّ صخبهم وضوضائهم. فإذا بفكرةٍ تستفيقُ في ذهني: "لماذا لا يغنّون: "تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ! تُرارارا تاوبنشلاغ!؟"" ألا يرونني؟ أم أنني بتُّ غريباً عنهم، إلى درجة أنهم لم يعودوا يرونني؟". وتذكّرتُ فجأةً: "أجل لقد كنتُ غريباً عنهم منذ القديم. فأنا لم أكنْ طفلاً يوماً! ولا حتى في دار اللقطاء، عندما كنت لا أزالُ صغيراً تماماً. لم أعرفْ اللعب، مثلهم، يوماً. على الأقل باعتبار أن جسدي كان يمارسه بشكلٍ آليّ تماماً، من دون أن تشارك فيه رغبتي؛ ففي داخلي يسكنُ رجلٌ عجوز، وما يبدو فتياً هو جسدي وحده! ويُرجَّح أن معلّم الخراطة قد أحسّ بهذا، ولذلك تحدّث إليّ البارحة كما يتحدّثُ إلى راشد!".

تملّكني فجأةً ذعرٌ شديد: "كان الأمس مساءً شتوياً، فكيف يمكن أن يكون اليوم صباحاً صيفياً؟! صباحٌ صيفي؟! هل أنا نائم، هل أسيرُ في نومي؟". تطلّعتُ صوب الفوانيس: كانتْ مطفأة - مَن غيري يمكن أن يكون قد أطفأها؟! إذاً، فقد كنتُ حيّاً بشحمي ولحمي حينما أطفأتها! - ولكن ربما أنا ميتٌ الآن، وكنت قد رقدتُ في التابوت في الواقع، وليس في الحلم فقط؟!

أردتُ اختبار واقع الحال، فتقدّمتُ من تلميذ مدرسة وسألته: "هل تعرفني؟". لم يعطني أيّ جواب، بل عبَرَني راكضاً، كما يعبرُ الهواء الفارغ.

برباطة جأشٍ عرفت: "أنا ميت إذاً". ونبّهني شعوري بالواجب: "يجب عليّ بالتالي أن أسارع إلى إيداع عصا الفوانيس في المنزل، قبل أن أتفسّخ"، وصعدتُ إلى مربّيّ.

حينما دخلتُ غرفته، وقعت العصا من يدي مُحدثةً ضجةً شديدة.

سمع البارون ذلك - كان يجلس في كرسيه ذات المسند -، استدار وقال:

"ها أنت هنا أخيراً!".

سُرِرتُ لأنه لاحظني وأدرك وجودي، ما سمح لي بالاستنتاج أنني لا يمكن أن أكون قد متّ.

كعهده دائماً كان البارون يرتدي السترة نفسها مع القميص المكشكش قديم الطراز توتيّ اللون، الذي يروقُ له أن يلبسه في البيت في الأعياد، ولكن ثمة شيئاً ما فيه بدا لي غريباً على نحوٍ غير معقول. هل كان مردّ هذا إلى جدرته؟ كلا. فهي لم تكنْ أكبر ولا أصغر من المعتاد. تركتُ عينيّ تجوبان الغرفة - هنا أيضاً كان كلّ شيءٍ على حاله. ما من شيءٍ ناقص، وما من شيءٍ أُضيف إليها.

حتى "لوحة العشاء السرّي" ل- ليوناردو دا فنشي، وهي الشيء الوحيد الذي يزيّنُ الغرفة، كانتْ معلّقة على الحائط كعهدها دائماً. كلّ شيءٍ في مكانه بالضبط. لحظة! ألم يكنْ ينتصب البارحة على الرفّ إلى اليسار تمثال الجبس النصفي الأخضر لـ دانتي ذي الوجه البدري الصارم وحاد الملامح؟ هل غيّر أحدهم مكانه؟ فهو الآن على اليمين! لاحظ البارون نظرتي وابتسم.

"لقد كنتَ في الجبل؟"، بادرني بالكلام، وهو يشيرُ إلى الأزهار في جيبي، والتي كنت قد قطفتها في الطريق.

تلعثمتُ معتذراً، ولكنه أشار بلطفٍ بأن لا داعي لذلك:

"أعلمُ أن الجوّ جميلٌ هناك في الأعلى؛ أنا أيضاً كثيراً ما أذهبُ إلى هناك. لقد كنتَ هناك مراتٍ عديدة؛ إلاّ أنك تنسى ذلك في كلّ مرة؛

فالدماغ الفتيّ لا يستطيع أن يحتفظ بشيء، والدم لا يزال حاراً أكثر من اللازم. والذاكرة تواصلُ نموّها. - هل أتعبك التجوال؟".

"التجوال على الجبل لا، ولكن في - في الطريق الزراعية البيضاء"، قلتُ وأنا غير متأكّدٍ ما إذا كان على علمٍ بذلك أيضاً.

دمدم مفكّراً: "أجل، أجل، الطريق الزراعية البيضاء! نادراً ما يتحمّلها المرء. لا يتحمّلها إلاّ من خُلِقَ للتجوال. ولأنني لاحظتُ فيك ذلك - في دار اللقطاء آنذاك -، أحضرتك إلى بيتي. معظم الناس يخافون الطريق الزراعية أكثر من القبر. هم يفضّلون العودة إلى الرقاد في التابوت، إذ يرون أن هذا هو الموت، وأنهم سوف يتمتّعون هناك بالهدوء والسكينة؛ ذلك التابوت في الحقيقة هو اللحم، هو الحياة. فأن يولَد المرء في الدنيا، لهو أمر لا يختلف عن أن يُدفَن حياً! خيرٌ من هذا أن يتعلّم التجوال في الطريق الزراعية البيضاء. بيد أنه لا يجوز له أن يفكّر في نهاية الطريق الزراعية، وإلاّ لما احتمل التجوال فيها، إذ لا نهاية لها. هي لانهائية. الشمس على الجبل أبدية. والأبدية شيء، واللانهائية شيءٌ آخر. ليست الأبدية واللانهائية الشيء ذاته إلا بالنسبة إلى من يبحثُ في اللانهائية عن الأبدية وليس عن "النهاية". التجوال في الطريق الزراعية البيضاء يجب أن يتمّ من أجل التجوال، يجب أن يتمّ عن فرحٍ وسرور بالتجوال، وليس بغية استبدال راحةٍ زائلة بأخرى.

السكينة - وليس "الراحة" - تكون فقط تحت الشمس على الجبل. فهي ساكنةٌ وكلّ شيءٍ يدور حولها. حتى أن بشيرها، شفق الصباح، يشعّ أبديةً، لذلك تقدّسه الخنافس والذباب، وتبقى جامدةً في الهواء إلى أن تطلع الشمس. ولذلك لم تتعبْ أنت أيضاً، عندما صعدتَ إلى الجبل".

"هل رأيتَ الشمس؟"، سألني فجأةً، وهو يرمقني بنظرةٍ حادة.

"كلا، أبي، فقد رجعتُ قبل أن تشرق". أومأ برأسه راضياً.

"هذا جيد. وإلاّ لما أنجزنا معاً أيّ شيء"، أضاف بصوتٍ خافت.

"وكان ظلّك يسبقك صوب الوادي؟".

"نعم، بالطبع -".

تجاهل إجابتي المندهشة، وتابع:

"من يُبصر الشمس، لا يعود يريدُ سوى الأبدية. يخسرُه التجوال. وهؤلاء هم قدّيسو الكنيسة. عندما ينتقلُ قدّيس إلى الجانب الآخر، يكون قد خسر هذا العالم والعالم الآخر. ولكن ما هو أسوأ: يكون ***العالم قد خسره***؛ فقد تيتّم! - أنت تعلمُ ما معنى أن يكون المرء لقيطاً، - لا تهيّئْ لآخرين أيضاً قدَراً يفتقدون معه الأب والأمّ! - تجوّلْ! أشعلْ فوانيس، إلى أن تطلع الشمس من تلقاء نفسها".

قلت متلعثماً: "نعم!"، وفكّرتُ في الطريق الزراعية البيضاء المخيفة، وأنا مفعمٌ بالذعر والرهبة.

"هل تعرف ما معنى رقادك في التابوت ثانيةً؟".

"كلا، أبي".

"إنه يعني أنه لا يزال عليك أن تشاطر أولئك المدفونين أحياءً قدرَهم لبرهةٍ من الزمن".

سألتُه مستفسراً كالأطفال: "هل تقصدُ معلّم الخراطة موتشلكناوس؟".

"لا أعرف معلّم خراطة بهذا الاسم؛ فهو لم يصبحْ مرئياً بعد".

"ولا زوجته و - أوفيليا؟"، سألتُه وأنا أشعرُ أن الحمرة علتْ وجهي.

"كلا، ولا أوفيليا أيضاً" .

فكّرتُ في نفسي: "عجيب! فهم يسكنون في الجانب الآخر، ولا بد أنه يقابلهم يومياً" . صمتنا كلانا لبرهة، ثم صحتُ فجأةً بصوتٍ شاكٍ:

"ولكن هذا أمر مريع! الدفن حيّاً!" .

"لا شيء يفعله المرء من أجل روحه ويكون أمراً مريعاً . أنا أيضاً دُفنتُ حيّاً في بعض الأحيان. كثيراً ما التقيتُ في هذه الدنيا بأناسٍ كانوا يشتكون بمرارةٍ من ظلم القدَر، وهم في حالةٍ من البؤس والشقاء والضائقة. والكثيرون منهم كانوا يلتمسون العزاء في ذلك المذهب القادم من آسيا - مذهب الكارما أو القصاص -، والذي يدّعي أنه لا يمكن أن يلمّ بأيّ كائنٍ ألمٌ أو شقاء أو سوء، لم يكن قد زرع بذرته في وجودٍ سابق؛ - بينما يلتمسُ آخرون العزاء في قضاء الله وحكمته الخفية؛ - ولم **يجد** العزاء لا هؤلاء ولا أولئك.

وقد أشعلتُ فانوساً لمثل هؤلاء الناس، وذلك بأن ألهمتُهُم فكرة" - ابتسم ابتسامةً عريضة، إنما بلطف، كعهده - "- ألهمتُهم إياها بنعومةٍ وشفافية فائقتين، بحيث اعتقدوا أنها خطرتْ لهم من تلقاء نفسها! لقد طرحتُ عليهم في الحقيقة السؤال التالي: "هل تستسلمُ للقضاء والقدر وتتحمّلُ أن تحلم الليلة، بوضوحٍ شديد وكأنه أمر واقع، بأنك تعيشُ وجوداً فقيراً فقراً مدقعاً لا نظير له وعمره ألف سنة، إذا ما أكّدتُ لك أنك سوف تجدُ عند استيقاظك في الصباح التالي كيساً مليئاً بالذهب أمام بابك، كثوابٍ لك على ذلك!" .

وكان الجواب في كلّ مرة: "نعم! بالطبع!" . في هذه الحالة لا تشتكِ من قدَرك! - هل تعلم إذاً ما إذا لم تكنْ قد اخترتَ بنفسك هذا الحلم

الموجِع - الذي يدومُ سبعين سنة على أبعد تقدير -، والذي يُسمّى حياةً أرضية، على أمل أن تجد عند استيقاظك ما هو أعظم وأروع من كيسٍ وضيع من النقود؟

لا ريب في أن من يزرع "إلهاً ذا مشيئةٍ حكيمة خفية" على أنه سبب، سوف يحصده ذات يوم بوصفه شيطاناً شامتاً.

خذِ الحياة على محملٍ أقلّ أهمية، والأحلام على محملٍ أكثر جدّية، وسرعان ما تتحسّنُ أمورك، - عندها يمكن أن يتحوّل الحلم إلى مرشِد، بدلاً من أن يظلّ مهرّجاً مضحكاً ملفوفاً بخرق الذكريات اليومية.

اسمعْ، بنيّ! لا وجود للفراغ. - في هذه الجملة يكمنُ السرّ الذي يجب أن يكشفه كلّ من يريد التحوّل من حيوانٍ فانٍ قابل للتفسّخ إلى وعيٍ خالد. غير أنه لا يجوز للمرء تطبيق معنى الكلمات على الطبيعة الظاهرية وحسب، وإلاّ بقي ملازماً للأرض الفظّة؛ يجب على المرء أن يستعمله كمفتاحٍ يفتح له الروحيّ؛ يجب على المرء أن يقرأ بين السطور ويعيد تفسيره! - انظرْ مثلاً: أحدهم يريدُ أن يتجوّل، ولكن الأرض تقيّد قدميه؛ ماذا سيحدثُ إذا لم تفترْ إرادته في التجوال؟ سوف تجدُ روحُه الخلاّقة - القوة الأولى المزروعة فيه منذ البدء - طرقاً أخرى يمكنه التجوال فيها، وما في داخله، وهو لا يحتاج إلى قدمين للتجوال، سوف يتجوّلُ على الرغم من الأرض، على الرغم من العوائق. - إن الإرادة الخلاّقة، أي الإرث الإلهي في الإنسان، هي قوةٌ ماصّة؛ ولابد لهذا الامتصاص - أرجو أن تفهم هذا بالمعنى المجازي! - أن يولّد فراغاً في فضاء الأسباب، في حال لم يعقبْ إظهارَ الإرادة تحقيقُها في النهاية. انظرْ مثلاً: إنسانٌ مريض ويريدُ أن يشفى ويستردّ صحته؛ ما دام يلجأ

إلى الأدوية، فهو يعطّلُ قوة الروح تلك، التي تُشفي على نحوٍ أسرع وأفضل من الأدوية كافة. والحق أن واقع الحال أشبه بمن يريدُ تعلّم الكتابة باليد اليسرى: فإذا لم يستخدمْ سوى يده اليمنى على الدوام، لن يتعلّم الكتابة باليسرى أبداً. كلّ حدثٍ يدخلُ حياتنا له غايته؛ ما من شيءٍ لا معنى له؛ فالمرض الذي يصيبُ الإنسان، يكلّفه بمهمّةٍ مفادها: اطردْني بقوة الروح، كي تشتدّ قوة الروح وتتعزّز وتسيطر على المادة، كما كانتْ في غابر الأزمان قبل "الخطيئة الأولى". من يأبى ذلك ويكتفي بـ- "الأدوية"، هو إنسانٌ لم يفهمْ معنى الحياة؛ فهو يبقى فتىً صغيراً يتغيّبُ عن المدرسة. - ولكن من لا يفتُرُ أو يتراخى في إعطاء الأوامر بعصا مارشال الروح، مزدرياً السلاح الفظّ الذي لا يديرُه سوى الجندي المرتزق، سوف يُبعَثُ المرة تلو الأخرى؛ ومهما أرداه الموت قتيلاً، سوف يكون ملكاً في النهاية!

- لذلك ينبغي ألاّ تفتر عزيمة الإنسان أبداً في الطريق إلى الهدف الذي وضعه لنفسه؛ فالموت كالنوم، لا يعني سوى استراحةٍ قصيرة. - والمرء لا يباشرُ عملاً ما كي يتخلّى عنه ويتركه منقوصاً، بل لإتمامه؛ - فالعمل الذي يُبدأ به، ولا يتمّ إنجازه، مهما كان تافهاً وعديم الأهمية ظاهرياً، يتفسّخُ ويسمِّمُ الإرادة، مثلما تلوّثُ جثّةٌ غير مدفونة جوّ منزلٍ بكامله.

نحن لا نعيش إلاّ من أجل إكمال أنفسنا؛ من يضع هذا الهدف نصب عينيه بشكلٍ ثابت ويفكّر فيه ويشعر به باستمرار، في كلّ مرةٍ يشرعُ فيها بعملٍ ما ويُنهيه، سرعان ما تُكتَب له طمأنينةٌ وراحة بالٍ عجيبة لا عهد له بها حتى الآن، وسوف يتغيّرُ قدَره بطريقة لا تُصدَّق. - من يعمل

وينجز كما لو أنه خالد - لا بغية الحصول على ما تصبو إليه رغبته (وهذا الأخير هدف العميان روحياً فقط)، بل في سبيل تشييد معبد روحه، سوف يأتي يوم، ولو بعد آلاف السنين، - يستطيعُ أن يقول فيه: أنا أريد، ويكون ما آمرُ به حاضراً في الحال؛ كنْ فيكون، ولا حاجة به إلى الزمن كي ينضج ببطء.

عندذاك يتمّ بلوغ النقطة، التي تنتهي عندها الطريق الطويلة لكلّ تجوال.

عندذاك يمكنك النظر في وجه الشمس، من دون أن تحترق عيناك.

عندذاك يمكنك القول: لقد وجدتُ هدفاً، لأنني لم أبحثْ عن أيّ هدف. عندذاك يكون القدّيسون قليلي المعرفة مقارنةً بك، إذ إنهم لن يكونوا على معرفةٍ بما تعرفه أنت: أن الأبدية والسكينة، يمكن أن تكونا الشيء نفسه، مثل التجوال واللانهائية!".

❖❖❖

كانت الكلمات الأخيرة تفوقُ قدرتي على الاستيعاب بمراحل، ولم تتّضح لي وتغدو نابضةً بالحياة، إلاّ بعد ذلك بزمن طويل، حينما أصبح دمي بارداً وجسدي رجولياً.

لقد سمعتها آنذاك بأذنٍ صمّاء؛ لم أكنْ أرى سوى البارون يوخَر، وتبيّنتُ فجأةً، وكأنما انكشف الأمر لي على ضوء برق، ما كان قد بدا لي فيه بتلك الغرابة، شيءٌ ما عجيب: كانتْ جدرته تقبع في الجهة اليمنى، بدلاً من اليسرى، كما كانت دوماً.

واليوم يكاد يبدو لي هذا مضحكاً، - أما وقتذاك فقد أسرني كذعرٍ لا يوصف. - الغرفة، البارون، التمثال النصفي ل- دانتي على الرفّ، أنا نفسي، - كلّ شيءٍ كان قد تحوّل بالنسبة إلي إلى شبحٍ في لحظةٍ قصيرة

واحدة، وذلك بطريقةٍ طيفية وغير واقعية، إلى حدٍ جعل قلبي يتجمّدُ خوفاً من الموت.

بهذا انتهتْ معايشتي في تلك الليلة.

بعد ذلك مباشرةً، استيقظتُ في سريري وأنا أرتجفُ ذعراً. ولاح لي من خلال الستائر يومٌ صاف. هرعتُ إلى النافذة، وفي الخارج: صباحٌ شتوي صاحٍ! دخلتُ الغرفة المجاورة: كان البارون يجلسُ إلى مكتبه بسترة عمله المعتادة، وهو يقرأ.

"لقد نمتَ طويلاً اليوم، بني العزيز"، هتف بي ضاحكاً، عندما رآني واقفاً على العتبة، وأنا لا أزال في قميص النوم، وأسناني تصطكّ من البرودة الداخلية. "ما اضطرّني إلى الذهاب لإطفاء الفوانيس في المدينة بدلاً منك.- مجدداً بعد سنواتٍ كثيرة وكثيرة. - ولكن ما بالك؟".

نظرةٌ واحد إلى عنقه، أزالتْ من دمي البقية الباقية من الخوف: كانت الجدرة في الجهة اليسرى ثانيةً، كما هي على الدوام، والتمثال النصفي ل- دانتي في المكان نفسه كالعادة. في غضون ثانيةٍ واحدة، كانت الحياة الأرضية الواقعية قد ابتلعتْ عالم الأحلام؛ ثمة دويٌ في أذني، كما لو أن غطاء التابوت قد انطبق، - ثم انطوى هذا أيضاً في عالم النسيان.

حكيتُ لمربّيّ على جناح السرعة ما حدث معي. - ولم أتكتّمْ سوى على لقائي بمعلّم الخراطة. ولم أسألْه خلال الحديث سوى مرةٍ واحدة: "هل تعرف السيد موتشلكناوس؟". وكان جوابه الطروب: "طبعاً. إنه يسكنُ في الأسفل. - بالمناسبة هو إنسانٌ تعيس جداً!".

"وابنته، الـ - الآنسة أوفيليا؟".

"هي أيضاً – أعرفُ أوفيليا كذلك"، قال البارون، وقد أصبح جاداً فجأةً، وأطال النظر إليّ بشيءٍ من الحزن، "أوفيليا كذلك".

عدتُ بسرعة إلى الموضوع الآخر، إذ شعرتُ كيف تورّد خدّاي: "لماذا كان عنقك – عنقك الأيسر في حلمي في الجهة الأخرى إذاً، أبتي؟".

أعملَ البارون ذهنه طويلاً، ثم قال، وهو يبحثُ عن الكلمات، كما لو أنه يصعبُ عليه التكيّف مع قدرتي على الفهم والإدراك غير المتطوّرة بعد: "هل تعلم، بنيّ، لتوضيح هذا الأمر لا بد لي أن أعطيك محاضرة معقّدة للغاية طوال أسبوع، ومع ذلك لن تفهمها. يكفيك إذاً أن أقذف عقلك ببضع جملٍ وعناوين عريضة. – مع عدم يقيني من أنها ستدخل دماغك! – إن الدرس الحقيقي لا تعطيه سوى الحياة، وخيرٌ منها: الحلم.

من هنا فإن تعلُّم الحلم أولى درجات الحكمة. الحياة الظاهرية تمنحُ الذكاء؛ أما الحكمة فتنسابُ من الحلم. فإذا كان "حلم" يقظة، قلنا: "هه، لقد خطر لي شيءٌ ما" – أو: "لقد ومضتْ فكرةٌ في ذهني" – وإذا كان حلماً أثناء النوم: في هذه الحالة يتمّ تعليمنا عن طريق صورٍ رمزية. – وكلّ فنٍّ حقيقي ينبثقُ من عالم الأحلام. وموهبة الاختراع أيضاً. يتحدثُ البشر بالكلمات، والحلم يتحدّث بالصور الحيّة. أما وأنه يستمدّها من أحداث النهار، فهو ما يُغري البعض بالاعتقاد أن الأحلام هراءٌ لا نفع فيه. وهي ستكون كذلك بالطبع، في حال أهملها المرء، ولم يلقِ عليها بالاً! وفي هذه الحالة ينكمشُ عضو الأحلام ويضمر، كما يضمرُ العضو الذي نهمله، ويصمتُ مرشدٌ قيّم ونفيس، – يتهدّمُ الجسر المُفضي إلى حياةٍ أخرى، هي أشدّ قيمةً بمراحل من الحياة الأرضية. الحلم هو المعبَر بين اليقظة والنوم؛ – وهو أيضاً المعبَر بين الحياة والموت.

لا يجوز لك أن تعدّني حكيماً عظيماً أو ما شابه، بنيّ، لمجرد أن قريني أخبرك الليلة بكثيرٍ من الأمور، التي قد تبدو لك رائعة. - فأنا كذلك لم أصلْ بعد إلى حدٍ يسمحُ لي بالادّعاء بأننا، هو وأنا، الشخص نفسه.

لا ريب في أنني أشدّ رسوخاً في أرض الأحلام من بعض الآخرين، - لقد صرتُ مرئياً في الجانب الآخر، إن صحّ التعبير، وبشكلٍ ثابت، إنما لا أزال مضطرّاً إلى إغماض عينيّ هنا، إذا ما أردتُ أن أفتحهما في الجانب الآخر، والعكس بالعكس. - هناك أناس لم يعودوا بحاجة إلى ذلك، وإنْ كانوا قلّة قليلة.

ألا تذكر: حينما رقدتَ في التابوت ثانيةً على الطريق الزراعية البيضاء، لم تكنْ قادراً على رؤية نفسك، ولم يكنْ لديك جسدٌ ولا يدان ولا عينان؟ - حتى تلميذ المدرسة لم يرَك! بل اخترقك كما يخترقُ الهواء الفارغ!

هل تعلم إلامَ مردّ ذلك؟ - أنت لم تصطحبْ إلى الجانب الآخر ذكرى أشكال جسدك الأرضي! من يستطعْ ذلك - كما تعلّمتُ أنا -، يغدُ مرئياً في الجانب الآخر، بالنسبة إلى نفسه بدايةً، - يشيّد لنفسه في أرض الأحلام جسداً ثانياً، يمكن حتى للآخرين أن يدركوه فيما بعد، مهما كان وقع هذا غريباً على مسامعك الآن! هذا ما يحقّقه المرء بطرائق" - وأشار إلى لوحة "العشاء السرّي" لـ ليوناردو دا فنشي وابتسم ابتسامة رضا -، "سوف أعلّمك إياها حينما ينضجُ جسدك ولا يعودُ من الضروري بقاؤه مقيّداً. من يعرفها يكون قادراً على توليد شبح. - إن "صيرورة المرء مرئياً في العالم الآخر" تحدثُ عند بعض الناس تلقائياً

ومن دون ترتيبٍ مسبق، ولكن لا يغدو حيّاً في الجانب الآخر سوى جزءٍ منهم عادةً، وهو اليد غالباً. وفي هذه الحالة غالباً ما تنفّذُ أشدّ الأعمال عبثاً - إذ إن الرأس ليس معها -، وكلّ من يرى أفعالها يرسمُ إشارة الصليب ويثرثرُ عن شبحٍ شيطاني. - لا شك في أنك تريدُ القول: كيف يمكن ليدٍ أن تفعل شيئاً من دون أن يكون صاحبها على علمٍ بذلك؟ - - ألم يسبقْ لك أن رأيتَ كيف يتلوّى ذيل سحليةٍ مقطوعٌ عن جسدها في ألمٍ حانق، بينما تقفُ السحلية نفسها بجانبه بلا اكتراث؟ - وحال اليد شبيهة بذلك!

لا يقلّ العالم في الجانب الآخر أهميةً (أو "لا أهميةً"، أضاف كمن يحدّثُ نفسه) عن العالم الأرضي. كلٌ بمفرده مجرد نصف، ولا يشكّلان كلاً واحداً إلاّ معاً. - لا بد أنك تعرفُ أسطورة زيغفريد، - فقد كان سيفه قد انكسر إلى نصفين؛ ولم يستطعْ القزم الداهية ألبريش أن يلحمهما، لأنه كان مجرد إنسانٍ أرضي، ولكن زيغفريد استطاع ذلك.

سيف زيغفريد عبارة عن رمزٍ لتلك الحياة المزدوجة. أما كيفية لحْمه ليصبح قطعةً واحدة، فهو السرّ الذي يجب على المرء أن يعرفه، إذا ما أراد أن يصبح فارساً. -

لا بل إن عالم الجانب الآخر هو أشدّ واقعيةً من هذا العالم هنا على الأرض. كلٌ منهما انعكاسٌ للآخر، - أو بالأحرى: العالم الأرضي هو انعكاسٌ لـ "الجانب الآخر"، - وليس العكس؛ ما هو في الجانب الآخر في الأيمن، هو هنا في الأيسر. أتفهم الآن؟"، قال ذلك وهو يشيرُ إلى جدرته.

"إذاً فقد كان ذلك الآخر قريني. وما قاله لك، لم أعلمْ به إلاّ من لسانك للتو؛ وهو لم ينبثقْ من معرفته هو، فما بالك من معرفتي أنا: - لقد انبثق من معرفتك أنت!

أجل، أجل، بنيّ، لا تنظرْ إليّ بهذه الدهشة، - لقد صدرَ عن معرفتك أنت! أو قلْ" - ومسحَ شعري بيده ملاطفاً - "عن معرفة كريستوفر في داخلك! إن ما في مقدوري أن أقوله لك - حيوانٌ بشري يقولُ لآخر - يخرجُ من فم إنسانٍ ويدخل أذن إنسان، ثم يتمّ نسيانه حينما يتفسّخُ الدماغ؛ والحديث الوحيد، الذي يمكنك أن تتعلّم منه، هو - الحديث مع النفس. - وما دار بينك وبين قريني كان - حديثاً مع النفس. - - ما يستطيعُ إنسان أن يقوله لك، يكون تارةً أقل مما ينبغي، وتارةً أكثر مما ينبغي. يجيءُ قبل الأوان تارةً، وبعد فوات الأوان تارةً أخرى، يجيءُ دائماً في وقتٍ تكون فيه روحك نائمة. - إذاً، بنيّ"، - اتّجه صوب المكتب مجدداً - "ارتدِ ثيابك الآن، فأنت لا تريدُ أن تتجوّل طوال اليوم بقميص النوم".

4

أوفيليا

لقد تحوّلتْ ذكريات حياتي إلى جواهر ودرر؛ وأنا أقومُ باستخراجها من قيعان الماضي حينما تدقّ ساعة النظر إليها وتأمّلها، وقد وجدتُ يدَ إنسانٍ، تبدو لي مطيعة، لتسطيرها على الورق.

وعندما تصطفُ كلمةٌ بجانب كلمة، وأنصتُ إليها كما أنصتُ إلى حديث راوٍ، يُخيَّل إليّ وكأنها تنزلقُ من بين أصابعي المداعبة، وقد تحوّلتْ في الوقت نفسه إلى لَعبٍ باللآلئ والأحجار الكريمة البرّاقة، ويغدو الماضي حاضراً بالنسبة إلي من جديد.

كلها متلألئةٌ بالنسبة إلي، المعكّرة الباهتة منها كما الساطعة المنيرة، القاتمة كما الفاقعة؛ يمكنني أن أتأمّلها بذهنٍ مبتسم؛ - فأنا "متحرّرٌ مع الجثّة والسيف" إلى الأبد.

ولكن ثمة حجراً كريماً بينها، ليس لي عليه سوى سلطةٍ خائفة ومرتجفة. ليس باستطاعتي أن أعبث به كما أعبثُ بغيره. فالقدرة الآسرة لأمّنا الأرض تنبعثُ منه وتستهدفُ قلبي.

إنه الحجر الكريم ألكسندريت، الذي يكون أخضر قاتماً في النهار، بينما يتضرّج بالحمرة فجأةً، إذا حدّقتَ في عمقه في سكون الليل.

أحملُه معي كقطرةٍ من دم القلب تخثّرتْ متحوّلةً إلى كريستال، وأنا مفعمٌ بالخوف الدائم من أنه يودُّ العودة إلى حالته السائلة، ليلفحني، وقد دفّأتُه طويلاً في صدري.

لذلك أسرتْ ذكرى تلك الفترة الزمنية، التي تُسمّى بالنسبة إلي أوفيليا وتعني ربيعاً قصيراً وخريفاً طويلاً، في ما يشبه كرةً زجاجية، وفي داخلها يعيشُ محبوساً ذلك الصبيّ الذي كنتُه فيما مضى، وهو نصف طفلٍ ونصف يافع. صحيح أنني أرى نفسي من خلال الجدار الزجاجي، بيد أنها أشبه بصورةٍ في صندوق فرجة - لم يعدْ في مقدورها أن تورّطني بسحرها.

أريد أن أصف هذه الصورة - كما يفعل مراسلٌ معتكف -، أريد أن أصفها كيف تمثلُ أمامي، كيف تستفيق في الزجاج وتتغيّر وتنطفئ.

جميع النوافذ في البلدة مشرَّعة، حوافها حمراء لوجود نبتة إبرة الراعي المزهرة عليها؛ وأزهار الكستناء الربيعية البيضاء الفوّاحة النابضة بالحياة تزهرُ على الأشجار المحاذية لضفّة النهر. الهواء العليل الساكن تحت السماء الزرقاء الصاحية. الفراشات الصفراء والملوّنة ترفرفُ فوق المروج، كما لو أن ريحاً خفيفة تداعبُ ألوفاً من قصاصاتٍ ملوّنة من الورق الرقيق الناعم.

في الليالي المقمرة النيّرة تتوهّجُ عيون القطط، وهي تنفخ وتصرخ وتموء في لوعة الحبّ على الأسطح المتلألئة باللون الفضّي.

أجلسُ على الدرابزين في بيت الدرج، وأسترقُ السمع إلى النافذة المفتوحة في الطابق الثالث، حيث يُديرُ صوتان خلف الستائر، التي تحجبُ عني رؤية الغرفة، حديثاً عجيباً غير مفهومٍ بالنسبة إلي، أحد

الصوتين ذكوري خفيض ومنبري، أمقته، والآخر صوتٌ خافت خجول لفتاة:

"نكون أو لا نكون، تلك هي المسألة. آه يا حوريتي، ضَمِّني صلاتك كلّ ذنوبي وآثامي".

"يا أميري، كيف حالك بعد هذه الأيام العديدة؟"، همسَ الصوت الخجول.

"أدخلي أحد الأديرة، أوفيليا!".

يتملّكني توتّرٌ وتشوّق شديدان لسماع ما سيأتي فيما بعد، ولكن الصوت الذكوري يتداعى فجأةً من دون سببٍ ظاهر بالنسبة إلي، كما لو أن المتحدِّث استحال إلى ماكينة ساعةٍ يطنُّ نابضها في ثرثرةٍ متعجّلة بصوتٍ منخفض، لم أستطعْ أن ألتقط منها سوى بضع جملٍ لا معنى لها:

"لماذا رغبتِ في أن تنجبي أطفالاً، أنا شخصياً حميد الأخلاق وعفيف إلى درجةٍ لا بأس بها؛ وعندما تتزوّجين، سأعطيك هذه اللعنة مع جهاز العروس؛ كوني طاهرةً كالجليد، ونقية كالثلج، أو اتّخذي من مغفّلٍ زوجاً لك، وبسرعة، وداعاً!".

ردّ صوت الفتاة بحياء: "آه، أيّ روحٍ نبيلة تتحطّم هنا! أعيدي إصلاحها أيتها القوى السماوية".

ثم صمت الاثنان، ورحتُ أسمع تصفيقاً خفيفاً. وبعد نصف ساعةٍ من الصمت المطبق، وبينما تتسرّب من النافذة رائحة لحمٍ دسمٍ مقلي، يطيرُ من بين الستائر عقب سيجارٍ ممضوغ، وهو لا يزال يتوهّج، ثم يرتدّ من على جدار منزلنا، والشرر يتطايرُ منه، ليسقط أخيراً على بلاط الممرّ.

أجلسُ حتى العصر، وأنا أحدّقُ إلى الجانب الآخر. كلما تحرّكتِ الستائر، يدقّ قلبي من الخوف السارّ: هل ستدنو أوفيليا من النافذة؟ ماذا لو كانتْ هيَ بالفعل، هل عليّ عندذاك أن أخرج من مخبئي؟.

لقد قطفتُ وردةً حمراء؛ هل سأجرؤ على أن أرميها لها؟ ولكن في هذه الحالة لا بد أن أقول لها شيئاً؟ ولكن ماذا؟

بيد أن هذا لا يحدث.

بدأت الوردة بالذبول في يدي الساخنة، ولا يزالُ كلّ شيءٍ في الجهة الأخرى ساكناً. باستثناء رائحة القهوة الساخنة، التي حلّتْ محلّ رائحة اللحم المقلي...

أخيراً: ها هما يدان أنثويتان تزيحان الستائر. للحظة يدورُ كلّ شيءٍ أمامي، ثم أعضُ على أسناني وأرمي الوردة بتصميمٍ عبر النافذة المفتوحة. أسمعُ صيحة مفاجأةٍ خافتة، و - تقفُ السيدة أغلايا عند النافذة.

لا أستطيع أن أتوارى عن الأنظار بسرعة؛ فقد اكتشفتْني فوراً.

يمتقعُ لوني، إذ إن كلّ شيءٍ قد انفضح الآن!

مع ذلك، فقد شاء القدَر أن تسير الأمور بشكلٍ مختلف. تشدُّ السيدة موتشلكناوس زاويتي فمها إلى الأعلى بصورةٍ لذيذة، وتضعُ الوردة على صدرها، وكأنها تضعها على قاعدة، وتذبّلُ عينيها مرتبكةً؛ وعندما تفتحُهما ثانيةً، وهي مفعمةٌ بالعاطفة، وتتبيّنُ أنني أنا الذي رمى بالوردة، يتقلّصُ وجهها قليلاً. ولكنها تشكرني بانحناءةٍ من رأسها كاشفةً بلطف عن نابها.

يُخيَّل إليَّ وكأن جمجمة ميتٍ تبتسمُ لي، غير أنني أشعرُ بالسرور! فلو خمّنتْ من المقصود بالوردة، لانتهى كلّ شيء! لا بل أشعرُ بعد ساعةٍ

بسرورٍ شديد لأن كلّ شيءٍ حصل على هذا النحو. إذ باستطاعتي من الآن فصاعداً أن أجرؤ على وضع باقةٍ كاملة على النافذة لأوفيليا كلّ صباح؛ فوالدتها ستفهمُ بالطبع أنها هي المقصودة.

ربما تعتقدُ أن الأزهار من مربّيّ، البارون يوخَر!

نعم، نعم، الحياة تُعلِّم.

أشعرُ للحظة بطعمٍ كريه في فمي، كما لو أن الفكرة الخبيثة قد سمّمتْني، ولكن هذا الطعم لا يلبث أن يختفي بعد ذلك مباشرةً، وأفكّرُ فيما إذا لم يكنْ من الحكمة أن أقصد المقبرة في الحال.وأسرق وروداً جديدة. ففيما بعد سوف يصلُ إلى هناك أناسٌ ليصلّوا على القبور، وفي المساء يُقفَل الشبك الحديدي.

أصادفُ في الأسفل، في صفّ الخبّازين، الممثّل باريس خارجاً من الممرّ بحذائه الطويل المصرصر.

أقرأ في وجهه أنه يعرفُ من أنا .

إنه سيدٌ سمين مسنّ حليق الذقن ذو وجنتين مترهّلتين وأنف سكّيرٍ يرتعشُ مع كلّ خطوة. يضعُ قلنسوةً على رأسه، وفي ربطة العنق دبّوسٌ ذو إكليل غارٍ فضّي، وعلى كرشه سلسلة ساعةٍ مجدولة من شعرٍ نسائي أشقر. سترته وصديريته من المخمل البنّي، وبنطاله الأخضر يلفُ الساقين الرفيعتين بشكلٍ شديد الضيق، وهو من الطول بحيث ينثني في الأسفل كالأكورديون.

تُرى هل خمّن أنني ذاهبٌ إلى المقبرة؟ ولماذا أريدُ سرقة ورودٍ من هناك؟ ولِمَن؟ كلا، فلا أحد غيري يعرفُ هذا! أنظرُ في وجهه بتحدٍّ، وأتعمّدُ عدم إلقاء التحية عليه، بيد أن قلبي يتوقّفُ عن الخفقان، عندما

ألاحظُ أنه ينظرُ إليّ بثبات، من تحت جفونٍ نصف مطبَقة، نظرةً شبه متحفّزة، يتوقّفُ ويسحبُ نفَساً من سيجاره مفكّراً، ثم يغمضُ عينيه كمن وردتْ في باله خاطرة غريبة.

أمرُ به بما أمكن من السرعة، فأسمعُه يتنحنح خلفي بصوتٍ عالٍ وبصورةٍ متكلّفة، كما لو أنه يريد أن يشرع بإنشاد دورٍ ما: "إحم - إحم - ، إحم".

يتملّكني خوفٌ بارد كالثلج، وأبدأ بالجري - ليس أمامي سوى ذلك، لا بد من ذلك! إلاّ أن إحساساً داخلياً يقولُ لي: لا تفعلْ ذلك! أنت تفضحُ نفسك بنفسك!

❖❖❖

أطفأتُ الفوانيس مع الفجر، وجلستُ على الدرابزين مجدداً، رغم علمي بأنه سوف تمضي ساعاتٌ قبل أن تأتي أوفيليا وتفتح النافذة في الجهة الأخرى. بيد أنني أخشى الاستغراق في النوم، إذا استلقيتُ في السرير بدلاً من الانتظار هنا.

وضعتُ ثلاث وردات بيضاء عل حافة النافذة، وكنتُ من الانفعال إلى حد كدتُ معه أسقطُ في الممرّ وأنا أفعل ذلك.

والآن تداعبنُي فكرةٌ مفادها أنني أرقدُ في الأسفل وأطرافي مهشّمة، ثم أُحملُ إلى الغرفة، ويصلُ الخبر إلى أوفيليا وتخمّنُ ما جرى، فتأتي إليّ في سريري وتقبّلني مفعمةً بالتأثّر والحنان والحبّ.

على هذا النحو أقنعُ نفسي في حلمٍ عاطفي صبياني؛ ثم لا ألبثُ أن أشعر بالخجل وأحمرّ داخلياً من كوني بهذه الحماقة؛ بيد أن تصوّري أنني أعاني الآلام في سبيل أوفيليا هو تصوّرٌ حلو ولذيذ جداً بالنسبة إلي.

أنتزعُ نفسي عنوةً من الصورة: أوفيليا في سنّ التاسعة عشرة، وهي سيدة شابة، أما أنا فلم أتجاوز السابعة عشرة من عمري؛ رغم أنني أطول منها قليلاً. لا شك في أنها سوف تقبّلني كما يقبّلُ المرء ولداً آذى نفسه ليس إلاّ. ولكنني أريد أن أكون رجلاً راشداً، ولا يليقُ بهذا الأخير أن يرقد في السرير عاجزاً لا حيلة له، ويدعُها تعتني به. فهذا أمر خليقٌ بالصبيان والبنات.

هكذا رحتُ أحلمُ بصورةٍ خيالية أخرى: الوقتُ ليلاً، والبلدة نائمة، فإذا بضوءٍ ناري يسقط في نافذتي، وتسري عبر الشوارع فجأةً صرخة: البيتُ المجاور يحترق! لم يعدْ بالإمكان إنقاذه، إذ إن الدعائم الخشبية المتوهّجة المتهاوية تغلقُ صفّ الخبّازين.

تتحوّلُ الستائر الواقعة في الجهة الأخرى إلى شعلة من نار؛ ولكنني أقفزُ من نافذة بيت الدرج إلى الطرف الآخر وأنقذُ عشيقتي المغشي عليها، التي ترقدُ على الأرض في ثياب النوم، نصف مختنقة، شبه ميتةٍ من الوهج والدخان.

يدقُ قلبي حتى يكاد يتصدّع من الفرح والحماس؛ أشعرُ بذراعيها العاريتين تطوّقان عنقي، فيما أنا أحملُ المغشي عليها بين ذراعي، وأحسُ ببرودة شفتيها الجامدتين، فيما أنا أغمرُها بالقبلات. أتخيّلُ كلّ شيءٍ بهذه الحيوية.

تطوفُ الصورة عبر دمي مراراً وتكراراً، كما لو أنها تكتسحُ دورته بكلّ تفاصيلها العذبة الساحرة، بحيث لم يعدْ باستطاعتي التخلّص من ذلك أبداً. وأنا مسرور، إذ إنني أعرفُ أن الانطباع هو من العمق إلى حد أنني سوف أحلمُ بذلك الليلة بشكلٍ واقعي ونابض بالحياة. ولكن ما أطول الوقت حتى ذلك الحين!

أنحني إلى خارج النافذة وأتطلّعُ إلى السماء: لا يريد الصباح أن يأتي. لا يزال نهار كامل طويل يفصلني عن الليل. أكادُ أخشى أن الصباح يجب أن يسبق الليل، إذ إن بإمكانه أن يقوّض كلّ آمالي! فالورود قد تسقط، إذا ما فتحت أوفيليا النافذة، وحينذاك لن تراها إطلاقاً. أو تراها و - تأخذُها، وماذا بعد؟ هل سأتحلّى بالشجاعة على عدم الاختباء على الفور؟ أشعرُ ببرودة كالثلج، إذ إنني أعرفُ حق المعرفة أنني لن أمتلك الشجاعة. ولكنني أعزّي نفسي بأنها قد تخمّنُ مَن وضع الورود. لا بد أن تخمّن مَن وضعَها! من غير الممكن ألاّ تنعكس أفكار الحبّ المتأجّجة والمتلهّفة الصادرة عن قلبي على أفكارها، وإنْ كانتْ صامتة وخجولة!

أغمضُ عينيّ وأتخيّلُ بما أمكنني من الحيوية أنني أقفُ عند سريرها في الجهة الأخرى، أنحني فوق الغافية وأقبّلها وكلّي أمل بأنها تحلمُ بي. لقد تخيّلتُ كلّ شيءٍ بوضوحٍ شديد إلى حد أنني لم أعدْ أعرف لبرهة: هل كنتُ قد غطّيتُ في النوم، أم ماذا حلّ بي؟ كنتُ قد حدّقتُ شاردَ الذهن بالورود البيضاء الثلاث على حافة النافذة، إلى أن ذابتْ في ضياء الفجر. وها هي هنا الآن من جديد، إنما تعذّبني فكرة أنني سرقتها من المقبرة.

لماذا لم أسرقْ وروداً حمراء إذاً؟ فهي مخصّصة للحياة! لا أستطيع أن أتصوّر أنه إذا ما استفاق ميت، وكانت الورود الحمراء مفقودة على قبره، سوف يطلب استردادها.



أخيراً أشرقت الشمس، وملأتْ بضيائها الفسحة بين المنزلين؛ يُخيَّل إليّ وكأننا نحلّقُ عالياً فوق غيوم الأرض، إذ إن الممرّ في الأسفل أصبح

غير منظور؛ فقد ابتلعته غلالات الضباب، التي تدفعها ريحُ الصباح من ناحية النهر عبر الأزقّة.

ثمة هيئةٌ واضحة تتحرّكُ في الغرفة الواقعة في الجهة الأخرى - أحبسُ أنفاسي من الخوف - أتمسّكُ بيديّ الاثنتين بدرابزين الدرج بقوة، كي ألزم مكاني ولا أندفع راكضاً.

أوفيليا!

يطول بي الوقت وأنا لا أجرؤ على النظر إلى هناك. يخنقني الشعور المقيت بأنني ربما ارتكبتُ حماقةً تفوقُ الوصف. وكأنما زال بهاء عالم الأحلام وروعته. وأشعرُ أنه لن يعود أبداً، وأنني سوف أضطرّ إلى السقوط إلى القاع في الحال، أو إلى اقتراف شيءٍ آخر مخيف، بغية وأد التفاهة المروّعة في مهدها، والتي لا بد أن تنطلق الآن، إذا ما سارت الأمور كما أخشى.

قمتُ بآخر محاولةٍ غبية لإنقاذ نفسي من نفسي، وذلك بأن رحتُ أفرك كمّي بتشنّج، كما لو أن عليه بقعة وسخة. ثم تلتقي عيوننا. يبدو وجه أوفيليا وكأن الدم مسكوبٌ عليه؛ وأرى كيف ترتجفُ يداها البيضاوان الناعمتان اللتان تمسكان بالورود. كلانا نريدُ أن نقول شيئاً، ولا نستطيع؛ كلّ منا يرى أن الآخر لا يجرؤ على ذلك.

بعد لحظةٍ اختفتْ أوفيليا ثانيةً. تكوّرتُ على نفسي، وأنا جالسٌ على الدرج، ولا أعرفُ سوى أن فرحاً يمتدّ حتى السماء يسكن فيّ الآن بدلاً من أناي. فرحٌ هو عبارة عن صلاةٍ مهلّلة للرغبة في الخروج عن طوري.

هل يمكن أن يكون هذا واقعياً حقاً؟ فـ أوفيليا سيدةٌ شابة راشدة! وأنا؟ كلا! إنها في مثل سنّي؛ وأرى عينيها في خيالي ثانيةً - بوضوحٍ أشدّ

من ذي قبل تحت ضوء الشمس الحقيقي. وأقرأ فيهما : إنها طفلةٌ مثلي. نظرتها نظرة طفل! لا نزال كلانا طفلين! هي لا تشعر بأنني مجرد فتىً أحمق!

مثلما أعرفُ يقيناً أن في صدري قلباً يخفقُ ويكاد ينفجرُ ويتشظى إلى ألف قطعةٍ لأجلها، أعرفُ أيضاً أننا سنلتقي اليوم من غير حاجةٍ إلى سعي أحدنا إلى الآخر؛ وأعرفُ أيضاً أن هذا سيحصلُ في الحديقة الصغيرة عند النهر أمام منزلنا بعد غروب الشمس، من غير حاجةٍ لاتفاق أحدنا مع الآخر.

5

حديث منتصف الليل

مثلما تعيشُ في قلبي المدينة الصغيرة المنسية أشبه بجزيرة هادئة يطوّقها النهر المنساب، كذلك تبرزُ في ذهني ذكرى حديث استرقتُ السمع إليه ذات ليلة، أشبه بجزيرةٍ تحيط بها سيولُ القلق العائدة إلى أيام الشباب تلك، التي تعني لي أوفيليا.

كنتُ قد حلمتُ بحبيبتي، كما اعتدتُ أن أفعل في ذلك الوقت ساعةً بعد ساعة، فإذا بي أسمع البارون وقد فتح باب حجرة مكتبه لزائر؛ وعرفتُ من صوته أنه القسّ.

كان القس يأتي إليه أحياناً، حتى في ساعة متأخّرة، إذ كان هو والبارون صديقين قديمين، ثم يتجاذبان أطراف الحديث مع كأسٍ من النبيذ حتى بعد منتصف الليل في الغالب، متطرّقين إلى شتى المسائل الفلسفية، ويتشاوران بالطبع في كيفية تربيتي، باختصار: كانت أحاديثهم تدور حول أمورٍ لم تكنْ محلّ اهتمامي.

لم يكنِ البارون يطيقُ فكرة ارتيادي المدرسة.

وقد اعتاد أن يقول: "مدارسنا مطابخ شعوذة، لا تنفكّ تُفسدُ العقل إلى أن يموت القلب من العطش. وإذا نجحتْ هذه العملية، حصل المرء على شهادة النضج".

من هنا كان يعطيني كتباً لأقرأها، يختارُها من مكتبته بكلّ عناية، وذلك بعد أن كان قد سبر مسبقاً طبيعة شغفي بالمعرفة، ولكنه لم يختبرْني يوماً إن كنت قرأتها حقاً.

كان قوله المفضَّل: "ما يريده عقلك أن يرسخ في ذاكرتك، سوف تحفظه؛ إذ إنه يمنحك في الوقت نفسه السرور بحفظه. بيد أن أساتذة المدرسة أشبه بمروّضي الحيوانات؛ أحدهم يرى أن من المهمّ أن تقفز الأسود عبر الإطارات، والآخر يؤكّدُ للأولاد أن المرحوم هانيبعل فقدَ عينه اليسرى في المستنقعات البونتينية بالقرب من روما؛ أحدهم يجعلُ من ملك الغابة مهرّج سيرك، والآخر يجعلُ من زهرة الإله باقة بقدونس".

وقد أدار السيدان الآن حديثاً مشابهاً؛ إذ سمعتُ القسّ يقول: "لعلّي أخشى أن يُترَك الأطفال لينجرّوا مثل سفينةٍ بلا دفّة، أعتقدُ أنه **لا بد** أن يجنحوا".

قاطعه البارون منفعلاً: "وكأن معظم البشر لم يجنحوا! أم لعلّ من يتزوّج، بعد شبابٍ حزين أمضاه خلف نوافذ المدرسة - ولنقلْ إنه أصبح فقيهاً قانونياً -، ليورّث أولاده فشلَه، ثم يُصاب بالمرض ويموت، هو شخصٌ لم يجنحْ من وجهة نظر الحياة الأسمى؟ أتعتقد أن نفسه قد خلقتْ هذا الجهاز المعقّد، المسمّى الجسد البشري، لمثل هكذا غرض؟".

قال القسّ معترضاً: "أتساءل إلى أين كنا سنصلُ لو أن الجميع يفكّرون مثلك؟".

"إلى أجمل وأصلح حالةٍ للجنس البشري يمكن تخيّلها! لو أن الجميع يفكّرون مثلي، لنما كلّ إنسانٍ بشكلٍ مغاير، ولما قاتلَ أحدٌ الآخر، كلٌ

سيكون فيه قطعة كريستال، يفكّرُ ويشعرُ بألوانٍ وصورٍ مختلفة، يحبُّ بشكلٍ آخر ويكرهُ بشكلٍ آخر، كما تشاءُ له الروح في داخله أن يفعل. لا بد أن نظرية المساواة بين البشر من ابتداع الشيطان، عدوّ كلّ تنوّعٍ وتعدّد".

"أنت تؤمنُ بالشيطان إذاً، أيها البارون. وقد اعتدتَ إنكاره على الدوام!".

"أنا أؤمنُ بالشيطان إيماني بالقدرة القاتلة لريح الشمال! ولكن من باستطاعته أن يدلّني على الموضع في الكون، الذي تصدرُ عنه البرودة؟ - لا بد أن الشيطان يتربّعُ على العرش هناك. - البرودة تجدُ في أثر الدفء ليس إلاّ، إذ إنها تريدُ هي نفسها أن تدفأ. والشيطان يريدُ أن يقصد الله، والموت البارد كالثلج يريدُ أن يقصد نار الحياة؛ هذا هو أصل كلّ تجوال. - - ينبغي أن توجد نقطة تعادلٍ مطلقة للبرودة؟ - لكن أحداً لم يجدّها بعد. ولن يجدها أحدٌ أبداً؛ مثلما لا يمكن لأحد أن يجد القطب الشمالي المطلَق للمغناطيس؛ فإذا أطال أحدهم قضيباً مغناطيسياً أو كسره، فإن القطب الشمالي يبقى معاكساً للقطب الجنوبي دائماً، والموضع الذي يفصلُ بين القطبين ظاهرياً، يطولُ تارةً ويقصرُ تارةً أخرى، إنما لا يتلامسُ القطبان أبداً، وإلاّ أصبح القضيب حلقة، وعندها يكفّ عن كونه قضيباً مغناطيسياً. - سواء أبحثَ المرء في المتناهي عن مصدر هذا القطب أو ذاك، - فهو ينخرطُ دوماً في تجوالٍ صوب اللانهائية. انظرْ إلى الصورة المعلّقة على الحائط: لوحة "العشاء السرّي" لـ ليوناردو دا فنشي! إنها تترجمُ على البشر ما أردتُ قوله منذ قليل، سواء عن المغناطيس أو فيما يخصّ التربية عن طريق النفس. إن

الوضعية الرمزية لليد والأصابع تنوّهُ إلى الرسالة التي تنطوي عليها نفسُ كلّ تلميذ؛ فاليد اليمنى عند جميعهم في حالة نشاطٍ وحركة، سواء أكانتْ تستندُ إلى الطاولة، المقسَّمة حافتها إلى ستة عشر جزءاً، الأمر الذي قد يعني الحروف الستة عشر للأبجدية الرومانية، أو كانتْ مرتبطةً باليد اليسرى. فقط عند يهوذا الأسخريوطي وحده تعملُ اليد اليسرى، بينما اليد اليمنى مُطبَقة! - أما يوحنا الإنجيلي، الذي قال عنه يسوع إنه سيبقى، ولذلك تناقل عنه التلاميذ أنه لن يذوق الموت، - فهو يشبكُ يديه، وهذا يعني أنه المغناطيس الذي لم يعدْ مغناطيساً؛ إنه حلقةٌ في الأبدية؛ إنه لم يعدْ متجوّلاً. لوضعيات الأصابع هذه شأنٌ خاص! فهي تنطوي على أعمق أسرار الأديان. تجدُها عند سائر تماثيل الآلهة في الشرق، ولكنك تراها أيضاً تتكرّرُ في لوحات رسّامينا القروسطيين جميعاً تقريباً.

في عائلتنا، في سلالة بارونات آل يوخَر، يتمّ توارثُ الأسطورة القائلة إن جدّنا الأعلى، حامل الفوانيس كريستوفر يوخَر، هاجر من الشرق مصطحباً من هناك سرّ استحضار أطياف الموتى، عن طريق نوعٍ من الإيماءات بالأصابع، وتطويعها لشتّى الأغراض.

ثمة شهادةٌ في حوزتي تفيدُ أنه كان عضواً في أخويةٍ قديمة تسمّي نفسها تارةً: "شي كَياي"، ما يعني بالألمانية: "ذوبان الجثث"، وفي مكانٍ آخر: "كَيو كَياي"، ما يعني: "ذوبان السيف". ويُروى فيها عن أمورٍ قد يكون وقعُها غريباً جداً على مسامعك؛ إذ يُقال إنه بمساعدة فنّ جعل اليدين والأصابع حيّةً روحياً، اختفى عضو الأخوية هذا أو ذاك مع جثّته في القبر، بينما استحالَ آخرون في التراب إلى سيوف. ألا يلفتُ انتباه

حضرتك هنا تشابهٌ مدهش مع قيامة المسيح؟ - خصوصاً إذا ربطتَ ذلك مع إشارات اليد في لوحات العصور الوسطى والعصور القديمة في آسيا؟".

سمعتُ كيف دبّ الاضطراب في القسّ، وكيف راحَ يذرعُ الغرفة جيئةً وذهاباً بخطواتٍ سريعة، ثم توقّفَ وصاح بصوتٍ مكظوم: "ما تقوله لي هنا، سيدي البارون، يبدو لي أشدّ شبهاً بالماسونية من أن أستطيع قبوله من دون اعتراض، وأنا القسّ الكاثوليكي. ما تسمّيه ريح الشمال القاتلة هو بالنسبة إلي شيءٌ ماسوني مع كلّ ما يرتبطُ بها. أنا أعرفُ حق المعرفة، ولطالما أشبعنا هذا الموضوع كلاماً ونقاشاً، أن ثمة عروةً واحدة تضمُ كلّ الرسّامين والفنّانين الكبار، كانوا يسمّونها طائفة حِرَفية، وأنهم أعلنوا أن ارتباطهم عابرٌ للبلدان، وذلك عن طريق وضع علاماتٍ سرّية - هي غالباً وضعيات أصابع وإشاراتٌ يدوية - على شخوص لوحاتهم أو عن طريق غمزاتٍ أو تلميحاتٍ أو إيحاءاتٍ في وجوهٍ تشكّلها السحُب، وأحياناً عبر اختيار الألوان أيضاً -. وطالما حرمتْهم الكنيسة من الوعد الرسمي ليكفّوا عن مثل هذه الأشياء، قبل أن تعهد إليهم برسم أيقونات وصور القدّيسين، ولكنهم أجادوا الالتفاف على ذلك المرة تلو الأخرى. يؤخَذُ على الكنيسة أنها تقول، وإنْ ليس على مسمع كلّ الناس: الفنّ من الشيطان. أليس هذا الأمر واضحاً ومفهوماً بالنسبة إلى كاثوليكيٍ شديد التديّن؟ لا سيما أنه من المعروف أنه كان لدى الفنّانين سرٌ موجّه ضد الكنيسة، على ما يبدو، وكانوا حريصين على حفظه وكتمانه؟

أعرف رسالة لرسّامٍ كبير من ذلك العصر، يعترفُ فيها صراحةً لصديقٍ إسباني بوجود الجمعية السرّية".

تدخّل البارون بحيوية: "أنا أيضاً أعرف تلك الرسالة. لم أعدْ أذكر النصّ تماماً، إلاّ أن الرسّام يكتبُ على وجه التقريب: "اقصدُ أحدهم، وهو رجلٌ يُدعى س، وارجُه جاثياً أن يعطيني مجرد إشارةٍ واحدة فقط لأظفر أخيراً بالاطلاع على كيفية مواصلة التعامل مع السرّ. لا أريد أن أظلّ إلى آخر الحياة مجرد رسّام!". ماذا يُستنتَج من ذلك، عزيزي القسّ؟ يُستنتَج من ذلك بالطبع أن ذلك الرسّام الشهير كان في الحقيقة أعمى ليس إلاّ، مهما كان اطّلاعه رفيعاً في الظاهر. أما وأنه كان ماسونياً أو بنّاءً حراً، وهذا لا يعني بالنسبة إلي أكثر من أنه كان عاملاً مساعداً في الأعمال الآجريّة الخارجية يتسلّق هنا وهناك على المبنى من الخارج فقط، وينتمي إلى الطائفة الحرَفية، فهذا لا شكّ فيه. كما أنك محقّ تماماً، عندما تقول إن كلّ المهندسين المعماريين والرسّامين والنحّاتين والصاغة والنقّاشين في ذلك الوقت كانوا ماسونيين. إنما، وهنا بيت القصيد: لم يكونوا يعرفون سوى الطقوس الظاهرية، ولم يفهموها إلاّ بالمعنى الأخلاقي؛ فقد كانوا مجرد أدواتٍ بيد تلك القدرة غير المنظورة، التي ترى فيها أنت، ككاثوليكيّ، من باب الخطأ معلّم "اليد اليسرى"؛ كانوا أدواتٍ لا أكثر لتحقيق الغرض الوحيد، المتمثّل في صون بعض الأسرار وحفظها في صورةٍ رمزية للأجيال القادمة، إلى أن ينضج الوقت وتتكامل الظروف. مع ذلك تعثّروا في الطريق ولم يتقدّموا، لأنهم كانوا يأملون دائماً في أن يتلقّوا من فمٍ بشري المفتاح الذي يفتحُ البوّابة؛ لم يعرفوا أن المفتاح يكمن في النشاط الفنّي نفسه، لم يدركوا أن الفنّ ينطوي على مغزىً أعمق من مجرد رسم لوحاتٍ أو نظم مقطوعاتٍ شعرية، وهذا المغزى في الحقيقة هو: إيقاظُ نوعٍ من الإحساس المدرِك

المرهف بشكلٍ فائق في الفنّان نفسه، تمظهرُه الأول يُدعى "الحسّ الفنّي الصحيح".

حتى الفنّان في أيامنا هذه، سوف يكون بإمكانه أن يسمح ببعثِ تلك الرموز في أعماله ثانيةً، شريطة أن تكون حواسّه الداخلية منفتحةً على مؤثّرات هذه القدرة؛ ولا شكّ في أنه ليس في حاجةٍ إلى أن يكون قد سمعها من فم شخصٍ حيّ، وليس في حاجةٍ على الإطلاق إلى أن يكون عضواً في هذا المحفل أو ذاك! على العكس: "الفم غير المنظور" يتكلّمُ بوضوحٍ أشدّ بألف مرة من اللسان البشري. وهل الفنّ الحقيقي غير النهل من عالم الوفرة الأبدية؟!

من المؤكّد أن هناك أناساً لهم كلّ الحقّ في حمل لقب "فنّان"، ومع ذلك هم مسكونون بقوةٍ ظلامية ليس إلاّ، قوة يجوز لك، من موقعك، أن تسمّيها "الشيطان" بلا حرج. وما ينجزونه يشابه تمام الشبه عالم الجحيم الشيطاني، كما يتصوّرُه المسيحي؛ فأعمالهم تتّسم ببرودة الشمال الثلجية، حيث كانت العصور القديمة قد نقلتْ إليه مقرّ الجان المبغِض للبشر؛ أما وسائل التعبير في فنّهم فهي: الطاعون، الموت، الجنون، القتل، الدم، اليأس، الفسق والخلاعة. -

كيف يُفترَض بنا الآن أن نفسّر طبائع الفنّانين هذه؟ سأقولُ لك ذلك: الفنّان هو إنسانٌ طغى الروحيُ والسحريّ في دماغه على الماديّ. ويمكن أن يحدث هذا بطريقتين: في الطريقة الأولى - ولنسمّها "الشيطانية" - يمكن للدماغ أن يفسُدَ وينحطّ من خلال الفسق والفجور، من خلال مرضٍ جنسي، من خلال عيوبٍ ورذائل موروثة أو معتاد عليها في المفاهيم؛ في هذه الحالة يخفُ وزنه، إن صح التعبير،

على ميزان التوازن، ما يؤدي تلقائياً إلى "ازدياد الثقل أو التكشّف في عالم الظواهر" وهبوط كفّة السحريّ: أي أن كفّة الروحيّ تنخفض لمجرّد كون الكفّة الأخرى قد أصبحتْ أخف وزناً، وليس لأنها هي نفسها أصبحتْ أثقل وزناً. في هذه الحالة تلازمُ العملَ الفنّي رائحةُ العفن. وواقع الحال كما لو أن الروح ترتدي ثوباً يشعّ بالضوء الفوسفوري للتفسّخ.

أما عند الفنّانين الآخرين - وأريدُ أن أسمّيهم "الممسوحين" - فقد انتزعتِ الروح لنفسها السيطرة على الحيوان، على غرار الفارس جاورجيوس: فترجحُ عندهم كفّة الروحيّ في عالم الظواهر بموجب الثقل الذاتي. وفي هذه الحالة ترتدي الروح رداء الشمس الذهبي.

ولكن كفّةً الميزان عند الاثنين تكون راجحة لصالح السحريّ؛ فـ "الشيطانيون والممسوحون" تحرّكهم ريحُ مملكة الوفرة غير المرئية، الشيطانيون تحرّكهم ريح الشمال، والممسوحون تحركهم نسمةُ شفق الصباح. أما الإنسان العادي فيبقى قزْمةً جامدة.

ولكن من هي تلك القدرة، التي تستخدم الفنّانين الكبار كأداةٍ غايتُها حفظ طقوس السحر الرمزية للأجيال القادمة؟

أقول لك: إنها القدرة نفسها التي خلقتْها الكنيسة فيما مضى. فقد شيّدتْ عمودين حيّين في وقتٍ واحد، الأول أبيض والثاني أسود. عمودان حيّان سوف يظلّ كلّ منهما يبغضُ الآخر، إلى أن يعرفا أنهما مجرد دعامتين لقوس نصرٍ قادم.

أنت تذكرُ الموضع في الإنجيل، الذي يقول فيه يوحنا: "وأشياءُ أخَرُ كثيرةٌ صنعَها يسوع إنْ كُتِبَتْ واحدةً واحدةً فلستُ أظنُّ أن العالمَ نفسَه يَسعُ الكتبَ المكتوبة".

كيف تفسّرُ، سعادتك، أن الكتاب المقدّس، بحسب عقيدتك، وصل إلى زماننا بموجب مشيئة الربّ، أما موروث تلك "الأشياء الأخَر" فلا؟

هل فُقدَتْ مثلما يَفقدُ غلامٌ مطواتَه؟

أقول لك إن تلك "الأشياء الأخَر" لا تزال تعيشُ إلى اليوم، وقد عاشتْ دوماً وستبقى حيّة على الدوام، ولو ماتتْ كلّ الأفواه التي قد تنطق بها، والآذان التي قد يُنطَق بها فيها. فالروح سوف تُحييها همساً المرة تلو الأخرى وتخلقُ أدمغة فنّانين جديدة تتذبذبُ حينما تشاء، وتبني أيادي جديدة تكتبُ ما تأمرها به.

إنها تلك الأشياء التي كان يوحنا على علمٍ بها، ولا يزال - الأسرار التي كانتْ لدى "المسيح"، والتي كان ينطوي عليها حينما ترك يسوعاً، أداتَه، يقول: "قبل أن يكونَ آدم، كنتُ أنا".

أقولُ لك - شئتَ أن ترسم الآن إشارة الصليب أم لا -: بدأت الكنيسة مع بطرس، ولن تكتمل إلاّ بـ يوحنا. ما معنى هذا؟ اقرأ الإنجيل مرةً وكأنه نبوءة بمصير الكنيسة! ربما يتّضحُ لك عندذاك - بهذا المعنى - ما يعني نكرانُ بطرس للمسيح ثلاث مرات وامتعاضُه عندما قال يسوع عن يوحنا: "أريدُه أن يبقى". ومواساةً لك أريدُ أن أضيف: إن الكنيسة، وهذا ما أؤمن به وأراه قادماً، سوف تموت، ولكنها سوف تُبعَثُ من جديد، ولكن كما ينبغي أن تكون. ما من أحدٍ وما من شيءٍ يُبعَثَ ولم يكنْ قد مات قبل ذلك: ولا حتى يسوع المسيح.

أنا أشدّ معرفة بك، كإنسانٍ صادق يؤدي واجبه على أكمل وجه، وأعرف أنك غالباً ما سألتَ نفسك: كيف يتّفقُ أن يوجد بين رجال الدين، بل حتى بين البابوات، مجرمون، أناسٌ غير جديرين بقدسيتهم،

غير جديرين بأن يحملوا تسمية إنسان؟ كما أعرفُ أيضاً أنه في حال طلبَ إليك أحدهم تفسيراً لمثل هذه الحقائق سوف تقول: "المنصبُ وحده معصوم عن الخطأ، لا من يتولاّه". أوَلا تعتقد، صديقي العزيز، أنني مثلاً من أولئك الذين يسخرون من هكذا تفسير أو يتشمّمون بذكاءٍ وفطنة فائقين رياءً وضيعاً ومراوغاً وراءه؛ أضفْ أنني أدركُ حق الإدراك ما مغزى رسم الكاهن.

أنا أعرفُ حق المعرفة، وربما أفضل منك، ضخامة عدد رجال الدين الكاثوليك الذين يحملون في قلبهم، سرّاً، الشكَّ القلق: "أهو حقاً الدين المسيحي، الذي ينبغي اصطفاؤه لتخليص البشرية؟ ألا تشيرُ علامات العصر كافة إلى أن الكنيسة تتداعى؟ هل ستأتي حقاً مملكة الألف سنة؟ ما من شكٍّ في أن الكنيسة تنمو كشجرةٍ عملاقة، ولكن أين هي الثمار؟ صحيح أن جموع أولئك الذين يحملون اسم المسيح تزداد يوماً بعد يوم، إلاّ أن جدارتهم به وأهليتهم له تقلُّ يوماً بعد يوم أيضاً".

أنا أسألك، من أين يأتي هذا الشكّ؛ من ضعف الإيمان؟ كلا! إنه ينمو من إحساسٍ لاواعٍ بمعرفةٍ فحواها أن قلّة قليلة من بين الكهنة هم التوّاقون بما فيه الكفاية إلى البحث عن طريق القداسة، مثلما يفعل اليوغي وزهّاد الهندوس. قلّة قليلة منهم يغتصبون ملكوت السموات اغتصاباً. صدّقني: توجد دروب للقيامة أكثر مما يمكن للكنيسة أن تحلم به! ولا ريب في أن الرجاء الفاتر بـ "الرحمة" لا يفعلُ ذلك. كم عدد من هم في موقعك ويمكن أن يقولوا عن أنفسهم: "كما يشتاقُ الأيلُ إلى جداولِ المياه، هكذا تشتاقُ نفسي إليك يا الله!"[3]؟ هم جميعاً يعقدون

---

[3] مزمور 42 (المترجم).

أملهم سرّاً على تحقّق النبوءة المشكوك في صحتها، والتي تقول: سوف يظهر اثنان وخمسون من البابوات، كلّ منهم يحملُ اسماً لاتينياً خفيّاً يرسمُ له عمله ونشاطه على الأرض؛ وسوف يُسمّى آخرهم "فلوس فلوروم"، وهذا يعني "زهرة الأزهار"، وتبدأ مملكة الألف عام في ظلّ صولجانه.

أنا أتنبّأ لك - وأنا وثنيٌّ أكثر مني كاثوليكيّ - بأنه سوف يُسمّى يوحنا (Johannes) ويكون انعكاساً ليوحنا (Johannis) الإنجيلي؛ وسوف تُنقَلُ إليه القوى عبر العالم السفلي من قبل يوحنا (Johannes) المعمدان، شفيع البنّائين الأحرار أو الماسونيين، الذين يصونون أسرار المعمودية، من غير أن يعرفوها هم أنفسهم.

هكذا سيتحوّلُ العمودان إلى قوس نصر!

ولكن اكتبِ اليوم في كتاب: "لن يكون على رأس البشرية، كزعيم، لا جنديّ ولا دبلوماسيّ، لا بروفسّور ولا - صاحب أموال، بل كاهنٌ وحسب" - وعندما يصدرُ الكتاب ستجدُ أنه سوف تسري في العالم صرخة غضب. اكتبْ فيه: "الكنيسة مجرد عملٍ جزئي، عملٍ منقوص، مجرد نصف سيفٍ مكسور إلى جزأين، طالما أن وكيلها هو ليس في الوقت نفسه وكيلَ سليمان أيضاً، رئيس الأخوية"، وسوف يتم حرقُ الكتاب على محرقة حطب.

طبيعي أنهم بذلك لن يحرقوا الحقيقة ولن يسحقوها بأقدامهم! فهي سوف تنجلي المرة تلو الأخرى؛ مثلما يسقطُ اللوح الملوّن عن النقش الموجود أعلى هيكل كنيسة مريم في بلدتنا المرة تلو الأخرى.

يبدو لي أن وجود سرٍّ مقدّس في حوزة خصوم الكنيسة، ولا تعلمُ عنه الكنيسة الكاثوليكية أيّ شيء، هو أمرٌ لا يوافقُ هواك أنت أيضاً. مع

ذلك، هذا هو واقع الحال، إنما مع الشرط الأساسي المتمثّل في أن أولئك الذين يحرسونه لا يعرفون ماذا يفعلون به، وطائفتهم هي النصف الآخر من "السيف المكسور" ولا يمكنها إدراك المغزى. ولعلّه أمرٌ أكثر من غريبٍ فعلاً أيضاً قبولُ أو افتراضُ أن المؤسّسين الأفاضل للتأمين على الحياة في غوتا[4] يمتلكون سرّاً سحرياً لقهر الموت".



حلّ فاصلٌ طويل، وبدا أن السيدين المسنّين كليهما مسترسلان في أفكارهما.

ثم سمعتُ قرع الكؤوس، وسأل القسّ بعد برهة: "من أين لك كلّ هذه المعرفة العجيبة؟". والتزم البارون الصمت.

"أم أنك لا تحبّذُ الحديث في ذلك؟".

"إحم. بحسب الظروف"، تملّص البارون. "بعضٌ من هذه المعرفة له صلةٌ بحياتي، وبعضٌ منها خطرَ في بالي، وبعضٌ آخر - إحم - ورثتُه".

"لم أسمعْ من قبل أن المعرفة يمكن أن تُورَّث. ما من شكٍّ في أنه لا يزال يُحكى عن السيد والدك المغفور له أشدّ القصص غرابةً وإثارة للدهشة إلى اليوم".

"ماذا، على سبيل المثال؟"، صاح البارون طرِباً. "إنه لأمرٌ يثير اهتمامي بشدة".

"إحم. يُقال إنه - إنه -".

"إنه كان مغفّلاً؟"، أكملَ البارون بسرور.

---

[4] Gotha: مدينة في تورينغن في ألمانيا (المترجم).

"ليس بالضبط مغفّلاً. أوه، بالتأكيد لا! إنما غريب الأطوار للغاية. يُفترَض، هكذا يُقال - إنما لا تظنّن مثلاً أنني أصدّقُ شيئاً كهذا! - يُفترَض أنه اخترع آلة لإيقاظ الإيمان بالمعجزات عند - أجل - الإيمان بالمعجزات - عند كلاب الصيد!".

"ها ها ها!"، قهقه البارون من كلّ قلبه بصوتٍ عالٍ وبشكلٍ متواصل، إلى حد أنني أُصبتُ بالعدوى وأنا في سريري، واضطررتُ إلى عضّ المنديل كي لا أفضح نفسي بأنني كنتُ أسترق السمع.

"وقد فكّرتُ في الحال أن ذلك مجرد هراء!"، استطرد القسّ معتذراً.

فقال البارون وهو لا يزال يلتقطُ أنفاسه: "أخ، بالتأكيد لا! المسألة صحيحة. ها ها! انتظرْ لحظة! لا بد أن أنتهي من الضحك أولاً. إذاً، فقد كان والدي شخصاً فريداً حقاً، لن يجود الزمان بمثله. كان يمتلكُ معرفةً وعلماً هائلين، وقد تخيّل كلّ ما يمكن لعقلٍ أن يتخيّله. ذات يومٍ أطالَ النظر إليّ، ثم أغلق كتاباً سميكاً كان يقرأ فيه ورماه على الأرض (منذ ذلك الحين لم يمسكْ بيده كتاباً أبداً) وقال لي: "بارثولوميوس، بنيّ، لقد عرفتُ الآن أن كلّ شيءٍ هراء. الدماغ هو أكثر غدةٍ يمكن للإنسان أن يستغني عنها! ينبغي للمرء أن يستأصلها كما يستأصل اللوزتين. أنا أنوي البدء بحياةٍ جديدة اليوم".

وفي الصباح التالي انتقل إلى قصرٍ صغير في الريف، كنا نمتلكه وقتذاك، وأمضى فيه بقية أيامه؛ لم يرجعْ إلى البيت إلاّ قُبيْل وفاته، كي يموت بسلام، هنا في الطابق الذي تحتنا.

كلما كنتُ أزورُه في القصر، كان يُريني شيئاً جديداً. من ذلك مثلاً شبكة عنكبوتٍ ضخمة رائعة على الوجه الداخلي لزجاج النافذة، كان يصونُها ويراعيها كمقلة عينه.

"أترى، بنيّ"، شرح لي، "هنا خلف الشبكة أشعلُ في المساء ضوءاً ساطعاً لاجتذاب الحشرات من الخارج. والحق أنها تتدافعُ زرافاتٍ زرافات وبكلّ سرعة، غير أنه لا يمكن أن تقع في الشبكة، ذلك أن زجاج النافذة يحولُ دون ذلك.

أما العنكبوت، الذي يجهل بالطبع ما هو الزجاج - إذ أين عساه يصادفُ شيئاً كهذا في العراء -، فلا يستطيعُ تفسير هذا الأمر ويُرجَّح أنه يتحسّس رأسه بيده. ومن المحقَّق أنه ينسجُ شبكةً تزداد حجماً ونعومةً يوماً بعد يوم. إلاّ أن هذا لا يسدُ النقصَ ولو بالحد الأدنى! على هذا النحو أريد أن أصرف الحيوان تدريجياً عن الاطمئنان الفاضح إلى الطغيان الكلّي للعقل وعن الوثوق السافر به. فيما بعد، حينما يصبحُ إنساناً على طريق إعادة التجسّد، سوف يشكرني ويقدّرُ لي هذه التربية الحكيمة، إذ إنه سوف يصطحبُ معه عندذاك كنزاً لاواعياً من الخبرة، يمكن أن يكون ذا قيمةٍ كبرى بالنسبة إليه. أنا افتقدتُ لمثل هذا المربّي، كما هو واضح، حينما كنتُ لا أزال عنكبوتاً، وإلاّ كنتُ قد نبذتُ الكتب منذ طفولتي!".

وفي مرةٍ أخرى قادني من أمام قفصٍ مليء بطيور العقعق. رمى لها بوفرةٍ من الطعام؛ فاندفعتْ إلى تناوله بنهم، وراح كلّ منها يحشو منقاره وحوصلته بسرعة البرق إلى الحد الذي لم يعدْ يستطيع معه ابتلاع المزيد، وذلك خوفاً من أن تسبقه العقاعق الأخرى وتلتهم بصورةٍ أسرع منه. وشرح لي والدي: "سوف أجعل هذه الحيوانات تمقتُ البخل والجشع وتنفرُ منهما. لعلّها تتركُ في حياتها اللاحقة حبّ الادّخار المجدِب هذا، وهو أكثر الخصال التي تجعل الإنسان قبيحاً!".

فقلتُ معترضاً: "أو تخترعُ لنفسها جيوباً في ستراتها وخزائن نقود!"، الأمر الذي دفع والدي لإعمال ذهنه ثم أطلق سراح الطيور، من غير أن يعلّق بكلمةٍ واحدة.

"آمل ألاّ يكون لديك اعتراض على هذا!"، دمدمَ بفخرٍ وقادني إلى شرفةٍ على السطح ينتصبُ عليها مدفعٌ قديم - نوع من المنجنيق. "أترى الكلاب الكثيرة هناك في الأسفل على المرج؟ إنها تتنطّطُ في المكان غير مباليةٍ بأيّ شيء! سوف أضربُ على يدها وأضعُ حداً لنشاطها!". تناول حجراً صغيراً ورمى به أحد الكلاب، فانتفض هذا الأخير مفزوعاً في الحال، وراح يتطلّعُ من حوله ويقلّبُ بصره صوب كلّ الجهات، وكأنه يتساءل: من أين عساه قد أتى هذا المقذوف؟ ثم رفع نظره نحو السماء في حيرةٍ من أمره، ورقدَ ثانيةً بعد طول قلقٍ واضطراب. ما من شكٍ في أن تصرّفه يدلّ على أن مثل هذا الظلم والأذى كثيراً ما ألمّ به في السابق.

وقال والدي متباهياً: "هذه هي الآلة التي، إن استُخدمَتْ بصبرٍ وأناة، لا بد أن ترعى وتوجّه في قلب كلّ كلب صيد، حتى وإنْ كان شرّيراً جداً ومولعاً بالأذى، بذرةَ الإيمان القادم بالمعجزات بشكلٍ لا يخطئ! لا تضحكْ أيها الولد الفضولي! اذكرْ لي مهنةً واحدة أكثر أهمية! أوَتعتقدُ أن العناية الإلهية تغرينا بشكلٍ مختلف عمّا أفعله أنا هنا مع الكلاب؟"".

وختم البارون بقوله: "كما ترى، فقد كان والدي شخصاً غريب الأطوار لا عاصم له، ومع ذلك كان يقطرُ حكمةً". وبعد أن انتهى كلاهما من الضحك، واصل حديثه: "ثمة قدَرٌ غريب يتم توارثه في عائلتنا. إنما أرجو ألاّ تظنّ، إنْ كان لكلامي وقعُ استعلاءٍ على مسامعك، أنني أعدُ

نفسي شخصاً مميّزاً أو مصطفىً مثلاً! صحيح أن لديّ رسالة، إلاّ أنها متواضعة جداً. ولا شكّ في أنها تبدو لي رسالةً عظيمة، وأنا أقدّسها!

أنا الرقم الحادي عشر في سلالة يوخَر؛ حيث ندعو الجدّ الأعلى بالجذر، بينما نُدعى نحن العشرة، البارونات، بالفروع، وأسماؤنا الأولى جميعها تبدأ بحرف "ب" (B) مثل بارثولوميوس، بنيامين، بالتهازار، بينيديكت.. إلخ. اسم الجذر فقط، الجدّ الأعلى كريستوفر، يبدأ بحرف ك (Ch). وقد جاء في تاريخ عائلتنا أن الجدّ الأعلى تنبّأ بأن قمّة شجرة النسب - الرقم الثاني عشر - سوف يُسمّى كريستوفر من جديد. والحق أنني كثيراً ما فكّرتُ بيني وبين نفسي: "من العجيب أن كلّ ما تنبّأ به تحقّق حرفياً، باستثناء الأمر الأخير، الذي يبدو لي غير صحيح، إذ ليس لديّ أولاد". إلى أن وقع الحدثُ الغريب، عندما سمعتُ عن ذلك الفتى الصغير الموجود في دار اللقطاء، والذي أتبنّاه الآن، وأخذتُه لمجرد أنه كان يسيرُ في نومه؛ فهي خصلةٌ تلازمنا جميعاً، نحن أفراد عائلة يوخَر. ثم، عندما علمتُ أن اسمه كريستوفر، وَمَضت الخاطرة في ذهني كالبرق، وكنتُ شديد الانفعال، وأنا أصطحب الطفل إلى المنزل وقتذاك، إلى حد أنني كدتُ لا أستطيع التقاط أنفاسي. تشبهُ عائلتي زمنياً شجرة نخيل، دائماً ما يسقطُ منها فرعٌ ليفسح المجال للفرع التالي، إلى أن لا يتبقى أخيراً سوى الجذر وقمّة الشجرة والجذع الأملس، الذي لا يعطي أيّ غصيناتٍ جانبية، بحيث يتمكّنُ النسغ من الصعود من الأرض إلى قمّة الشجرة بحرية. لم يكنْ لأيٍ من الأسلاف أكثر من ابنٍ واحد، كما لم يسبقْ لأيّ سلفٍ أن كان له ابنة، بحيث بقي مثَلُ شجرة النخيل نقياً لا تشوبه شائبة.

أكثر من هذا: فأنا، بوصفي آخر فرع، لا أزال أسكنُ هنا في المنزل تحت السقف؛ فقد دُفعتُ إلى فوق، وأنا نفسي لا أعرف لماذا! لم يسبقْ لأسلافي أبداً أن سكنوا في الطابق نفسه أكثر من جيلين.

أي نعم، ابني ليس فلذة كبدي. هنا تتشطرُ النبوءة. وغالباً ما يُحزنُني هذا الأمر، إذ كنتُ أتمنى بالطبع أن أرى قمّة شجرة النسب برعماً من دمي ومن دم أجدادي! ما مصير الإرث الروحي في هذه الحالة؟ ولكن ما بالك أيها القسّ؟ لماذا تحدّقُ بي هكذا؟".

فهمتُ من صوت انقلاب أريكةٍ أن رجل الدين انتفض واقفاً. وابتداءً من هذه اللحظة تملّكني شيءٌ أشبه بحمّى متّقدة، أخذتْ تشتدّ مع كلّ كلمةٍ من كلمات القسّ. "اسمعْ، أيها البارون!"، انطلقتْ الكلمات من فمه. "حالما دخلتُ إليك، أردتُ أن أقول لك ذلك، ولكنني كنتُ أرجئه إلى أن تأتي اللحظة المناسبة. ثم شرعتَ أنت بالكلام، ولا بد لي من القول إنني نسيتُ طوال لحظاتٍ خلال حديثك الغرض من مجيئي إليك. وأنا أخشى أن أنكأ الآن جرحاً قديماً في قلبك -".

"تكلّمْ! تكلّمْ! هاتِ ما عندك!"، ألحّ البارون.

"زوجتك المفقودة -".

"كلا، كلا، ليست مفقودة، لقد هربتْ! فلتسمِّ الأشياء بمسمّياتها، كما حصلتْ في الواقع، أيها القسّ!".

"حسناً، أقول إذاً إن زوجتك والمرأة المجهولة التي قذفها النهر على ضفّته هنا قبل نحو خمس عشرة سنة، وترقدُ الآن مدفونة في القبر ذي الورود البيضاء في المدفن خارجاً، والذي لا يحملُ سوى تاريخ الوفاة من دون أيّ اسم، هما الشخص نفسه! و - - الآن افرحْ يا صديقي العزيز

القديم! فاللقيط الصغير كريستوفر لا يمكن أن يكون إلاّ ولدك من صلبك – وهذا أمر مؤكَّد. لقد قلتَ أنت نفسك إن زوجتك كانتْ حاملاً حينما تركتُكَ! كلا، كلا! لا تسألني من أين لي معرفة هذا! فأنا لن أخبرك حتى لو سُمِحَ لي. لنفترضْ أن أحدهم أخبرني بذلك أثناء اعترافه. شخص لا تعرفه".



لم أعدْ أسمع ما دار بينهما من حديثٍ آخر. كنتُ أشعرُ بالحرارة تارةً وبالبرودة تارةً أخرى. لقد أهداني منتصفُ الليل ذاك أباً وأمّاً، ولكنه أهداني أيضاً الإدراك المؤسف بأنني سرقتُ ثلاث ورداتٍ بيضاء من الورود التي حول قبر أمّي.

6

أوفيليا

لا يزال الأولاد يهرولون خلفي كما في السابق، حينما أجوبُ الشوارع مساءً مرفوع الرأس وفخوراً بالوظيفة الشرفية لعائلة فون يوخَر، وأنا أعلمُ أن الجدّ الأعلى هو جدّي أنا أيضاً؛ إلاّ أن أغنيتهم الساخرة: "تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ، تاوبنشلاغ" باتتْ أخفّ وطأةً على مسامعي بشكلٍ ملحوظ؛ فمعظمهم يكتفي بالتصفيق إيقاعياً، أو يغنّي "تُرارا" فقط.

حتى الكبار! فهم يشدّون القبّعة تعبيراً عن امتنانهم لإلقائي التحية عليهم، بعد أن كانوا في السابق يكتفون بالإيماء برؤوسهم. وحينما يشاهدونني عائداً من زيارة قبر والدتي، وهو ما أفعله كلّ يوم، يتهامسون مع بعضهم البعض؛ كلّ ذلك لأنه راح يتردّدُ على الألسن في البلدة أنني الابن الحقيقي للبارون فون يوخَر ومن صلبه، ولست مجرد ابنه بالتبنّي!

كلما أقابلُ السيدة أغلايا، تنحني احتراماً كما تنحني أمام موكبٍ كنسيّ احتفاليّ، وتغتنمُ كلّ فرصةٍ كي تخاطبني وتستفسر عن أحوالي!

حينما تسيرُ برفقة أوفيليا، أولّي هارباً دوماً، كي لا نضطرّ كلانا إلى الاحمرار خجلاً من تظاهر المرأة المسنّة بالتصاغر والخضوع.

أما معلّم الخراطة موتشلكناوس فيتجمّدُ رسمياً حينما يبصرني؛ وإذا ما ظنّ أن بإمكانه الهروب من دون أن يراه أحد، فإنه يتقهقرُ إلى جحره كفأرٍ مفزوع. أنا أشعر بألمه ومعاناته البالغين من أنني أنا بالذات، أنا الذي أعني له الآن كائناً فوق طبيعي، مطّلعٌ على سرّه الليلي.

والحق أنني زرتُه في ورشته مرةً واحدة فقط، بقصد إخباره بأنه لا داعي لأن يخجل مني في الحقيقة؛ ولم أجرؤ على زيارته مرةً ثانية. كنتُ أودّ أن أخبره كم أحترمُه وأقدّرُه لأنه يضحّي في سبيل أسرته على هذا النحو. كنتُ أنوي استعمال كلمات والدي "إن كلّ مهنةٍ ترى الروحُ أن من الكرامة مواصلة مزاولتها بعد الموت، هي مهنةٌ شريفة"، وكنتُ شديدَ التشوّق إلى رؤية الأثر المريح الذي كانتْ ستخلّفه في نفسه، إنما لم يتمّ لي هذا الكلام على الإطلاق.

فقد نزعَ ستارة من على النافذة ورمى بها على التابوت، كي لا أرى الأرانب، ثم بسطَ ذراعيه وأحنى جذعه بزاويةٍ قائمة، وبقي في هذه الوضعية الصينية ووجهه مصوَّبٌ نحو الأرض، من دون أن ينظر إليّ، وراح يدمدمُ بكلماتٍ لا معنى لها أشبه بابتهال: "سعادة سموّه السيد البارون تكرّم على أبعد تقدير- -".

فما كان مني إلاّ أن ركضتُ إلى الخارج ثانيةً وأنا أشعرُ بالارتباك والخجل، إذ إن كلّ ما تلعثمتُ به كان معكوساً. وددتُ أن أنفّذ ما كنت أنويه، إلاّ أن كلّ ما تلفّظتُ به كان له وقع التكبّر، كنتُ "أتكرّم" به، وكانتْ أبسط الكلمات التي وجّهتُها إليه وأشدّها بسذاجة تصطدمُ بهالة العبودية خاصته، لترتدّ وتجرحني كالسهم، وتحمل الطعم الكريه للتكرّم. حتى انصرافي الصامت أثقل كاهلي بعبء الشعور بأن تصرّفي بدا متكبّراً.



الوحيد من بين الكبار، الذي لم يتغيّر سلوكه نحوي، هو كبير المنتجين باريس. والحق أن توجّسي وخوفي المبهم منه أخذ يشتدّ؛ ثمة تأثيرٌ شالٌ يصدرُ عنه ولا حيلة لي إزاءه. وأنا أشعرُ أن هذا التأثير يكمن في صوته الثخين والخفيض وفي النبرة الآمرة لكلامه. أريد أن أوهم نفسي بأنه من الحماقة أن أظنّ شيئاً كهذا، إذ ما من مبرّرٍ لأن أُصاب بالذعر إذا ما صرخ في وجهي فجأةً. وما الضير في أن يفعل ذلك! ولكن في كلّ مرةٍ أسمعه يُلقي شعراً في غرفة أوفيليا في الجهة الأخرى، تجعلني نبرةُ صوته الخفيضة أرتعد، ويتملّكني خوفٌ غامض؛ فأخالني ضعيفاً وصغيراً جداً بطبقة صوتي الصبيانية الحادة المخجلة!

لم ينفعْني أنني طمأنتُ نفسي بأنه لا يعلم، ولا يمكنه أنَ يعلم إطلاقاً بأننا متحابّان، أوفيليا وأنا، وأنه يجسُ النبض ليس إلاّ، هذا الممثّل الغبي، حينما ينظرُ إليّ في الشارع بخبثٍ شديد دائماً؛ باستطاعتي أن أقول ذلك لنفسي قدر ما أشاء - إلاّ أنني لن أتخفّف من الوعي المهين الذي يقول لي: هو يسلبُ لبّك مع ذلك، وأنت تتصنّعُ الشجاعة ليس إلاّ، حينما ترغمُ نفسك أحياناً على النظر في عينيه بثبات. إنه خوفٌ جبان من نفسك أنت، كان ولا يزال، ولا شيء آخر.

غالباً ما أتمنّى لو يتنحنحُ بوقاحةٍ ثانيةً وبذلك التحدّي المستفزّ كما في السابق، كي تُتاح لي فرصة إشعال الفتنة معه؛ ولكنه لم يعدْ يفعل ذلك؛ فهو يترصّدُ ويترقّب. وأعتقدُ أنه يدّخرُ صوته الخفيض إلى أن يحين الوقت المناسب، وأنا أرتجفُ داخلياً خوفاً من أن لا أكون عندذاك على استعداد.

أوفيليا أيضاً كانتْ واقعةً في قبضته ولا حيلة لها. أنا أعرفُ ذلك. مع أننا لم نتطرّقْ إلى هذا الأمر أبداً. ليلاً، حينما نكون معاً سرّاً في

الحديقة الصغيرة أمام منزلنا عند ضفّة النهر، ونتهامسُ برقّةٍ وسعادةُ الحبّ تلفّنا، فإننا نرتعشُ فزعاً بشكلٍ مفاجئ كلما تحرّك شيءٌ ما في الجوار مُصدراً صوتاً خافتاً، وكلّ منا على يقين من أن ما يُرهِف آذاننا على هذا النحو غير الطبيعي، ليس إلاّ الخوف المتواصل من ذلك الإنسان.

لا نجرؤ حتى على النطق باسمه.

نتفادى بخوفٍ التطرّق إلى أيّ موضوعٍ قد يُفضي إلى ذلك.

إنه لمن الشؤم أن أضطرّ إلى الركض إلى ذراعيه كلّ يوم، سواء أخرجتُ من البيت متعمّداً في وقتٍ مبكرٍ أو متأخرٍ من المساء.

أخالُني عصفوراً ترسمُ حوله أفعى دوائرَ تضيقُ باستمرار.

ولكن يبدو أنه يتشمّمُ في ذلك نوعاً من الفأل؛ فهو ينغمسُ في الشعور المؤكَّد بأنه يقتربُ من غايته يوماً بعد يوم. أنا أرى ذلك في البريق الشامت في عينيه الصغيرتين الخبيثتين.

ولكن ما عساها تكون غايته هذه؟ أعتقدُ أنه هو نفسه لا يعرفها حق المعرفة، مثلما لا أستطيع أنا أن أتصوّرها. فهي لا تزالُ مشكلةً بالنسبة إليه، وهذا يطمئنني؛ ولكن لماذا يتوقّفُ في مكانه إذاً قارضاً شفته السفلية وهو غارقٌ في أفكاره، في كلّ مرة أمرُ به مسرعاً؟

كما أنه لم يعدْ يثبّت بصره عليّ أبداً؛ هو يعرفُ أنه لم يعدْ في حاجةٍ إلى ذلك؛ فقد باتتْ نفسي تحت أمرة نفسه على أي حال.



صحيح أنه لا يستطيعُ التنصّت علينا ليلاً، ولكنني ابتدعتُ، مع ذلك، خطّة توفّرُ علينا الخوف وتُريحنا منه إلى الأبد. ثمة قاربٌ قديم

أسفل الجسر المسيَّج نصفه فوق اليابسة؛ وقد أحضرتُه اليوم وربطته بالقرب من حديقتنا. وحينما يتوارى القمر وراء السحب، أنوي أن أجذّف بأوفيليا إلى الضفة الأخرى؛ ثم ندعُ التيار يدفعُنا ببطء في جولةٍ حول البلدة. والنهر أعرض من أن يرانا أحدهم، ناهيك عن أن يتعرّف إلينا!

تسلّلتُ إلى الغرفة التي تفصلُ غرفة نوم والدي عن غرفة نومي، وأخذتُ أعدُّ ضربات قلبي، وأنا أمنّي نفسي بأن برج كنيسة مريم سرعان ما سيدوّي بعشر دقّات، ومن ثم الدقّة الحادية عشرة - بصورة بليغة ومهلّلة: "الآن، الآن تنزلُ أوفيليا إلى الحديقة".

يبدو لي أن الزمن قد توقّف، وفي خضمّ نفاد صبري ولهفتي، أشرعُ بممارسة لعبة عجيبة مع قلبي، تختلطُ فيها المفاهيم عليّ تدريجياً كما في الحلْم. أقنعُه بأن يخفق بصورةٍ أسرع، كي تدور ساعة البرج أيضاً بصورةٍ أسرع. يبدو لي بديهياً أن أحدهما لا بد أن يحذو حذو الآخر. أوَليس قلبي ساعةً كذلك؟ ولماذا لا يُفترَض أن تكون أقوى وأشدّ سطوةً من تلك القابعة في البرج هناك في الخارج، والتي هي مجرد معدنٍ جامد، وليست من لحمٍ ودم حي كساعتي!

لماذا لا يُفترَض بها أن تملي توجيهاتها على الزمن وترسم خطاه.

تخطرُ في بالي فجأةً عبارةٌ تلاها لي والدي ذات مرة من قصيدة، وهي أشبه بموافقةٍ ومصادقة على أنني محقّ: "من القلب تخرجُ الأمور، مولودةٌ في القلب ومطيعةٌ للقلب-".

لقد مرّت الكلمات على أذني وقتذاك مرور الكرام، ولكنني الآن أفهمُ المغزى المخيف الكامن فيها. أفهمُها في معنىً يُفزِعني في العمق؛ فالقلب

في صدري، قلبي أنا، لا يطيعُني حينما أهتف به: اضربْ بشكلٍ أسرع!
إذاً، ففي داخلي يعيش من هو أقوى مني، ويملي عليّ الزمن وقدَري!
منه تخرجُ الأمور إذاً!

أفزعُ من نفسي. أعلمُ دفعةً واحدة وبوضوح: "لو أنني أعرفُ نفسي وأمسكُ ولو بقليلٍ من زمام قلبي، لكنتُ ساحراً ولديّ سيطرةٌ على كلّ ما يحدث".

وتتدخّلُ فكرةٌ ثانية غير مرحَّبٍ بها في حديث الأولى وتقول:
"أتتذكّر ذلك الموضع في كتابٍ قرأتَه في دار اللقطاء قبل سنوات؟ ألم يردْ فيه ما يلي: "غالباً ما تتوقّفُ الساعات، عندما يُتوفّى أحدهم"؟ إن واقع الحال كالتالي: يخلطُ المحتضر، تحت تأثير كابوس الموت، بين دقّات قلبه المتباطئ ودقّات الساعة؛ ويهمس خوفُ جسده الذي تريدُ النفس مغادرته قائلاً: "حينما تكفُ الساعة هناك عن التكتكة، أكون قد متّ"، وكما بأمرٍ سحري تتوقّفُ الساعة أيضاً حينما يقوم القلب بآخر دقّة له. إذا كان ثمة ساعةٌ معلّقة في غرفة إنسانٍ يفكّرُ فيه المحتضر، تكون هي الساعة التي تطيع بشكلٍ أعمى الكلمات الصادرة عن الخوف من الموت، إذ إن الإنسان في لحظة الموت يكون هو نفسه هناك حيث يتّجه تفكيره، مثل قرينٍ مُرسَل".

هكذا إذاً، فهو الخوف الذي يطيعُه قلبي! هو أقوى وأشدّ سطوةً حتى من القلب! وإنْ أنا أفلحتُ في إزالته، لكانت السيطرة لي على كلّ الأمور التي تخرجُ من القلب، على القدَر والزمن!

وأقاومُ محبوسَ الأنفاس خوفاً داهمني فجأةً، خوفٌ يريدُ أن يخنقني، لأنني رحتُ أتحسّسُ داخل مخبئه.

أنا أشدّ ضعفاً من أن أسيطر عليه وأتحكّم به، إذ إنني لا أدري أين وكيف أمسكُ به؛ فهو لا يعتدي عليّ، بل على قلبي، يعتصرُه كي يرغمه على تشكيل قدَري وفقاً لإرادته، لا وفقاً لإرادتي.

أحاولُ تهدئة نفسي وطمأنتها بأن أقول بيني وبين نفسي: ما دمتُ لستُ مع أوفيليا، فهي في مأمنٍ ولا خطر عليها - ولكنني أضعف من أن أتبع نصيحة عقلي: بعدم النزول إلى الحديقة اليوم. أرفضُ نصيحته في اللحظة نفسها التي أدركُها فيها. أسبرُ غور الأحابيل التي ينصبُها لي قلبي، ومع ذلك أتخبّطُ وسطها؛ فشوقي لـ أوفيليا أقوى من كلّ عقل.

أتّجهُ صوب النافذة، وأطلُ على النهر في الأسفل كي أستجمع أفكاري وأتذرّع بالشجاعة، - كي أقوى على النظر في عينيّ الخطر الذي أشعرُ الآنَ أنه قادمٌ لا محالة، لأنني أخافه، بيد أن منظر المياه الصامتة عديمة الإحساس، المنسابة بلا توقّف، يقعُ من نفسي موقعاً مخيفاً، إلى درجة أنني لم أنتبهْ على الإطلاق إلى دويّ ساعة البرج طوال برهةٍ من الزمن.

يكاد يخدّرُني الإحساس الغامض بأن "النهر يحملُ القدَر، الذي لم يعدْ بالإمكان الإفلات منه".

ثم يوقظُني الرنينُ المعدني المتذبذب، ويتبخّرُ الخوف والانقباض.



أوفيليا!

أرى ثوبها فاتح اللون يلمعُ في الحديقة.

"يا فتاي، يا فتاي الحبيب، لقد قلقتُ عليك كثيراً طوال اليوم!".

أريد أن أقول: "وأنا قلقتُ عليك، أوفيليا!"، ولكنها تعانقني وتُطبقُ شفتاها على شفتيّ.

"هل تعلم أنني أعتقدُ أننا نلتقي اليوم لآخر مرة، يا فتاي الحبيب المسكين؟!".

"أعوذ بالله! هل حدث شيءٌ ما، أوفيليا؟ هيا اصعدي إلى القارب، اصعدي بسرعة، فهناك سنكون أكثر أماناً".

"نعم، فلنذهبْ. ربما نكون هناك في مأمن - منه".

منه! إنها المرة الأولى التي تذكرُ"ه" فيها! أشعرُ من رجفان يدها بأن خوفها "منه" لا حدود له! أريدُ أن أشدّها إلى القارب، ولكنها تتوقّفُ في مكانها ممتعضةً للحظة، كما لو أنها لا تستطيعُ انتزاع نفسها من المكان.

"تعالي، تعالي، أوفيليا"، ألحُ عليها، "لا تخافي. سنكون في الحال عند الضفة الأخرى. غلالات الضباب -".

تتلعثمُ بالقول: "أنا لست خائفة، حبيبي. أنا أريدُ فقط -".

"ما بالك، أوفيليا؟". أطوّقها بذراعيّ. "ألم تعودي تحبينني، أوفيليا؟".

"أنت تعرفُ كم أحبّك، كريستيّ العزيزّ"، تقولُ ببساطة، ثم تطيلُ الصمت.

"ألا نصعدُ إلى القارب؟"، ألحُ عليها هامساً من جديد. "أنا مشتاقٌ إليك كثيراً!".

تنتزعُ نفسها من بين ذراعيّ بحذر، تتراجعُ خطوةً نحو المقعد، حيث اعتدنا الجلوس دائماً، وتداعبُه بيدها وهي غارقةٌ في التفكير.

"ما بكِ أوفيليا؟ ماذا تفعلين؟ هل تشعرين بأي ألم؟ هل آلمتُك؟".

"أريدُ فقط - أريدُ فقط أن أودّع المقعد العزيز! ألا تزال تذكر، يا قرّة عيني، يا فتاي الحبيب، فهنا تبادلنا القبل لأول مرة!".

أكادُ أصرخُ بملء صوتي: "تريدين أن تتركيني؟".

"أوفيليا، بحق ربّ السماء، هذا لا يجوز! ثمة شيءٌ قد حدث وأنت لا تخبريني به! أوَتعتقدين أنني قادرٌ على العيش من دونك؟".

"كلا، اهدأ يا حبيبي، لم يحدثْ شيء!"، تواسيني بصوتٍ خافت وتحاولُ الابتسام، ولكن، وفيما ضوء القمر يسطعُ على وجهها، أرى عينيها المغرورقتين بالدموع. "تعال، يا فتاي الحبيب، هيا فأنت محقّ، فلنصعدْ إلى القارب!". مع كلّ ضربة مجذافٍ أقومُ بها، يزدادُ صدري انشراحاً؛ وكلما اتّسعتْ صفحة المياه الواقعة بيننا وبين المنازل القاتمة ذات العيون المتّقدة المترقّبة، كنا في منأىً أكبر عن الخطر.

أخيراً تظهرُ من وسط الضباب شجيرات المراعي التي تحفّ بالضفة الأخرى المنشودة؛ وتغدو صفحة المياه ضحلةً وهادئة، ونتقدّمُ بصعوبةٍ أسفل الأغصان المتدلّية فوق المياه. أسحبُ المجاذيف وأجلسُ بجانب أوفيليا على مقعد القيادة. ويطوّقُ كلّ منا الآخر بذراعيه.

"لماذا كنتِ بذلك الحزن منذ قليل، حبيبتي؟ لماذا قلتِ إنك تريدين وداع المقعد؟ - أنت لن تتركيني أبداً، أليس كذلك؟".

"لا بد أن يحدث هذا ذات يوم، فتاي الحبيب! - والساعة تدنو شيئاً فشيئاً. - كلا، كلا، لا تحزنِ الآن. - ربما يطولُ الوقت حتى ذلك الحين. لا تفكّرْ في ذلك الآن".

"أعرفُ ما تريدين قوله، أوفيليا". تتصاعدُ الدموع إلى عينيّ وتكاد تحرقُ حلقي. "أنت تقصدين أننا لن نلتقي ثانيةً بعد أن تذهبي إلى

العاصمة وتصبحي ممثّلة! - أتعتقدين أنني لا أفكّرُ ليلاً نهاراً، وأنا أرتجفُ فزعاً، كيف سيغدو كلّ شيءٍ عندذاك! - أنا أعرفُ على وجه اليقين أنني لن أستطيع تحمّل هذا الفراق. - ولكنكِ قلتِ بنفسك إنه من غير الممكن أن ترحلي قبل سنة؟".

"صحيح، من المستبعَد جداً أن أرحل قبل سنة".

"وحتى ذلك الحين من المؤكَّد أنني تخيّلتُ شيئاً ما، وهو أن بإمكاني أن أكون معكِ في العاصمة. - سوف أواظبُ على رجاء والدي، ولن أكفَّ عن التوسّل إليه إلى أن يسمح لي بالدراسة هناك. - وحينما أكون هناك، مستقلاً ولديّ مهنة، نتزوّجُ ولا نفترقُ بعد ذلك أبداً! - هل فتُر حبّك لي، أوفيليا، بحيث لا تنطقين بأيّة كلمة؟"، سألتُها متخوّفاً.

أستشعرُ أفكارها من صمتها، وأحسُّ بوخزٍ في قلبي. إنها تفكّرُ في أنني أصغر منها سنّاً وأن كلّ هذا لا يعدو كونه أضغاث أحلام. والحق أنني، أنا أيضاً، أشعر بذلك، ولكنني لا أريدُ - لا أريدُ التفكير في أننا لا بد أن نفترق في وقتٍ ما! أريدُ أن أنتشي، أن نندفع، هي وأنا، إلى الإيمان بإمكانية حصول معجزة.

"أوفيليا، اسمعيني!".

"أرجوك، أرجوك، لا تتكلّمِ الآن!"، قالتْ متوسّلةً. "دعْني أحلم!".

هكذا نجلسُ متلاصقين ويطولُ صمتنا.

كان واقع الحال كما لو أن القارب قد تعطّل والكثبان الرملية، التي ينيرُها ضوء القمر، تنزلقُ من أمامنا. وفجأةً ترتعشُ أوفيليا كما لو أنها تستيقظُ من النوم.

أمسكُ يدها مُطَمئِناً، إذ إنني أعتقدُ أن صوتاً ما قد أفزعها.

فإذا بها تسألني: "أتعدُني بشيء، كريستيّ العزيز؟ -".

أبحثُ عن كلماتٍ تعبّرُ عن الاهتمام والرعاية، - أريدُ أن أقول لها إنني مستعدٌ لتحمّل العذاب لأجلها إن لزم الأمر.

"أتعدُني بأن - - بأن تدفنني تحت المقعد في الحديقة، حينما أموت؟".

"أوفيليا!".

"أنت وحدك، ولا أحدٌ غيرك، يحقّ لك أن تدفنني، وهناك فقط. أتسمع؟ لا يحقُ لأحدٍ أن يكون حاضراً، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يعلم أين أرقد! - أتسمع! أنا أحبُّ هذا المقعد كثيراً. - هناك سأكون على الدوام كما لو أنني أنتظرك!".

"أوفيليا، أرجوك، لا تتكلّمي هكذا! - لماذا تفكّرين الآن بالموت؟ عندما تموتين ذات يوم، سوف أرافقك! - ألا تشعرين إذاً... ؟". لا تدعُني أكملُ كلامي، بل تقاطعني قائلةً:

"كريستيّ العزيز، يا فتاي الحبيب، لا تسألني؛ عدْني بتنفيذ ما أطلبُه منك!".

"أعدُك، أوفيليا، أعدُك بالطبع، ولو أنني لا أفهمُ ماذا تقصدين بذلك".

"شكراً لك، شكراً لك، حبيبي، يا قرّة عيني! الآن أعرفُ أنك ستفي بوعدك".

تضغطُ خدّها على خدّي، وأشعرُ كيف تقطرُ دموعها على وجهي.

"أنت تبكين، أوفيليا! - ألا تريدين إذاً أن تبوحي لي بسبب تعاستكِ إلى هذا الحد؟ - ربما ضايقوكِ وعذّبوكِ في البيت! - أرجوكِ، أرجوك

أن تخبريني، أوفيليا! - حينما تكونين بهذا الصمت ولا تقولين شيئاً، لا أعودُ أعرف ما عليّ فعله من شدة الألم والشقاء!".

"نعم، حبيبي، أنت محقّ، كفاني بكاءً. - الجوّ هنا جميلٌ جداً، هدوءٌ شديد وأبّهةٌ خيالية. أنا أيضاً في منتهى السعادة لأنك معي، حبيبي!".

ونتبادلُ القبل بجنونٍ وحرارة إلى أن نغرق في غيبوبة.

أنظرُ إلى المستقبل فجأةً، وأنا مفعمٌ بتفاؤلٍ طروب. نعم، سوف يحدثُ ذلك، لا بد أن يتمّ كلّ شيءٍ كما تخيّلتُه في الليالي الهادئة.

"أتعتقدين أنك ستكونين فرحة بمهنتكِ كممثّلة؟"، أسألُها بغيرةٍ خفيّة. "هل تتصورين أنه شيءٌ جميل فعلاً أن يصفّق لكِ الناس ويرموا لكِ الورود على المسرح؟".

أجثو أمامها؛ تشبكُ يديها في حضنها وترسلُ نظرةً مفكِّرة فوق صفحة المياه.

"لم أفكرْ بعد ولا مرة واحدة، كريستيّ، كيف ستكون الأمور في الواقع. - والحق أنني أجدُه أمراً شنيعاً ومقيتاً أن أتقدّم هكذا من الناس لأمثّل لهم حالة حماسةٍ أو حالة عذابٍ نفسي مثلاً. - من المقيت أن أتصنّع كلّ هذا، ومن الفاضح أن يكون إحساسي صادقاً وحقيقياً، ثم لا ألبثُ بعد دقيقةٍ واحدة أن أنزع القناع وأتلقّى الشكر على ذلك. - أما وأنه عليّ القيام بذلك مساءً بعد مساء وفي التوقيت نفسه، - فهو أمرٌ يبدو لي كما لو أنني أبيع نفسي".

"إذاً، لا يجوزُ لكِ أن تفعلي ذلك!"، أصيحُ، وأشعرُ بالتصميم والعزيمة ينتفضان في داخلي. "غداً، في الصباح الباكر، أنوي التكلّم مع والدي. أعرفُ أنه سوف لن يتوانى عن مساعدتك، أنا على يقينٍ من

ذلك! - قطيبته وحنانه لا حدود لهما. - سوف لن يرضى ولن يحتمل أن يجبروكِ...".

"كلا، كَريستيّ، لن تفعل هذا!"، تقاطعُني بهدوءٍ وحزم. "لا أريدُك أن تفعل هذا، ليس من أجل والدتي، التي ستتحطّم بذلك كلّ مخطّطاتها المغرورة". وتضيفُ بصوتٍ منخفض وهي تشيحُ بوجهها: "- فأنا لا - لا أحبُها، ولا ذنب لي في ذلك! ... أنا أخجلُ بها - هذا سيبقى دائماً بيني وبينك... ولكنني أحبُ - أحبُ أبي الربوب. لِمَ لا أقول لك بصراحة إنه ليس أبي الحقيقي! فأنت تعلمُ ذلك، وإن لم نتطرّقْ إلى هذا الأمر يوماً. - لم يخبرْني بذلك أحد، ولكنني أعرفه؛ فقد شعرتُ به منذ أن كنت طفلة. شعوري به كان أشدّ وضوحاً من المعرفة. وهو لا يعرفُ أنني لست ابنته. ولو كان على علمٍ بذلك، لكنتُ أشدّ سعادةً. - ربما لما أحبّني عندذاك هذا الحبّ، ولما عاد يعذّبُ نفسه لأجلي حتى الموت.

آه، أنت لا تعلمُ كم مرة أوشكتُ على أن أقول له ذلك في طفولتي. ولكن ثمة جداراً هائلاً ينتصبُ بيني وبينه. وقد شيّدتْه أمّي. - بقدر ما أستطيع أن أعود بذاكرتي إلى الوراء أقولُ لك: - أكاد لم أتكلّمْ معه بضع كلماتٍ لوحدنا، لم أجلسْ في حضنه يوماً كما تجلسُ الفتاة الصغيرة في حضنِ أبيها، لم يُسمَحْ لي بأن أقبّله يوماً. لطالما قيل لي: "لا تلمسيه، سوف تلوّثين نفسك!".

كان عليّ أن أكون الأميرة المتألّقة باستمرار، بينما كان هو العبد الوضيع الملوَّث. - إنها لمعجزة أن هذه البذرة السامة الشنيعة لم تضربْ جذورها في قلبي.

أشكرُ الله على أنه لم يأذنْ بذلك!...

في بعض الأحيان أعودُ وأفكّرُ من جديد: لو أنني صرتُ في الواقع مثل هذا المخلوق الدميم المتعجرف وعديم الإحساس، لما مزّقتني شفقتي التي لا توصف، وأنا ناقمةٌ على القدَر لأنه حماني من ذلك.

غالباً ما أغصُّ بكلّ لقمة، عندما أفكّرُ في أنه يُدمي يديه في العمل ليؤمّنها لي. بالأمس فقط انتفضتُ واقفةً أثناء تناول الطعام وهرعتُ إليه في الأسفل. -

كنتُ من الحميّة إلى حدٍ اعتقدتُ معه أنني سأتمكّن هذه المرة من أن أقول له كلّ شيء، كلّ شيء. أردتُ أن أطلب إليه: اطردْنا نحن الاثنتين ككلبين غريبين، أمّي وأنا؛ فنحن لا نستحقُ أقلّ من ذلك؛ واخنقْ "ذلك المبتزّ الحقير الفظيع، الذي يُحتمَل أنه أبي الحقيقي! اقتلْه ضرباً بيديك، بيديّ الحرَفيّ القويتين المخلصتين والوفيتين!" أردتُ أن أصيح به: اكرهْني كما لم يكرهْ إنسان، كي أتحرّر أخيراً من هذه الشفقة الحارقة.

آلاف المرات تضرّعتُ إلى الله: ربّي في السماء، أدخلِ الكراهية إلى قلبه! - ولكنني أعتقدُ أن النهر قد يجري صعوداً، ولا يغدو هذا القلبُ قادراً على الكراهية...

المهمّ أنني أمسكتُ بأكرة باب الورشة، وتطلّعتُ إلى الداخل من خلال النافذة مرةً أخرى. كان واقفاً عند الطاولة ويكتبُ اسمي عليها بالطبشور. وهي الكلمة الوحيدة التي يجيدُ كتابتها.

فإذا بشجاعتي تخذلُني ... وإلى الأبد. أنا أعرفُ كيف كان للأمور أن تسير فيما لو تقدّمتُ إليه! إما أنه كان سيتلعثم، من دون أن يستمع إلى ما سأقوله، ويقول: "بنيّتي الآنسة أوفيليا!"، كما اعتاد القول كلما رآني، أو كان سيفهمني و - و - يُجنّ جنونه.

أترى، حبيبي، لهذا السبب لا يجوز لك أن تساعدني! أعليّ أن أحطّم الشيء الوحيد الذي يعقدُ أمله عليه؟ أعليّ أن أكون السبب في انهياره وفقدانه صوابه بشكلٍ كامل؟ كلا، ليس أمامي سوى شيءٍ واحد: أن أصير ما يُجهدُ نفسه ليلاً نهاراً من أجله: نجمةً ساطعة في نظره - وعاهرةً ذهنياً في نظري بالطبع.

لا تبك، يا فتاي الحبيب الطيب! لا تبك، أرجوك! هل سبّبتُ لك ألماً؟ هيا، عدْ إلى طبيعتك! هل كنتَ لتحبّني أكثر، لو أنني فكّرتُ بشكلٍ آخر؟ لقد أفزعتُك، كريستيّ المسكين، أعرفُ ذلك. ولكن انظرْ، ربما ليس كلّ شيء بالسوء الذي صوّرتُه! ربما أنا شديدة العاطفية وأرى كلّ شيءٍ مضخّماً ومشوّهاً. إذا رتّل المرء طوال اليوم "أوفيليا" هذه، فإن ذلك يتركُ في نفسه أثراً ما. وهذا هو الأمر المشين في فنّ التمثيل البائس هذا، حيث تمرَضُ النفسُ من ذلك.

انظرْ، ربما تحدثُ معجزةٌ كبيرة وجميلة، وأفشلُ في العاصمة فشلاً ذريعاً، وعندذاك يغدو كلّ شيءٍ على ما يرام دفعةً واحدة، كلّ شيء".

ضحكتْ من أعماقها بصوتٍ عالٍ، وراحتْ تقبّلُ دموعي، ولكنها كانتْ تتظاهرُ فقط بأنها تريدُ مواساتي، وقد كان إحساسي بذلك أشدّ من أن أستطيع مشاركتها سرورها وابتهاجها.

ثمة إحساسٌ يتداخلُ في ألمي العميق عليها ويكادُ يحطّمني. فأنا أدركُ بوجعٍ شديد أنها ليست فقط أكبر مني بسنوات، - كلا، بل أنا طفلٌ أمامها.

منذ أن تعارفنا وتحاببنا، وهي تخفي عني طوال الوقت حزنها وكلّ عذابها. وأنا؟ أنا كنت أنفّسُ لها في كلّ فرصةٍ عن همومي الصبيانية الصغيرة.

يُخيَّلُ إليّ أن المعرفة الغاشمة بأن نفْسَها أيضاً أكبر سناً وأشدّ نضجاً من نفْسي، هي أشبه بمنشارٍ يقصُ خفيةً جذور كلّ آمالي وأحلامي. لا بد أنها تشعرُ بشيءٍ مشابه، إذ على الرغم من أنها كانتْ تقبّلني بهذه الحرارة والحنان وتضمّني إليها المرة تلو الأخرى، إلاّ أن مداعباتها وملاطفاتها كانتْ تبدو لي مداعبات وملاطفات أمٍّ لابنها.

أصرّحُ لها بكلّ ما أستطيعُ ابتداعه من محبةٍ وصدقٍ وإخلاص، بيد أن الأفكار تتلاحقُ في دماغي وتتّخذُ أشدّ الأشكال مغامرةً: "يجب عليّ أن أفعل شيئاً ما! وحدها الأفعال قد تجعلني نداً لها. ولكن كيف يمكنني أن أساعدها؟ كيف يمكنني إنقاذها؟".

أشعرُ أن ظلاً أسود رهيباً يتصاعدُ في داخلي، أن شيئاً ما غير محدّد الشكل يمتدُ إلى قلبي؛ أسمعُ وشوشةً في أذني أشبه بمائة صوتٍ تتهامس: أبوها الربوب، معلّم الخراطة المعتوه، هو العائق! حطّمْه! اقتلْه! من سيرى ذلك؟ جبان، لِمَ أنت خائف؟

تتركُ أوفيليا يديّ. تقشعرُ من البرد. أرى أنها ترتجف. هل قرأتْ ما يدور في خاطري؟ أنتظرُ أن تقول شيئاً، أيّ شيءٍ يعطيني إشارةً خفيّة إلى ما عليّ فعله. كلّ شيءٍ فيّ ينتظر: دماغي، قلبي، دمي؛ حتى الهمس في أذني يصمتُ وينتظر. ينتظرُ منصتاً بثقةٍ شيطانية بالنصر.

فإذا بها تقول - وأسمعُ كيف تصطكُ أسنانها من البرد الداخلي - والحق أنها تتمتمُ أكثر من أن تنطق وتفصح: "ربما يشفقُ عليه - عزرائيل!".

الظلّ الأسود في داخلي يغدو فجأةً لهباً أبيض فظيعاً يملؤني من رأسي حتى أخمص قدميّ: أنتفضُ واقفاً وأمسكُ بالمجاذيف؛ فتأخذُ

سرعة القارب بالازدياد أكثر فأكثر، كما لو أنه لم يكنّ ينتظر سوى هذه الإشارة، ونندفعُ وسط التيّار باتجاه ضفة صفّ الخبّازين. وتبرقُ العيون المتّقدة للمنازل من جديد وسط الظلمة. يحملنا النهر بسرعةٍ جارفة نحو السدّ، حيث يتركُ البلدة.

أجذّفُ بكلّ قواي في عرض النهر باتجاه منزلنا.

زبدٌ أبيض يُرغي على امتداد ألواح القارب السميكة.

كلّ ضربة مجذافٍ أقومُ بها تزيدُ من تصميمي وعزيمتي! الجلدُ المثبّت للمجاذيف يصرصر بالقول: قتّل، قتّل، قتّل.

ثم أمسكُ بقائمةٍ خشبية عند الرصيف وأرفعُ أوفيليا. هي بين يديّ بخفّة الريشة. أحسُّ وكأن فرحاً حيوانياً جامحاً يجتاحني، لأنني أصبحتُ فجأةً رجلاً بالجسد والنفس، وأحملُ أوفيليا وأنا أجري بسرعة مروراً في ضوء الفوانيس، وصولاً إلى عتمة الممرّ.

نطيلُ الوقوف هناك ونتبادلُ القبل بشغفٍ جنوني وولعٍ مستعر. هي الآن حبيبتي مجدداً، ولم تعدْ أمّي الحنون. ثمة جلبةٌ خلفنا! إلاّ أنني أستخفُّ بها: بِمَ تهمّني! ثم تتوارى أوفيليا في ردهة المنزل.

❖❖❖

ثمة ضوءٌ لا يزالُ في ورشة معلّم الخراطة. إنارةٌ شاحبة يشفُّ عنها زجاج النوافذ المتّسخ. والمخرطة لا تزال تطنّ. أضعُ يدي على أكرة الباب وأضغطها إلى الأسفل بحذر. وفيما أنا أغلقُ الباب بخفّة ثانيةً، يلمعُ شريطٌ ضوئي ضعيف ثم يختفي. أسترقُ الخطى نحو النافذة كي أستطلع أين هو الرجل المسنّ.

ها هو منحنٍ فوق المخرطة، ويمسكُ بيده قطعةً حديدية لامعة، وتتطايرُ من بين أصابعه نشارة خشبٍ بيضاء رقيقة كالورق، ثم تهبطُ

بعيداً عنه في شبه الظلام الذي يسودُ الغرفة متكدّسةً كأفاعٍ ميتة حول التابوت. تسري في ركبتيّ رعشةٌ مخيفة فجأةً.

أسمعُ كيف يبدأ نفَسي يصفّر. أضطرُ إلى الاتّكاء بكتفي على الجدار كي لا أسقط إلى الأمام محطّماً زجاج النافذة.

يدوّي في صدري صوت عويلٍ بالقول: "أعليّ أن أصبح قاتلاً حقاً؟! أعليّ أن أقتل الرجل المسنّ المسكين غدراً، وهو الذي أفنى نفسه واستنزف قواه طوال حياته، وهو مفعمٌ بالمحبة كمسيحٍ مخلّص، في سبيل أوفيلياه، في سبيل أوفيلياي؟". فإذا بالمخرَطة تتوقّفُ فجأةً، ويسكتُ الأزيز. وينهشُني صمتٌ مطبق مباغت. ينتصبُ الخرّاط، ويبدو أنه يسترقُ السمع مديراً رأسه قليلاً نحو الجانب، ثم يضعُ الإزميل جانباً، ويتّجه نحو النافذة متّئد الخطى. يقتربُ أكثر فأكثر. يصوّبُ عينيه على عينيّ بثبات.

أعرفُ أنه لا يمكن أن يراني، إذ إنني أقفُ في الظلمة وهو يقفُ في النور؛ ولكن حتى لو عرفتُ أنه يراني، لما كان في مقدوري أن ألوذ بالفرار، إذ إن قواي قد خذلتْني تماماً.

إذاً، فقد وصل ببطءٍ إلى النافذة مباشرةً وهو يحدّقُ في العتمة. لا تفصلُ بين عيوننا سوى مسافةٍ لا تتجاوز عرض الكف، وباستطاعتي تبيّن كلّ تجعيدةٍ وتغضّن في وجهه الذي يعلوه تعبيرُ التعب اللامحدود؛ ثم يفركُ جبينه بيده ببطء، وينظرُ إلى أصابعه نظرة دهشةٍ وتفكير، كمن يبصرُ عليها دماً ولا يعرف من أين جاء.

يظهرُ في ملامحه فجأةً بريقٌ خفيف من الأمل والفرح، ويحني رأسه صابراً مستسلماً كشهيدٍ ينتظرُ ضربة الموت. أنا أفهم ما تقوله لي روحُه

هنا! ودماغه المتبلّد يجهلُ لماذا تركَه يفعل كلّ هذا. وجسده ليس سوى إيماءةٍ أو حركةٍ من حركات نفسه، التي تهمسُ هنا: "خلّصْني من أجل ابنتي العزيزة!".

أنا أعرفُ الآن أنه لا بد مما ليس منه بد! لا بد أن يتمّ الأمر! فالموت الرحيم نفسه سوف يقودُ يدي ويوجّهُها! أيجوزُ لي إذاً أن أتخلّف عنه في حبّ أوفيليا؟ الآن فقط أشعرُ في أعماق نفسي بما تضطرُ أوفيليا إلى مكابدته يومياً في ظلّ حرقة القلب والوجع المضني من الإشفاق عليه، على من هو أشدّ البؤساء مدعاةً للشفقة؛ فينهشُني أنا نفسي اعتقادي بأنني أحترق في قميص نيسوس...

كيف سأتمكّنُ من إنجاز الأمر؟ أنا عاجزٌ عن تخيّل ذلك. هل ينبغي لي أن أحطّم جمجمته بقطعة الحديد الموجودة هناك؟

هل ينبغي لي أن أنظر في عينيه الكسيرتين؟

هل ينبغي لي أن أجرّ جثّته في الممرّ لأرميها في المياه؟ وبالتالي ألوّث يديّ بالدم مدى الحياة؟ هل يُفترَض بي معانقة أو تقبيل أوفيليا ثانيةً في أيّ وقت؟

هل يُفترَض بي أنا، القاتل، أن أنظر يومياً في الوجه الطيب لوالدي العزيز!

كلا! أشعرُ أنني غير قادر على *هذا* أبداً. أعرفُ أن الأمر الفظيع يجب أن يحدث، وأنني سوف أنفّذه؛ بيد أنني سوف أغرقُ مع جثّة القتيل في النهر.

أستجمعُ قواي وأتسلّلُ نحو الباب ثانيةً، وقبل أن أمسك بأكرة الباب أتوقّف، أقبضُ يديّ وأريد أن أصرخ في قلبي متوسّلاً: "ربّي، يا أرحم الراحمين، أعطِني القوّة!".

ولكن شفتيّ لا تتضرّعان بهذه الكلمات. ومن غير أن يستطيع عقلي أن يعطيهما أمراً آخر تهمسان:

"ربّاه، أرجو ألاّ تسقيني من هذه الكأس، إن أمكن!".

فإذا بصوتٍ معدني يمزّقُ الصمت المطبق وينتزعُ الكلمات من فمي. يهتزّ الهواء وترتجفُ الأرض؛ فقد زمجرتْ ساعة برج كنيسة مريم. أشعرُ كما لو أن الظلمة في داخلي وفي الحياة من حولي قد أصبحتْ بيضاء. وأسمعُ صوتَ الدومينيكاني الأبيض، وكأنه قادمٌ من البعيد البعيد، من الجبل الذي أعرفه من أحلامي، صوتَ الذي كرّسني وغفر لي ذنوبي - الماضية والمستقبلية -، ينادي باسمي: كريستوفر! كريستوفر!



جثمتْ يدٌ بكلّ ثقلها على كتفي.

"سفّاح!".

أعرفُ - إنه الصوت الخفيض الجهوري للممثّل باريس، الذي يدوّي في أذني هادئاً ومكظوماً، وملؤه التهديد والوعيد، ولكنني لا أدافعُ عن نفسي. أتركُه يجرّني مسلوبَ الإرادة نحو ضوء الفانوس.

"سفّاح!".

أرى كيف تُرغي وتُزبد شفتاه؛ أنفُ السكّير المتضخّم، الوجنتان الرخوتان المتهدّلتان، الذقنُ المبلّلة باللعاب اللامع، كلُ شيءٍ فيه يتوثّبُ ظفراً وسروراً بالغاً.

"سفّ - ا - ح!".

أمسكني بصدري وأخذ يهزُّني مع كلّ مقطعٍ يخرجُ من فمه، كصرّةٍ من الملابس الفارغة. لا يخطرُ لي أن أقاومه أو حتى أن أفلت منه وألوذ بالفرار؛ فقد أمسيتُ ضعيفاً كحيوانٍ صغيرٍ خائر القوى.

يلوحُ لي أنه يفسّرُ وضعي بأنه شعورٌ بالإثم، - ولكن كيف لي أن أكون قادراً على التفوّه بكلمةٍ واحدة! لساني مشلول. حتى لو أردت، هيهات أن أستطيع أن أصف له الصدمة التي عانيتُ منها. - أنا أرى وأسمع كلّ شيء - ما يصرخُ به في وجهي، ثم ما ينبحُ به من جديد في أذني بصوتٍ خافت كمجنون، والزبد حول فمه، هازّاً قبضتيه أمام وجهي -، أرى وأسمعُ كلّ شيء، إلاّ أن شيئاً لا يحرّكُني أو يؤثّرُ فيّ؛ فأنا جامدٌ، منوَّم. أفهمُ أنه يعرفُ كلّ شيء، - أنه رآنا كيف نزلنا من القارب، - كيف تبادلنا القبل، - أنه خمّن أنني أريدُ قتْل الرجل المسنّ - "كي أسلبُه ماله"، ورغم صراخه في وجهي. لا أدافعُ عن نفسي؛ ولا أشعرُ بالخوف إطلاقاً من كونه على علمٍ بسرّنا. كنتُ أشبه بعصفورٍ نسي الخوف وهو بين أنياب أفعى. -

7

الكتاب الأحمر

الحمّى تطرقُ في صدغيّ. العالم الداخلي والعالم الخارجي يتاخمُ أحدهما الآخر كالبحر والهواء.

أندفعُ، لا حيلة لي، مع موجات دمي الانقضاضية، مدفوعاً تارةً إلى منخفضاتٍ عميقة تملؤُها ظلمة فقدان الوعي، ومحلّقاً تارةً أخرى في نورٍ مبهر، مقذوفاً صوب شمسٍ متوهّجة تلفحُ حواسي.

ثمة يدٌ تمسكُ يدي؛ وحينما تنأى عنها نظرتي، وقد تعبتُ من عدّ الغرزات الدقيقة الكثيرة في سوار القميص الذي تبرز منه تلك اليد، لتصعد ببطءٍ على امتداد الكمّ، يمرُ في دماغي بشكلٍ ضبابي مبهم: إنه والدي، ذاك الذي يجلس أمام سريري.

أم أنه مجرد حلم؟

لم أعدْ قادراً على التمييز بين حالة اليقظة وحالة الوهم، ولكن كلما شعرتُ أن عينيه تستقرّان عليّ، أضطرُ إلى إطباق جفوني في حالةٍ من الإحساس المعذّب بالإثم.

كيف حصل كلّ شيء؟ - لم أعدْ قادراً على التذكّر؛ فقد تمزّقتْ خيوط ذاكرتي في الوقت الذي كان فيه الممثّل يصرخ في وجهي، وهذا آخر ما أذكره.

أنا على يقينٍ من أمرٍ واحد فقط: في وقتٍ ما، وفي مكانٍ ما على ضوء مصباح، حرّرتُ بناءً على أمره سند دينٍ وذيّلتُه بإمضاء والدي المزوّر. - كان الخطّ مشابهاً لخطّه إلى حد أنني عندما حدّقتُ به، قبل أن يطوي الممثّل الورقة ويدسّها في جيبه، اعتقدتُ للحظةٍ أن والدي هو الذي ملأها ووقّعها بيده هو.

لماذا فعلتُ ذلك؟ - حتى في الوقت الحالي، حيث تنهشُني ذكرى الفعلة المقترفة، يبدو لي أنه أمرٌ بديهي جداً انعدام أيّ رغبةٍ لديّ في محوه من صفحة الوجود. تُرى هل مضى على ذلك يومٌ واحد أم عمرٌ كامل؟

إنما يبدو لي وكأن غضب الممثّل قد انصبّ عليّ مدة سنةٍ كاملة من حياتي بلا انقطاع. ثم أدركَ أخيراً، من انعدام مقاومتي بالطبع، أنه لا جدوى من استمرار حنقه وثورانه، إذ لا بد أنه أقنعني بشكلٍ أو بآخر أنني قادرٌ على إنقاذ أوفيليا عن طريق توقيعٍ مزوَّر.

بارقة النور الوحيدة الآن في ما أعانيه من عذاب الحمّى، هي أنني أعرفُ على وجه اليقين أن ما سيخلّصني من شبهة القتْل العمد هو أنني لم أقترفْه.

لقد نسيتُ تماماً كيف ومتى وصلتُ إلى البيت وقتذاك، وهل كان الوقت صباحاً أم كان ليلاً.

تمرُّ في ذهني ذكرى شاحبة مفادها أنني جلستُ عند قبر، باكياً يائساً، وأكادُ أجزمُ أنه كان قبر أمّي، وقد استنتجتُ ذلك من رائحة الورود التي تفوح من حولي ثانيةً وأنا أفكّرُ في ذلك. أم أن مصدرها باقة الورد القابعة هناك على غطاء سريري؟ من عساه قد وضعها؟

"أعوذ بالله، لا بد أن أذهب لإطفاء الفوانيس"، مرّ هذا في ذهني فجأةً وسرى في سائر أعصابي كجلدة سوط. "ألسنا إذاً في رابعة النهار؟!".

أريدُ النهوض بسرعة، ولكنني أضعف من أن أستطيع تحريك أيّ طرفٍ من أطرافي. وأرتخي في سريري ثانيةً.

"كلا، لا يزالُ الوقت ليلاً"، أعزّي نفسي، إذ لم أعدْ أرى أمامي فجأةً سوى الظلمة الدامسة مجدداً.

ولكن بعد ذلك مباشرةً أرى الضوء من جديد، وأشعة الشمس تداعبُ الجدار الأبيض؛ فيداهمُني مرةً أخرى إحساسُ التقصير في أداء الواجب. أقولُ لنفسي إنها موجة الحمّى التي تُعيدُني إلى بحر الخيال؛ ولكنني أعزل، لا حول لي ولا قوة أمام تصفيقٍ إيقاعي معروف لي منذ القدم، وكأنه يتصاعد من عالم الأحلام، ليطرق مسامعي بوضوحٍ متزايد وبصوتٍ يشتدّ علوّاً باستمرار. وعلى إيقاعه الحثيث المتسارع يتناوبُ في الوقت نفسه الليلُ والنهار، النهارُ والليل على نحوٍ أسرع وأسرع ومن غير طورٍ انتقالي، وأضطرُ إلى الجري والجَري كي أصل في الوقت المناسب لإشعال الفوانيس وإطفائها، إشعالها، إطفائها...

الوقت يطاردُ قلبي بسرعةٍ جنونية ويريدُ الإمساك به، ولكن قلبي يسبقُه بدقّاته خطوةً واحدة باستمرار. أشعرُ أنني "الآن، الآن سوف أغرقُ في رغوة الدم؛ فهو ينهمرُ من جرحٍ في رأس معلّم الخراطة موتشلكناوس ويتدّفقُ من بين أصابعه كسيل، فيما هو يمدّ يده إليه. سوف أموتُ غرقاً فيه في الحال! وفي آخر لحظة أمسكُ بقائمة خشبية منصوبة عند الرصيف وأتشبّثُ بها، أعضُ على أسناني ببقيةٍ باقية من

وعيٍ مُدبِر: "اضبطْ لسانك؛ وإلاّ باحَ في حالةٍ من هذيان الحمّى بأنك زوّرتَ توقيع والدك".

❖❖❖

أشعرُ فجأةً أنني أشدّ يقظةً نهاراً من أيّ وقتٍ مضى، وأشدّ حيويةً في الحلم من أيّ وقتٍ مضى. أذني مرهفةٌ إلى حد أنني أسمعُ أخفت الأصوات، قريبةً كانت أم بعيدة.

ها هي العصافير تزقزقُ بعيداً جداً في أعالي الأشجار في الطرف الآخر، عند ضفة النهر الأخرى، ها أنا أسمعُ كذلك صوت المصلّين بوضوح، وهم يدمدمون في كنيسة مريم.

تُرى هل هو يوم أحد؟

عجباً، كيف لا يمكن لنغمات الأرغن المدوّية عادةً أن تبتلع الهمس على المقاعد؟! عجباً، كيف لا يمكن للأصوات العالية أن تمسّ الأصوات الخافتة؟! أيّ أبوابٍ تُصفَقُ هنا في المنزل إذاً؟ كنتُ أعتقدُ أن الغرف هناك في الأسفل لا تحتوي سوى كراكيب قديمة مغبرّة. هل هم أسلافنا وقد دبّتْ فيهم الحياة فجأةً؟ أقرّرُ النزول إلى الأسفل؛ فأنا نشيطٌ وفي تمام الصحة والعافية، لِمَ لا أقوم بذلك؟ وسرعان ما يخطرُ لي أنني لا بد أن أصطحب جسدي، ومن غير المقبول أن أقوم بزيارة أسلافي في وضح النهار، وأنا في قميص النوم!

فإذا بطرقٍ على الباب؛ يذهبُ والدي ويفتحُه مواربةً ويقولُ من خلال فرجة الباب بإجلال: كلا، جدّي، لم يحنِ الوقت بعد. كما تعرف، لا يجوزُ لكم أن تأتوا إليه إلاّ بعد مماتي.

يتكرّرُ هذا الأمر تسع مراتٍ إجمالاً. وعندما يحدثُ للمرة العاشرة أعرفُ أن الجدّ الأول يقفُ خارجاً هذه المرة. والحق أن ظنّي لم يخبْ،

هذا ما يتبيّن لي من الانحناءة الشديدة المفعمة بالتهيّب، التي يقومُ بها والدي، حينما يفتحُ الباب على مصراعيه. هو نفسه يخرجُ، وأسمعُ من الخطوات البطيئة المتثاقلة التي يتداخلُ معها وقعُ عصا: أن أحدهم يتقدّمُ من سريري.

لا أستطيع أن أراه، فقد أغمضتُ عينيّ. ثمة إحساسٌ داخلي يقولُ لي إنني لا يجوزُ أن أفتحهما. بيد أنني أرى غرفتي وكلّ الأشياء التي فيها بوضوحٍ تام من خلال جفوني، كما لو أنني أنظرُ من خلال زجاج. ها هو جدّي الأول يزيحُ عني غطاء سريري ويضعُ يده اليمنى، وإبهامها منفرجٌ كمنقلة، على عنقي.

"هذا هو الطابق"، يقول بصوتٍ رتيب، على غرار رجل دينٍ يردّدُ ابتهالاً، "الذي تُوفّي فيه جدّك وينتظرُ القيامة. جسد الإنسان هو البيت الذي يسكنُه أسلافه الأموات. في بيت بعض الناس، في جسد بعض الناس يستيقظُ الأموات، قبل أن يحين وقت قيامتهم، إلى حياةٍ شبحيةٍ قصيرة؛ وفي هذه الحالة تتهامسُ اللغة الشعبية عن "شبح"، تتكلّمُ عن "شخص مسكون"".

يكرّرُ وضعية اليد مع الإبهام والراحة على صدري:

"وهنا يرقدُ والد جدّك في تابوته".

ويتكرّرُ الأمر على هذا النحو نزولاً على الجسد بكامله، مروراً بحفرة الشرسوف والورك والفخذ والركبة، وصولاً إلى أخمص القدمين.

وعندما يضعُ يديه عليهما يقول: "وهنا أسكنُ أنا! إذ إن القدمين هما الأساس الذي يقومُ عليه البيت؛ هما الجذرُ الذي يربطُ جسدك كإنسانٍ بالأمّ الأرض، وهكذا تتجوّل. هذا هو اليوم الذي يعقبُ انقلابك الشمسي. إنه اليوم الذي يبدأ فيه الأمواتُ بالقيامة في داخلك. وأنا أوّلهم".

أسمعُه كيف يجلسُ أمام سريري، وأخمّنُ من حفيف أوراق كتاب، يقلّبها بين الفينة والأخرى، أنه يتلو لي من تاريخ العائلة، الذي طالما ذكره والدي. وبنبرة ابتهالٍ يخدّرُ جواسي الظاهرية، - بينما يهيّجُ حواسي الداخلية ويثيرُها إلى حالةٍ من اليقظة المتزايدة باستمرار، تكاد تكون غير محتمَلة أحياناً، وينفذُ إلى داخلي ما يلي:

"أنت الثاني عشر، وأنا كنتُ الأول. مع "واحد" يبدأ العدّ ويتوقّفُ مع "اثني عشر". هذا هو سرّ صيرورة الله إنساناً. يُفترَض بك أن تغدو قمّة الشجرة، التي تتطلّعُ إلى النور الحيّ؛ أنا الجذر الذي يرسلُ قوى الظلام إلى النور. ولكن أنت أنا وأنا أنت، حينما يكتملُ نموّ الشجرة.

البيلسان هو الشجرة التي تُسمّى في الفردوس شجرة الحياة. إلى اليوم لا تزال تسري بين الناس الأسطورة القائلة إنها تتمتّع بقوىً سحرية. اقطعْ أغصانها، أعلاها، جذورها، اغرسْها في الأرض بالمقلوب، وانظرْ: ما كان قمّةً يغدو جذراً، وما كان جذراً يُبرعم قمّةً - بهذه الحميمية يتغلغلُ في كلّ خليةٍ من خلاياها تضافرُ الـ "أنا" والـ "أنت" ووحدتُهما.

لذلك وضعتُها كرمزٍ في شعار سلالتنا! لذلك تنمو كمَعْلَمٍ على سطح منزلنا! هنا على الأرض هي مجرد رمز، ولكنها في عالم الخلود واللاتفسّخ تُدعى الأولى من بين الأشجار كافة.

أثناء تجوالاتك هنا وفي الجانب الآخر، شعرتَ في بعض الأحيان أنك مسنّ، - وهذا كنتُ أنا، الأساس، الجذر، الجدّ الأول الذي شعرتَ به في داخلك.

كلانا نُدعى كريستوفر، فأنا وأنت واحد. - أنا كنتُ لقيطاً مثلك؛ بيد أنني وجدتُ الأب الكبير والأمّ الكبيرة أثناء تجوالاتي، ولم أعدْ أجدُ

الأب الصغير والأمّ الصغيرة: أما أنت فقد وجدتَ الأب الصغير والأم الصغيرة، ولكنك لم تجدْ بعد الأب الكبير والأمّ الكبيرة! لذلك أنا البداية وأنت النهاية؛ وعندما يتغلغلُ أحدنا في الآخر، - تنغلقُ حلقة الأبدية بالنسبة إلى سلالتنا.

ليلة انقلابك الشمسي هي يوم قيامتي. حينما تُمسي مسنّاً - أصبحُ أنا فتياً، كلما اشتدّ فقرُك، ازداد غناي... إذا فتحتَ عينيك، توجّب عليّ إغماض عينيّ، وإذا أغمضتَ عينيك، أُبصر أنا؛ - هكذا كانت الحال حتى الآن. كنا نتواجه كاليقظة والنوم، كالحياة والموت، ولم يكنْ في مقدورنا أن نتلاقى إلاّ على جسر الحلْم.

قريباً سوف تتغيّرُ الحال؛ ويبدأ الزمان! زمان فقرك، وزمان غناي. ليلة الانقلاب الشمسي كانت الحدّ الفاصل. من هو غير ناضجٍ يضيّعُها في النوم؛ أو يتوهُ في الظلام؛ ولا بد أن يرقد فيه الجدُ الأعلى في القبر حتى يوم القيامة الكبير. الأولون هم المتجاسرون الذين لا يؤمنون إلاّ بجسدهم - ويقترفون الآثام في سبيل المنفعة -، هم الوضيعون الذين يحتقرون شجرة نسبهم؛ - والآخرون هم الأشدّ جبناً من أن يقترفوا إثماً، في سبيل الفوز بارتياح الضمير.

أما أنت فمن دمٍ نبيل، وأردتَ أن تصبح قاتلاً من أجل الحبّ. يجب أن يكون الذنب والفضيلة الشيء نفسه، وإلاّ ظلّ الاثنان عبئاً؛ والمثقَل بالعبء لا يمكن أن يكون باروناً أبداً.

المعلّم الذي يسمّونه الدومينيكاني الأبيض، غفرَ لك جميع آثامك، حتى المستقبلية منها، إذ إنه يعرفُ كيف سيحدثُ كلّ شيء؛ - ولكنك ظننتَ أن بيدك أن تقترف فعلةً ما أو تُحجِم عنها. - هو منذ القدم براءً

من الذنب أو الفضيلة، ومن هنا هو براءٌ من كلّ وهم. من لا يزال يظنّ، مثلي ومثلك، هو فقط من يحملُ هذا العبء أو ذاك. ولن نتحرّر من ذلك إلاّ بالطريقة التي أخبرتُك بها. إنه القمّة العظيمة القادمة من الأصل: - من الجذر العظيم.

هو البستان، وأنت وأنا وأمثالنا الأشجارُ التي تنمو فيه. هو الجوّال الكبير ونحن الجوّالون الصغار. هو ينزلُ من الأبدية إلى اللانهائية؛ ونحن نصعد من اللانهائية إلى الأبدية. مَن تجاوز الحدّ الفاصل، أصبح حلقةً في سلسلة، - سلسلة مؤلّفة من أيدٍ غير مرئية لا تعود تتركُ إحداها الأخرى حتى نهاية الأيام؛ فهو ينتمي منذ تلك اللحظة إلى جماعة، كلّ فردٍ فيها لديه رسالةٌ محدَّدة تخصُه وحده. -

ليس فيها اثنان متماثلان، على غرار الحال بين حيوانات الأرض البشرية، حيث ما من اثنين لهما القدَر نفسه.

روحُ هذه الجماعة تتغلغلُ في أرضنا بكاملها؛ فهي موجودةٌ في كلّ زمانٍ ومكان، هي روح الحياة في شجرة البيلسان الكبيرة. منها نبتتْ أديانٌ كلّ الأزمنة والشعوب؛ وهذه الأخيرة تتغيّرُ وتتحوّل، أما هي فلا تتغيّرُ ولا تتحوّلُ أبداً.

من أصبحَ قمّةً وينطوي على الجذر "الأصل" بوعي، ينضمُ بوعيٍ إلى هذه الجماعة عن طريق عيْش السرّ الذي يُسمّى: "الذوبان مع الجثّة والسيف".

آلافٌ مؤلّفة في الصين القديمة ظفروا بهذه الحدثية فيما مضى، إنما لم تصلْ إلى زمننا سوى قلّة قليلة من التقارير والروايات. اسمعْ ما يُقال عن هؤلاء: ثمة تحوّلاتٌ معيّنة تُسمّى شي- كْياي، وهذا هو ذوبان الجثّة، وتحوّلات أخرى تُسمّى كْيو- كْياي، وهذا هو ذوبان السيف. إن

ذوبان الجثّة هو الحالة التي تغدو فيها هيئة المتوفّى غير مرئيةٍ، ويبلغ هذا الأخير نفسه مرتبة خالد.

في بعض الحالات لا يفقدُ الجسد سوى الثقل أو يحتفظ بمظهر الحيّ. أما في ذوبان السيف، فيتخلّف في التابوت سيفٌ بدلاً من الجثّة. وهذه هي الأسلحة المأمونة المخصَّصة للكفاح الكبير الأخير.

كلا الذوبانين فنٌ ينقلُه الرجال المتقدّمون في الطريق إلى التلاميذ المميّزين. يقولُ الموروث في الكتاب الأعلى للسيف: في طريقة ذوبان الجثّة يحدثُ أن يُتوفّى المرء ثم يعودُ إلى الحياة. يحدث أن يُقطَع الرأس ثم يظهرُ من إحدى الخاصرتين. يحدثُ أن تكون الهيئة موجودة، ولكن العظام مفقودة.

الأعلى من بين الذائبين يستقبلون، ولكنهم لا يتصرّفون؛ والباقون يذوبون مع الجثّة في رابعة النهار. ويصلون إلى حدٍ يصبحون معه خالدين محلّقين. ويمكنهم أن ينزلوا إلى التربة اليابسة في وضح النهار حينما يشاؤون. واحدٌ من هؤلاء كان من السكّان المحلّيين لـ هونيان ويُدعى تونغ- تشونغ- كِيو. وكان في شبابه يمارسُ تنشّق الهواء الروحي، وبذلك طهّر شكله. وقد لُفِّقَتْ له التهم ظلماً وقُيِّدَ في السجن. وذاب فيما بعد مع الجثّة واختفى.

ليو- بينغ- هُوَ لا اسم له ولا اسم له في صباه. مع نهاية عصر هان كان ليو الأكبر سنّاً عند بينغ- هو في كِيو- كِيانغ. مارس الطبّ وقدّم العون للناس المصابين بالأمراض والمثقَلين بالمتاعب والهموم كما لو أن المرض مرضه هو. وفي أحد تجوالاته صادفَ الإنسان الخالد تشو- تشينغ- شي، الذي كشف له طريق الوجود الخفي. وفيما بعد ذاب مع الجثّة واختفى".

سمعتُ حفيف الأوراق وعرفتُ أن الجدّ الأعلى قلبَ بضع صفحات، قبل أن يتابع: "من يمتلكُه، الكتابَ الأحمر، نبتة الخلود، إيقاظَ النَّفَس الروحي وسرّ إحياء اليد اليمنى، يذوب مع الجثّة.

ها قد قرأتُ لك أمثلة عن أناسٍ ذابوا، بغية تعزيز إيمانك عن طريق سماعك أن ثمة آخرين قبلك حقّقوا ذلك. وللغرض نفسه وردتْ في الكتاب المقدّس نتيجةُ قيامة يسوع الناصري. إنما أريدُ الآن أن أحكي لك عن سرّ اليد وعن سرّ النَّفَس وعن قراءة الكتاب الأحمر.

هو يُدعى الكتاب الأحمر، لأن اللون الأحمر بحسب العقيدة الصينية القديمة هو لون أردية أرفع الكاملين، الذين بقيوا على الأرض لخير وسلام البشرية.

مثلما لا يمكن للإنسان أن يفهم كتاباً ما ويستوعب مغزاه إذا اكتفى بأن يمسكه بيده أو بأن يقلّب صفحاته من غير أن يقرأه، كذلك فإن مسار قدَره لا ينفعُه في شيءٍ إن لم يفهمْ مغزاه؛ فتتتالى الأحداث كأوراق كتابٍ يقلّبها القدَر؛ وهو لا يعرفُ إلاّ أنها تظهرُ وتختفي، ومع الورقة الأخيرة ينتهي الكتاب. هو لا يعرفُ إطلاقاً أن الكتاب يُفتَحُ من جديد المرة تلو الأخرى إلى أن يتعلّم القراءة أخيراً.

وما دام لا يجيدُ القراءة، فإن الحياة بالنسبة إليه مجرد لعبةٍ لا قيمة لها، مزيج من الهناء والشقاء. ولكن حينما يبدأ أخيراً بإدراك اللغة الحيّة فيها، تفتحُ روحُه عينيه وتشرعُ بالتنفّس وتشاركُ في القراءة.

هذه هي المرحلة الأولى في الطريق إلى ذوبان الجثّة، إذ إن الجسد ليس سوى روحٍ متجمّدة؛ وهو يذوبُ حينما تبدأ الروح بالاستيقاظ، مثلما يذوبُ الجليد في الماء حينما يبدأ هذا الأخير بالغليان.

كتاب القدَر الخاص بكلّ إنسانٍ مغزاه في الجذر، ولكن الحروف فيه تتراقصُ بشكلٍ فوضوي بالنسبة إلى أولئك الذين لا يجشّمون أنفسهم عناء القراءة بهدوء، حرفاً تلو الآخر وكما هي موضوعة.

هؤلاء هم المتعجّلون، المتهوّرون، الجشعون، الطموحون، المتعلّلون بالواجب، المسمومون بوهم إمكانية تشكيل قدَرهم بما يغايرُ ما كتبه الموتُ في الكتاب.

بيد أن من لا يعود يعيرُ أيّ اهتمامٍ لتقليب الصفحات، لإقبال الصفحة وإدبارها الباطلين، ولا يعود ذلك يسرُّه ولا يُبكيه، بل يسعى كقارئٍ متشوّق الذهن ومشدود الخاطر إلى الفهم كلمةً كلمة، يُفتَحُ له في الحال كتابُ قدَرٍ أسمى، إلى أن يقبع أمامه، بوصفه مُصطفىً، الكتابُ الأحمر كآخر وأسمى كتابٍ بالنسبة إليه، يضمُّ بين جنباته كلّ الأسرار.

هذه هي الطريقة الوحيدة للإفلات من سجن القدر المكتوب والقضاء المحتوم؛ وكلّ فعلٍ آخر هو تخبّطٌ موجع لا طائل منه في أحابيل الموت. إن أفقر الناس في الحياة هم أولئك الذين نسوا أن هناك حريةً فيما وراء السجن، - الذين نسوا الطيران، شأنهم شأن الطيور المولودة في الأقفاص والراضية بصحن الطعام الوافر- ليس لهؤلاء أيّ خلاصٍ أبداً.

أملنا أن يفلح المتجوّلُ الأبيض الكبير، النازل في الطريق إلى اللانهائية، في تحطيم القيود.

ولكنهم لن يروا الكتاب الأحمر أبداً. من يُفتَح له الكتاب الأحمر لا يخلّفُ وراءه أيّ جثّةٍ بالمعنى الأسمى أيضاً: هو ينتزعُ قطعةً من التراب إلى داخل الروحيّ ويُذيبها فيه.

على هذا النحو يشاركُ في العمل العظيم للخيمياء الإلهية؛ فيُحيلُ الرصاص إلى ذهب، يُحيلُ اللانهائية إلى أبدية...

اسمعِ الآن سرّ النَّفَس الروحي! إنه محفوظٌ في الكتاب الأحمر من أجل من هم جذرٌ أو قمّة فقط؛ فـ "الفروع" لا تشاركُ في ذلك، بل سرعان ما تيبسُ وتسقط عن الجذع. من المؤكّد أن النَّفَس الروحي العظيم يسري فيها أيضاً، - إذ كيف لأتفه الكائنات أن تعيش من دونه - ولكنه يعبرُها كريحٍ محرّكة من غير أن يتوقّف.

وليس النَّفَس الجسدي سوى قطبه المقابل، نقيضه في العالم الخارجي. ولكنه يجب أن يتجمّد في داخلنا إلى أن يصبح ضوءاً، وينفذ في عيون شبكة الجسد، ويتوحّد مع النور الكبير. ليس في مقدور أحد أن يعلّمك كيف يحدثُ هذا؛ فهو متأصّلٌ في منطقة أشدّ الأحاسيس والمشاعر رهافةً. جاء في الكتاب الأحمر: "هنا يكمنُ مفتاح كلّ سحر. الجسد لا يستطيع شيئاً، والروح قادرة على كلّ شيء". تجاهلْ كلّ ما هو جسديّ، وستبدأ أناك، حينما تغدو عاريةً تماماً، بالتنفّس كروحٍ خالصة.

كلٌّ يشرعُ بذلك بالطريقة الموافقة للعقيدة التي وُلدَ فيها. أحدهم عن طريق التوق إلى الروح، وآخر عن طريق المواظبة والاستمرار في الشعور باليقين: "أنا سليل الروح، وجسدي فقط من تراب". من لا دين له، ولكنه يعتقد بالموروث، يترافقُ كلّ عملٍ تقوم به يديه، حتى أتفهه، مع الفكرة الدؤوبة: أنا أفعلُ ذلك لغرضٍ وحيد هو أن يبدأ الروحيّ بالتنفّس في بوعي.

مثلما يقومُ جسدك بتحويل الهواء الأرضي المستنشَق، من غير أن تعرفَ أنت ورشةَ عمله السرّية، كذلك تنسجُ لك الروحُ بنَفَسها، وبطريقةٍ لا تُدرَك، رداءً ملكياً أرجوانياً: معطفَ الكمال. سوف تتغلغلُ في كامل جسدك بمعنى أعمق منه عند الحيوانات البشرية؛ حيثما يحلّ نفَسها تتجدّدُ كلّ الأعضاء خدمةً لغرضٍ يختلف عنه حتى الآن.

عنذذاك يمكنك توجيه تيّار النَّفَس هذا كما يحلو لك. - بإمكانك جعلُ نهر الأردن يجري صعوداً، كما جاء في الكتاب المقدَّس. بإمكانك إيقافُ قلبك، أو تبطيئه أو تسريعه، وبالتالي تقريرُ مصير جسدك بنفسك؛ فكتابُ الموت لا يعود ساري المفعول عليك من الآن فصاعداً.

لكلّ فنٌ قانونُه، لكلّ اختيار ملكٍ طابعُه، لكلّ قدّاسٍ طقسُه، ولكلّ ما يصيرُ وينمو مسارُه المحدَّد. وأول عضوٍ في الجسد الجديد، الذي عليك أن توقظه بذلك النَّفَس، هو اليد اليمنى.

حينما يقعُ النَّفَس على اللحم والدم يتعالى أولاً صوتان؛ وهما صوتا الخلْق I و A. I هو "ignes"، وهي النار، و A هو "aqua"، وهو الماء. ما من شيءٍ إلاّ وهو مصنوعٌ من الماء والنار! حينما يقعُ النَّفَس على السبابة، فإنها تتجمّدُ لتماثلُ الحرف I. - "يتكلّسُ العظم"، كما جاء في الموروث. وإذا وقع النَّفَس على الإبهام، تجمّد هذا الأخير وانفرج مشكّلاً مع السبابة حرف A. عندذاك "تتدفّقُ من يدك تيّاراتٌ من الماء الحيّ"، كما جاء في الموروث.

إذا تُوفَي إنسانٌ في هذا الطور من الولادة الثانية الروحية، فإن يده اليمنى لا تعود خاضعةً للتفسّخ. إذ وضعتَ اليد المستيقظة على عنقك، تدفّق "الماء الحيّ" إلى داخل جسدك.

إذا تُوفّيتَ في هذا الطور، كان جسدكُ بالكامل غير قابل للتفسّخ، كجثّة قدّيسٍ مسيحي.

بيد أن عليك أن تذوب مع جثّتك!

يحدثُ هذا عن طريق غلْي "الماء"، ويحدثُ هذا الأخير عن طريق "النار"، إذ يجب أن يكون لكلّ حدثية نظامُها، حتى الحدثية الروحية للولادة الثانية. وسأنفّذُ هذا عليك قبلَ أن أغادرك هذه المرة".

سمعتُ كيف أغلق الجدّ الأول الكتاب. ثم نهض ووضع يده على عنقي مجدداً مثل منقلة، كما في المرة الأولى. وسرى في داخلي إحساسٌ كما لو أن تيّاراً من الماء البارد كالثلج سال على جسدي نزولاً حتى أخمص قدميّ.

"حينما أوصلُه إلى مرحلة الغليان، تستيقظُ فيك الحمّى، وتفقدُ وعيك". قال الجدّ الأول، "لذلك اسمعْ، قبل أن تُصَمّ أذنك: إن ما أفعلُه معك، تفعلُه أنت بنفسك، فأنا أنت وأنت أنا. ما من أحدٍ غيري يمكنه أن يفعل معك ما أفعله أنا؛ حتى أنت لا تستطيع أن تفعل هذا مع نفسك بمفردك. يجب أن أكون حاضراً، إذ إنك من دوني نصف "أنا" فقط – مثلما أنا من دونك نصف "أنا" فقط.

على هذا النحو يكون سرّ التنفيذ محمياً من سوء الاستخدام من قبل الحيوانات البشرية".

شعرتُ كيف أرخى الجدُّ الأول إبهامه ببطء؛ ثم مرّر سبابته على عنقي بسرعة من اليسار إلى اليمين، كما لو أنه يريدُ أن يذبحني. وانطلقَ عبري صوتٌ مرعب رنّان أشبه ب- "ا" لافحاً لحمي وعظامي. خُيِّلَ إليّ وكأن هبّاتٍ من اللهب تنبعثُ في جسدي. وسمعتُ صوت جدّي الأعلى كريستوفر مرةً أخرى، وكأنه صاعدٌ من الأرض وهو يقول: "لا تنسَ: كلّ ما يحدث، وكلّ ما تفعلُه وتكابده، تحمّله في سبيل الذوبان مع الجثّة!". ثم احترقتِ البقية الباقية من وعيي على وهج الحمّى.

8

أوفيليا

لا تزال ركبتاي ترتجفان ضعفاً إن تمشّيتُ في الغرفة، ولكنني أشعرُ بوضوحٍ يزدادُ ساعةً بعد ساعة بأن صحّتي تعود.

شوقي إلى أوفيليا يضنيني، وتحدوني رغبةٌ شديدة في النزول إلى بيت الدرج للتطلّع إلى نافذتها ومحاولة الفوز بنظرةٍ منها.

قال لي والدي إنها كانتْ عندي حينما كنتُ فاقد الوعي، وإنها أحضرتْ لي باقةً من الورد. ألاحظُ من ملامحه أنه خمّن كلّ شيء؛ لا بل ربما اعترفتْ له بالأمر؟ ولكنني أخشى أن أتساءل، وهو بدوره يتجنّبُ التطرّق إلى الموضوع حياءً.

إنه يقومُ على رعايتي بكلّ عنايةٍ واهتمام؛ ويُحضر لي كلّ ما يمكن أن يقرأه في عينيّ؛ بيد أن قلبي يخفقُ وجعاً وخجلاً مع كلّ معروفٍ يُسديه لي، حينما أفكّرُ في أنني جنيتُ عليه.

كم أودُ لو كان تزوير سند الدين مجرد هذيان حمّى! - ولكن الآن، حيث عاد الوضوح إلى حواسّي، أعلمُ حق العلم، للأسف، أنه حدثَ في الواقع. لماذا فعلتُ ذلك، ولأيّ غرض؟ لقد امّحتْ كلّ التفاصيل من ذاكرتي. كما أنني لا أريدُ إعمال ذهني في الأمر؛ فالشيء الوحيد الذي

أعرفُه هو أنه يجب عليّ أن أكفّر عن فعلتي بشكلٍ من الأشكال؛ يجب أن أكسب المال، يجب أن أكسب المال، المال، المال، كي أتمكّن من استرداد سند الدين.

يتصبّبُ جبيني عرقاً مع فكرة استحالة ذلك. كيف لي أن أكسب المال هنا، في مدينتنا الصغيرة؟ ولكن ربما يمكنني ذلك في العاصمة؟ فهناك لا يعرفني أحد. - إذا ما قدّمتُ نفسي خادماً لرجلٍ ثري مثلاً! - سوف أكون على استعدادٍ للعمل ليلاً نهاراً كعبد. ولكن كيف لي أن أطلب من والدي السماح لي بالدراسة في العاصمة؟ بمَ أعلّلُ طلبي، وهو الذي طالما ردّدَ أنه يكرهُ كلّ تعلّمٍ يُحفَظ صمّاً، ولا يُكتسَب من مدرسة الحياة؟! فضلاً عن أنه تنقصني المعارفُ المسبقة الضرورية أو على الأقل شهادة المدرسة! كلا، كلا، إنه أمرٌ مستحيل!

يتضاعفُ عذابي عندما أفكّر: هل كُتِبَ لي أن أفترق عن أوفيليا لسنواتٍ وسنوات، وربما إلى الأبد؟

أشعرُ كيف تتحفّزُ الحمّى للتصاعد في داخلي مع هذه الفكرة المخيفة. ها قد رقدتُ في فراشي مريضاً مدة أسبوعين كاملين؛ وورود أوفيليا يبستْ في المزهرية. - ربما غادرتْ البلدة سلفاً؟ - يخنقني اليأسُ إلى حدٍ تتعرّقُ معه يداي. - ربما كانت الورود تحية وداع؟!

يلاحظُ والدي معاناتي، ولكنه لا يسألُ عن السبب ولو بكلمةٍ واحدة. هل يعرفُ إذاً أكثر مما يريدُ قوله؟ ليتني أستطيعُ أن أنفّس له عن شكواي وأعترف له بكلّ شيء، بكلّ شيء! - كلا، هذا لا يجوز؛ كم يُرضيني لو يطردني من المنزل، فأكفّرُ بذلك عن ذنبي؛ - ولكنني أعرفُ أن قلبه سوف ينكسرُ إذا ما علمَ أنني أنا، ولده الوحيد الذي عثرَ عليه

بإرادة السماء، عاملَه معاملة الجاني؛ كلا، كلا، هذا لا يجوز أن يحدث! يُفترَض بكلّ الناس أن يعلموا بأمري ويشيروا إليّ بأصابعهم، إلاّ هو، لا يجوز أن يعلم بالأمر...

يمسحُ جبيني بيده بحنوّ، ينظرُ في عينيّ نظرةً مفعمة بالحبّ والرأفة ويقول: "دعك من نظرة الخوف هذه، بنيّ العزيز! انسَ ما عساه يعذّبك! تصوّرْ أنه هذيان حمّى. سرعان ما تستعيدُ صحتك ومرحك!".

ينطقُ بكلمة "مرح" بتلعثمٍ شديد، وأشعرُ أنه يخمّنُ أن القادم من الأيام سوف يجلبُ الكثير من الألم والشقاء. مثلما أخمّنُ أنا أيضاً. هل غادرتْ أوفيليا إذاً؟ هل هو على علمٍ بذلك؟ يلحُ عليّ السؤال، ولكنني أكظمُه. - أعتقد أنني كنت لأنهار إذا ما ردّ عليّ بالإيجاب.

يشرعُ فجأةً بالكلام بسرعةٍ ومن غير رويّة؛ يتطرّقُ إلى كلّ ما هو ممكن بقصد إلهائي وجرّي إلى أفكارٍ أخرى. لا أستطيع أن أذكر أنني حكيتُ له عن الزيارة الحلْمية لجدّنا الأعلى - أو أياً كانت طبيعتها -، إنما لا بد أنني فعلت! - وإلاّ كيف اتّفق أن يتطرّق دفعةً واحدة إلى الموضوع نفسه تقريباً؟

يقول من غير تمهيدٍ تقريباً: "ثمة ألمٌ لا يمكنك تفاديه، ما دمتَ لست "مُذاباً" بعد. لا يمكن لابنِ الأرض أن يمحو ما هو مكتوبٌ في لوح القدَر. ليس المحزن وجود هذا العدد الكبير من البشر الأحياء، المحزن فقط هو أن ألَمهم يظلُّ عديم الجدوى بالمعنى الأسمى. - بذلك يتحوّلُ إلى قصاصٍ على أفعال الكراهية المقترَفة في زمنٍ خلا - ربما في وجودٍ سابق. باستطاعتنا الإفلات من قانون الثواب والعقاب الرهيب هذا، إنْ نحن تقبّلنا كلّ ما يحدثُ مع الفكرة التي مفادها: إنه يحدثُ بغرض

إيقاظ حياتنا الروحية. كلّ ما نفعله، علينا أن نفعله من وجهة النظر هذه فقط. الموقف الروحي هو كلّ شيء، والفعل وحده لا شيء! يصبحُ الألم مجدياً وذا مغزى إذا ما نظرتَ إليه هذه النظرة. - صدّقْني، لن تستطيع إذذاك احتماله بسهولةٍ أكبر وحسب، بل سيزول بصورةٍ أسرع أيضاً، لا بل قد يتحوّلُ حسب الظروف إلى نقيضه. - إن ما يحصلُ في مثل هذه الحالات يتاخمُ الأعجوبيّ أحياناً، وما يحدثُ حينذاك لا يقتصرُ على تغيّراتٍ داخلية - كلا! فخارجياً أيضاً يتحوّلُ القدَر بطريقةٍ عجيبة. - لا ريب في أن غير المؤمن يضحكُ من هذا الزعم - ولكن قلْ لي بربّك ممَّ لا يضحكُ غير المؤمن!

إن واقع الحال كما لو أن النفْس لا تطيقُ أن نعاني ونتألّم لأجلها أكثر مما في وسعنا".

أسألُه: "ما المقصود في الواقع من "إحياء اليد اليمنى"؟ هل هو مجرد بداية تطوّرٍ روحي، أم له غايةٌ أخرى أيضاً؟".

يُعمِلُ والدي ذهنه لبرهة. "كيف لي أن أُفهِمك هذا؟ لا يمكن التكلّم هنا إلاّ بالرموز والأمثال من جديد. -

إن أعضاء جسدنا، شأنها شأن كلّ الأشكال، هي مجرد رموزٍ لمفاهيم روحية. اليد اليمنى هي رمز العمل والفعل. - فإذا دبّت الحياة في يدنا اليمنى روحياً، يعني هذا أننا أصبحنا فاعلين "في الجانب الآخر"، بينما كنا نياماً حتى ذلك الحين. - ولا يختلفُ الحال مع "الكلام"، "الكتابة والقراءة". الحديث أو الكلام هو من منظورٍ أرضي بمثابة إبلاغٍ عن شيءٍ ما. - أما كون مَن نبلّغه شيئاً ما يأخذُ به أم لا، فهذا شأنه.

وتختلفُ الحال مع الكلام "الروحي". فهو لا يعودُ إبلاغاً، إذ مَن يُفترَض بنا أن "نبلّغه شيئاً ما"؟ فالـ "أنا" والـ "أنت" هناك واحد. "الكلام" بالمعنى الروحي هو بمثابة خلْق؛ إنه استدعاءٌ سحري إلى الظهور. -

"الكتابة" هنا في الدنيا هي التدوين الفاني لفكرة؛ أما "الكتابة" في الجانب الآخر فتعني: نقْشاً في ذاكرة الأبدية.

"القراءة" هنا تعني: استيعاب معنى ما هو مكتوب. أما "القراءة" في الجانب الآخر فتعني: معرفة القوانين الكبرى الراسخة و - التصرّف بموجبها في سبيل التناغم. ولكنني أعتقد، بنيّ العزيز، أنه لا يجوز لنا التطرّق إلى أمورٍ صعبة الفهم إلى هذا الحد، لا سيما الآن، حيث لا تزال صحّتك ضعيفة!". -

"ألا تريدُ أن تحدّثني عن أمّي، أبتاه؟ ماذا كان اسمها؟ أنا لا أعرفُ عنها أيّ شيء!" - نطقَ لساني بهذه الأسئلة فجأةً؛ ولم ألاحظْ، إلاّ بعد فوات الأوان، أنني لامستُ جرحاً في قلبه. راح يذرعُ الغرفة جيئةً وذهاباً وهو في حالةٍ من الاضطراب والجزع؛ وبدتْ لغته غير مترابطةٍ وهو يقول:

"ولدي العزيز، اعفني من إحياء الماضي من جديد! لقد أحبّتني. نعم، أعرفُ هذا. وأنا أحببتُها كذلك - حبّاً يجلّ عن الوصف. كان شأني في ذلك شأن كلّ آبائي وآبائك الأولين. والحق أن كلّ ما يتّصل بـ "المرأة" كان بالنسبة إلينا، نحن الرجال من سلالة يوخَر، عذاباً وشؤماً. من غير ذنبٍ لنا ومن غير ذنبٍ لأمّهاتنا. بالمناسبة، وكما تعلمُ ربما، لم يُرزَقْ كلٌ منا سوى بابنٍ واحد. ولم يدُمِ الزواج أكثر من ذلك. كما لو أن الزواج قد حقّق بذلك الغرض منه.

لم يكنِ الزواج سعيداً بالنسبة إلى أيٍّ منا. ولعلّ السبب في ذلك يعودُ إلى أن زوجاتنا كنّ إما أصغر سنّاً مما ينبغي - مثل زوجتي -، أو أكبر سنّاً منا. ولم يكنْ هناك أيّ انسجامٍ جسدي. وكانت المسافة الفاصلة بيننا تتّسع مع كلّ سنة. - ولماذا تركتْني؟ نعم، ليتني أعرفُ السبب! ولكنني لا أريد - لا أريدُ أن أعرفه! لعلّها خانتْني؟ كلا! وإلاّ كنتُ شعرتُ بذلك! ولكنتُ أشعرُ به إلى الآن أيضاً. لا يسعُني إلاّ أن أعتقد: أن حبّاً لشخصٍ آخر استيقظَ في نفسها، وحينما أدركتْ أنها لم تعدْ تستطيع الإفلات من قدَر خداعي، آثرتْ أن تهجرني وتطلب الموت".

"ولكن لماذا تركتْني أنا، أبي؟".

"ليس عندي سوى تفسيرٍ واحد لذلك: كانتْ كاثوليكيةً متشدّدة في إيمانها، ورأتْ في طريقنا الروحية ضلالاً شيطانياً، مع أنها لم تتفوّه بكلمةٍ واحدة ضدّها. لقد أرادتْ أن تحميك منها، ولم يكنْ لهذا أن يتمّ إلاّ بأن تُقصيك وتُبعدك عن تأثيري. لا يجوز لك التشكيك أبداً في أنك ابني العزيز، أتسمع! لم يكنْ لها أبداً أن تمنحك اسم كريستوفر؛ وهذا وحده إشارة مؤكّدة بالنسبة إلي إلى أنك لستَ - ولد أحدٍ غيري".

"أبي، أخبرْني أمراً واحداً فقط: ماذا كان اسمها؟ أودُّ أن أعرف اسمها الأول حينما أفكّرُ فيها".

"لقد كان اسمها" - يختنق صوتُ والدي، كما لو أن الكلمة تعثّرتْ في حلقه. "لقد كان اسمها - كان اسمها أوفيليا".



أخيراً يُسمَحُ لي بالخروج من المنزل مجدداً. وقد قال لي والدي إنه لم يعدْ عليّ إشعال الفوانيس. حتى فيما بعد.

لستُ أعرفُ السبب.

ويتولّى الوظيفة خادمُ البلدية، كما كان يفعل سابقاً قبل مجيئي. أول حركةٍ أقومُ بها كانت النزول إلى بيت الدرج - بقلبٍ مرتجف - صوب النافذة! بيد أن الستائر كانت مُسدلة باستمرار في الجانب الآخر.

صادفتُ في الممرّ، وبعد انتظارٍ طويل، المرأة المسنّة التي تخدمُ في الجهة الأخرى، واستفسرتُ منها. إذاً، فقد بات أمراً واقعاً ما أحسستُ به بشكلٍ مبهم وكنتُ أخشاه! لقد هجرتْني أوفيليا! تقولُ المرأة المسنّة إن الممثّل باريس سافر برفقتها إلى العاصمة. وأنا أعرفُ الآن كذلك لماذا وقّعتُ سند الدين؛ فقد عادتْ إليّ ذاكرتي. كان الممثّل باريس قد وعدني بعدم جعلها تظهر على المسرح إن أنا حصلتُ له على النقود.

وبعد ثلاثة أيامٍ نكثَ بوعده.

كلّ ساعةٍ تمرُّ تراني ذاهباً إلى مقعد الحديقة. أكذبُ على نفسي بالقول: إن أوفيليا تجلسُ هناك وتنتظرني - إلاّ أنها تختبئ، كي تفاجئني وتهرع إلى ذراعي مهلّلةً فرحاً! وفي بعض الأحيان أضبطُ نفسي وأنا أقوم بتصرّفٍ غريب: أنكشُ الرمل حول المقعد بالمعزقة المركونة عند سور الحديقة أو بعصا أو ببقيةٍ من لوحٍ خشبي أو بأيّ شيءٍ يقع في يدي - وأحياناً بيديّ المجرّدتين. كما لو أن الأرض تنطوي على ما لا بد أن أنتزعه منها.

جاء في الكتب أن المحترقين عطشاً ينكشون في الأرض ويحفرون حفراً إذا ما تاهوا في الصحراء. لقد باتَ ألمي من الاتّقاد والتوهّج إلى حد أنني لم أعدْ أحسُ به. أم أنني أحلّقُ عالياً متفوّقاً على نفسي، بحيث لا يستطيعُ الوجع أن يرتقي إليّ؟

تقعُ العاصمة على بعد أميالٍ كثيرة عند أعالي النهر، - ألا يأتيني النهر إذاً بأيّ تحيات؟ ثم أجدُ نفسي فجأةً جالساً عند قبر أمّي، ولا أدري كيف وصلتُ إلى هناك. لا بد أن الاسم نفسه "أوفيليا" قد اجتذبني إليه.



لماذا يأتي ساعي البريد الآن، فالوقت ظهراً وحرارة الجوّ لاسعةٌ وكلّ شيءٍ يستريح بهدوء؟ ها هو يعبرُ صفّ الخبّازين باتجاه منزلنا. لم يسبقْ لي أن رأيته يوماً في هذه المنطقة.

لا يسكنُ هنا أحدٌ قد يأتي له برسالة.

أبصرني الرجل، فتوقّف وأخذ يبحثُ في حقيبته الجلدية.

أنا على يقينٍ من أن قلبي سوف يتحطّم إن كان هناك رسالةٌ من أوفيليا. ثم أمسكُ بيدي، وأنا في حالةٍ من التخدير، وناولني شيئاً أبيض وعليه ختمٌ أحمر.



"عزيزي السيد البارون المحترم!

إذا قُيِّضَ لك أن تفتح هذه الرسالة الموجّهة إلى كريستوفر، أرجوك، أرجوك ألاّ تواصل قراءتها! وأرجو ألاّ تقرأ أيضاً المدوَّنة المرفقة: أتوسّلُ إليك من أعماقي! وإذا لم ترغبْ في تسليم الرسالة لـ كريستوفر، فاحرقِ الاثنتين، ولكن في الحالتين لا تدعْ كريستوفر يغيبُ عن ناظريك ولا دقيقةً واحدة!

فهو لا يزالُ فتياً، ولا أريدُ أن أكون السبب في أن - يقترف فعلاً أهوج، في حال علمَ من غيرك ما يجب أن تعلمه أنت - ويعلمه هو - بعد قليل بالطبع.

لبِّ لي هذا الرجاء الحارّ (وأنا على يقينٍ من أنك ستفعل!). المخلصة والمطيعة لك أوفيليا م.".

"حبيبي الغالي وقرّة عيني المسكين!

يحدّثني قلبي أنك استعدتَ صحتك؛ ولذلك آمل من أعماق نفسي بأن تتجاوز بقوةٍ وشجاعة ما يتوجّب عليّ أن أكتبه لك الآن. إن ما فعلتَه لأجلي لن ينساه الربّ أبداً. وأنا أهلّلُ له بكلّ امتنانٍ لأنه جعلني غير قادرةٍ على محو أفعالك من صفحة الوجود.

كم اضطررتَ لأن تعاني وتكابد من أجلي، يا فتاي الغالي طيب القلب! يستحيلُ بالطبع أن تكون قد تحدّثتَ مع والدك عن وضعي؛ فقد رجوتك ألاّ تخبره أيّ شيءٍ عن ذلك، وأنا أعرفُ أنك لبّيت رجائي. وإلاّ لكان له بالتأكيد أن يلمّح لي ولو بإشارة، حينما كنتُ عنده لأخبره كم نحن متحابان، ولأودّعه - وأودّعك -.

إذاً، من غير الممكن أن يكون أحدٌ غيرك من حرّر سند الدين! أنا أبكي فرحاً وسروراً بأنني قادرةٌ اليوم على إعادته لك! فقد وجدتُه اليوم بالمصادفة على مكتب الإنسان المخيف الذي لم أعدْ أستطيع أن أدع اسمه يجري على لساني.

كيف لي أن أعبّر لك عن امتناني، يا قرّة عيني! أيّ عملٍ عساه يكون من الكِبَر بما يكفي ليثبت لك ذلك في أيّ وقت! يستحيلُ على هذا القدْر من الامتنان والحبّ، اللذين أكنُّهما لك، ألاّ يتجاوز القبر. أنا على يقينٍ من أنهما سيدومان إلى أبد الآبدين، بقدْر يقيني من أنني سوف أكونُ حولك في خيالي وروحي، وأرافقك في كلّ روحةٍ وغدوة، وأصونك من كلّ خطرٍ ككلبٍ أمين، إلى أن نلتقي ذات يوم.

لم يسبقْ لنا أن تكلّمنا في هذه الأمور، إذ كيف كنا لنمتلك الوقت لها، ونحن نتعانقُ ونتبادلُ القبل، يا قرّة عيني! - ولكن صدّقْني: بقدر ما هي العناية الإلهية حقيقية، بقدر ما هو حقيقيٌ أيضاً وجود أرض الشباب الدائم. ولو أنني لم أكنْ أعرفُ هذا، من أين لي الشجاعة على فراقك!

سوف نلتقي هناك، ولن نفترق أبداً: هناك سوف نكون كلانا في سنّ الشباب، ونبقى كذلك، وسوف يكون الزمن حاضراً أبدياً بالنسبة إلينا. ثمة أمرٌ واحد يكدّرُني - ولكن لا، ها أنا أبتسمُ له ثانيةً! - وهو أنك لن تستطيع تحقيق أمنيتي في أن تدفنني في الحديقة بجوار مقعدنا العزيز. وعوضاً عن ذلك أرجوك بحرارةٍ وإلحاحٍ أشدّ منهما آنذاك: ابقَ في الدنيا لأجل حبّنا!

عشْ حياتك، أتوسّلُ إليك، إلى أن يأتي إليك ملاك الموت من تلقاء نفسه، من غير أن تدعوه. أريدُك أن تكون أكبر مني سنّاً، حينما نلتقي. لذلك يجب عليك أن تعيش حياتك هنا على الأرض حتى النهاية! وسوف أنتظرُك في الجانب الآخر في أرض الشباب الدائم.

اضبطْ قلبك كي لا يصرخ؛ قلْ له إنني معك، إنني أقرب إليك من القرب الجسدي نفسه! هلّلْ وابتهجْ لأنني حرّة أخيراً، أخيراً - الآن وأنت تقرأ رسالتي.

أم أنك كنتَ تفضّل أن تعلم أنني أتوجّع؟ وما كان لي أن أعانيه، فيما لو بقيتُ على قيد الحياة، لا يمكن التعبير عنه بالكلمات! لقد ألقيتُ نظرةً واحدة على الحياة التي تنتظرُني - نظرةً واحدة فقط! والحق أن بدني يقشعرّ! أفضّلُ الجحيم على هذه المهنة!

مع ذلك كان ليسرّني أن أخدعه أيضاً، لو كنتُ أعلمُ أنني بذلك أقترب من سعادة لمّ شملنا. لا تصدّقْ أنني خلعتُ عني الحياة لأنني لم أكنْ قادرةً على المعاناة من أجلك! أنا أفعلُ هذا لأنني أعرفُ أن روحينا سيكونان منفصلين إلى الأبد، هنا وفي الجانب الآخر. لا تصدّقْ أنه مجرد كلامٍ أو آمالٍ كاذبة بقصد مواساتك، إن قلتُ لك: أنا أعرفُ أنني سوف أتجاوزُ القبر وأكونُ حولك من جديد! أقسمُ لك إنني *أعرفُ* هذا حق المعرفة. كلّ خليةٍ في تعرفُ هذا. قلبي ودمي يعرفان هذا. مئات الإشارات تقول لي هذا. في اليقظة وفي النوم وفي الحلْم! أريدُ أن أقدّم لك دليلاً على أنني لا أخدعُ نفسي. أوَتظنّ أنني كنتُ لأمتلكُ الجرأة على إخبارك بأيّ شيء، لو لم أكنْ على يقينٍ من أن ذلك سوف يتم؟

اسمعْني: أغمضْ عينيك الآن، وأنت تقرأ هذه المقطع! سوف أقبّلُ دموعك! هل تعرفُ وتثقُ الآن بأنني معك وأنني حيّة!؟

لا تخفْ، يا قرّة عيني، من أن لحظة موتي ربما كانت أليمة بالنسبة إلي. لقد أحببتُ النهر كثيراً، وسوف لن يؤلمني إن أنا ائتمنتُه على جسدي.

آخ، ليتني أُدفَنُ بجوار مقعدنا! لن أرجو الله ذلك، ولكن ربما يقرأُ أمنيتي الصبيانية الصامتة ويصنعُ معجزة. فهو قد صنع معجزاتٍ كثيرة وكبيرة جداً.

ثمة أمرٌ آخر، يا قرّة عيني! لا شك في أنك ستصبح رجلاً ولا كلّ الرجال، رجلاً مفعماً بالقوة والطاقة، أرجوك أن تقدّم العون لمربّيّ المسكين، إن أمكن! كلا، لا تشغلْ بالك بذلك! سوف أكونُ معه بنفسي وأقفُ بجانبه وأعينُه. وسوف يكون ذلك في الوقت نفسه إشارةً لك بأن

مقدرة نفسي أكبر من قدرات جسدي، وأن ما تستطيعه أعظم مما يستطيعُه في أيّ وقت.

والآن، يا فتاي الشجاع والطيب والمخلص، لك آلاف القبلات من المخلصة لك أوفيليا السعيدة".

❖❖❖

هل هاتان اليدان، اللتان تمسكان بالرسالة ثم تطويانها ببطءٍ ثانيةً، هما يداي فعلاً؟ هل هذا الشخص، الذي يتحسّسُ جفونه ووجهه وصدره، هو أنا حقاً؟ لماذا لا تبكي هاتان العينان؟ لقد جفّفتْ دموعَهما شفتان من عالم الأموات بقبلاتهما؛ ولا أزال أشعرُ بملامستهما الرقيقة إلى الآن. ومع ذلك يُخيَّل إليّ وكأن زمناً لا نهاية له قد انقضى منذ ذلك الحين.

هل هي مجرد ذكرى المرض ربما، حينما جفّفتْ أوفيليا دموعي بقبلاتها؟ هل يُحيي الأموات الذاكرة وينعشونها إذا شاؤوا، بحيث يشعرُ المرء بقربهم وكأنه حاضرٌ راهن؟ هل يخترقون مجرى الزمن للوصول إلينا، عن طريق تأخيرهم ساعتنا الداخلية؟

لقد تجمّدتْ روحي؛ عجباً كيف أن دمي لا يزال يقومُ بالمدّ والجزر! أم أن ما أسمعُه يخفقُ هو نبضُ شخصٍ آخر، شخصٍ غريب؟ أنظرُ إلى الأرض - هل هاتان القدمان، اللتان تقصدان المنزل خطوةً خطوة بشكلٍ آلي، هما قدماي فعلاً؟ والآن أراهما تصعدان الدرج؟ أليس من المفروض أن ترتجفا وتترنّحا بفعل الألم المكرّستان له، فيما لو كنتُ أنا هذا الشخص حقاً؟!

أشعرُ بطعنةٍ مخيفة وكأنها طعنة حربةٍ متّقدة تخترقني للحظة من رأسي حتى أخمص قدميّ، بحيث تكاد ترميني على الدرابزين، ثم أبحثُ

عن الألم في داخلي، ولا أعود أجدُه أو أحسُ به. لقد أحرق نفسه بنفسه كالبرق.

هل متُّ؟

هل يرقدُ جسدي، ربما، محطّماً هناك في الأسفل، في بيت الدرج؟

هل هو مجرد شبح، ذاك الذي يفتحُ الباب الآن ويدلفُ إلى الغرفة؟

كلا! ليس الأمر ضلالاً، فأنا هو نفسه؛ ها هو طعام الغداء على الطاولة، وها هو والدي يتّجهُ نحوي ويقبّلُ جبيني. أريدُ أن أتناول الطعام، ولكنني لا أستطيعُ البلع. كلّ لقمةٍ تنتفخُ وتتورّمُ في حلقي.

إذاً، فجسدي يعاني، أجل، إلاّ أنني أجهلُ ذلك تماماً! وأوفيليا تمسكُ قلبي بيدها - أنا أشعرُ بأصابعها الباردة -، كي لا يتفجّر. نعم، هذا هو واقع الحال بالتأكيد! وإلاّ كنتُ لأصرخ عالياً!

أريدُ أن أفرح لكونها معي، بيد أنني نسيتُ كيف يفرح المرء. فالجسد يشتركُ في التعبير عن الفرح، وأنا لم يعدْ لي أيّة سلطةٍ عليه. هكذا سوف أضطرُ إلى التجوّل هنا على الأرض كجثّةٍ حيّة!؟

الخادمة المسنّة ترفعُ الطعام بصمت؛ أنهضُ وأدخلُ غرفتي؛ يقعُ بصري على ساعة الحائط؛ الساعة الثالثة؟ ولكن لا يمكن أن تكون إلاّ الواحدة على أبعد تقدير؟ - لماذا لا تتكتكُ الساعة؟ فأتيقّنُ عندذاك من أن أوفيليا تُوفّيت في الساعة الثالثة ليلاً!

أجل، أجل، الآن تستفيقُ في داخلي الذكرى من جديد: فقد حلمتُ بها الليلة؛ وكانت تقفُ عند سريري وتبتسمُ بكلّ سعادة.

وقد قالتْ لي: "أنا قادمةٌ إليك، يا قرّة عيني! فقد سمع النهر رجائي. - لا تنسَ وعدك، لا تنسَ وعدك!".

تترددُ كلماتها في داخلي كالصدى. ولا تكفُ شفتاي عن تكرارها: "لا تنسَ وعدك، لا تنسَ وعدك!"، وكأنهما تريدان إيقاظ دماغي، بحيث يستوعبُ أخيراً المعنى الخفي للجملة.

يبدأ جسدي بكامله بالاضطراب والتململ، كما لو أنه ينتظرُ مني أمراً عليّ أن أعطيه إياه. أُعملُ ذهني مجتهداً، ولكن دماغي يبقى ميتاً ولا يستجيب. "أنا قادمةٌ إليكَ. لقد سمع النهر رجائي!". ما معنى هذا؟ ما معنى هذا؟ عليّ أن أحافظ على وعدي؟ ولكن أيّ وعد قطعتُه إذاً؟

ويمرُ في خاطري فجأةً: الوعد الذي قطعتُه لـ أوفيليا أثناء جولتنا في القارب. الآن أعرف: يجب عليّ النزول صوب النهر! أهبطُ الدرج بسرعةٍ جنونية، قافزاً كلّ أربع أو خمس درجاتٍ دفعةً واحدة، تاركاً يديّ تنزلقانِ على الدرابزين. ها أنا حيّ فجأةً من جديد؛ وأفكاري تتلاحقُ في ذهني. أقولُ لنفسي: "هذا مستحيل؛ إنها القصة الأبعد احتمالاً؛ تلك التي أحلمُ بها الآن".

أريدُ أن أتوقّف وأعودُ أدراجي، ولكن جسدي يشدُني إلى الأمام. أركضُ على امتداد الممرّ نحو المياه. ثمة طوّافة عند الرصيف، ويقفُ عليها رجلان.

أريدُ أن أسألهما: "كم يحتاجُ جذعُ شجرةٍ من الوقت حتى يسوقُه النهر من العاصمة إلى هنا؟".

أقفُ أمامهما مباشرةً وأحدّقُ بهما. يتطلّعان إليّ باستغراب؛ لا أتفوّهُ بأية كلمة، إذ يترددُ في أعماقي صوت أوفيليا: "ألستَ خيرَ من يعلم متى آتي؟ هل سبق لي أن تركتك تنتظر، يا قرّة عيني؟". ويهتفُ في داخلي اليقينُ الراسخ الذي يمحو كلّ شكّ: – واقع الحال كما لو أن الطبيعة من حولي أصبحتْ حيّةً وتشاركُ في الهتاف: في الساعة الحادية عشرة الليلة! الحادية عشرة! الساعة التي كنتُ أنتظرها فيها دوماً بشوق!

يتلألأُ القمر فوق صفحة النهر، على غرار الحال وقتذاك. أجلسُ على مقعد الحديقة، ولكن ما من حالة انتظار في داخلي كالعادة؛ أنا متوحّدٌ مع تيّار الزمن، فكيف لي أن أتمنّى لو يمرُّ بشكلٍ أسرع أو أبطأ!

جاء في كتاب المعجزات أنه ينبغي تلبية طلب أوفيليا الأخير! وقد هزّتني الفكرة إلى حد أن كلّ ما حدث: من موت أوفيليا، ورسالتها، ووجعي أنا، إلى المهمة الفظيعة المتمثّلة في دفن جثّتها، والخواء المخيف للحياة التي تنتظرُني - كلّ شيءٍ بهتَ أمامها واضمحلّ.

تمسُّني هذه الحال كما لو أن الألوف المؤلّفة من النجوم هناك في الأعلى هي العيون العليمة لرئيس الملائكة وهي تنظرُ إليّ وإليها بعين العطف والرعاية. أشعرُ بقرب قوةٍ لامحدودة تحيطُ بي وتتغلغلُ فيّ. كلّ الأشياء في يدها أدواتٌ حيّة؛ تمرُّ عليّ نسمة هواء، وأشعرُ أنها تقول لي: اذهبْ إلى الضفة وفكّ القارب.

والحق أنها لم تعدْ أفكاراً، تلك التي توجّهُ سلوكي: فأنا في نسيجٍ واحد مع الطبيعة بكاملها، وهمسُها الخفي هو فهمي. أجذّفُ باسترخاءٍ وهدوء إلى عرض النهر. الآن سوف تأتي! ينزلقُ نحوي شريطٌ ساطع. ويطفو على صفحة المياه وجهٌ أبيض جامد ذو عينين مغمضتين، أشبه بصورةٍ في مرآة. ثم أمسكُ الميتة وأجذبُها إليّ في القارب.



ها قد أرقدتُها في عمق الرمل الطري النقي أمام مقعدنا العزيز على فراشٍ من أزهار البيلسان الفوّاحة، وغطّيتُها بأغصانٍ خضراء. وأغرقتُ المعزقة في النهر.

9

عزلة

كنت أعتقدُ أن خبر موت أوفيليا، لا بد أن يُعرَف في البلدة ويشيع فيها في الأيام التالية كالبرق؛ ولكن ها قد مضى أسبوعٌ تلو أسبوع ولم يتحرّكْ شيء. واتّضح لي أخيراً أن أوفيليا قد ودّعتِ الدنيا من دون أن تخبر أحداً سواي.

هكذا كنتُ الكائن الوحيد في الأرض الذي كان على علمٍ بذلك. وقد ملك عليّ نفسي خليطٌ عجيب من العزلة، التي تفوق الوصف، والغنى الداخلي، الذي لم أكنْ في حاجةٍ إلى أن أشارك أحداً فيه.

وقد بدا لي كلّ من حولي، بمن فيهم والدي، أشكالاً مقصوصة من ورق، كما لو أنهم لا ينتمون إلى حياتي، إنما هم أشبه بديكور المسرح فقط. حينما كنت أجلسُ على المقعد في الحديقة، حيث اعتدتُ أن أحلم، بينما قربُ أوفيليا يعصفُ بي على نحوٍ يكاد يكون متواصلاً، وأتخيّل: عند قدميّ ينامُ جسدها الذي أحببتُه بتلك الحرارة! - كان يداهمُني في كلّ مرةٍ استغرابٌ عميق من أنني لا أستطيع الشعور بالألم.

كم كان إحساسها مرهفاً وصحيحاً، عندما رجتْني أثناء رحلتنا في القارب أن أدفنها هنا وألاّ أبوح لأحد بمرقدها! هكذا فقد كنا نحن

الاثنان - هي في الجانب الآخر وأنا هنا في الدنيا - الوحيدين اللذين يعلمان ذلك، وكان هذا القاسم المشترك يجمعنا بشكلٍ حميمي، إلى درجة أنني أحياناً لم أكنْ أحسُ على الإطلاق بأن موتها يعني غياب جسدها. كان حسبي أن أتخيّل أنها ترقد في مقبرة البلدة أسفل شاهدة قبر، محاطةً بالأموات من حولها، وأهلها يبكون عليها، - حتى تخرقُ الفكرةُ المجردة صدري كالسكّين وتُقصي شعوري بالقرب منها إلى مسافاتٍ لا سبيل إليها.

والحق أن إيمان البشر الغامض بأن الموت لا يعني سوى حاجزٍ رقيق بين المرئي وغير المرئي، وليس هوّةً لا يعود بالإمكان جسْرها أبداً، سرعان ما يُخلي المكان ليقينٍ دائم، إن هم دفنوا موتاهم في أمكنةٍ لا يعرفُها أحدٌ غيرهم ولا سبيل إليها إلاّ لهم، وليس في مدافن عامة.

حينما وعيتُ عزلتي بشكلٍ صحيح، بدتْ لي تلك الليلة، التي أرقدتُ فيها جسد أوفيليا في مثواه الأخير، في الذاكرة كما لو أن مَن قمتُ بدفنه كان أنا نفسي، كما لو أنني لم أعدْ غير شبحٍ على الأرض، جثّةٍ متنقّلة، لم تعدْ تشترك بأيّ شيءٍ مع البشر الذين هم من لحمٍ ودمٍ.

كان هناك لحظات لا بد أن أقول لنفسي فيها: أنت لم تعدْ أنت نفسك؛ ثمة كائنٌ يعودُ أصله ووجوده إلى مئات السنين قبل وجودك، يزدادُ حلوله فيك عمقاً بلا توقّف، يستحوذُ على غلافك الجسدي، وسرعان ما لن يترك منك أيّ شيءٍ سوى ذكرى محلّقة بحرّيةٍ في عالم الماضي، بإمكانك أن تلتفت إليها كما تلتفتُ إلى معايشات شخصٍ غريب عنك كلياً.

وفهمتُ: "إنه الجدّ الأعلى، الذي بُعِثَ فيك".

طفتْ أمام ناظري صورٌ لمناطق وأرياف مجهولة ذات طابعٍ غريب، وكان ظهورها يزدادُ تواتراً وديمومةً يوماً بعد يوم، حينما تتوهُ عيناي في ضباب السماء. كنتُ أسمعُ كلماتٍ ألتقطُها بعضوٍ داخلي، والغريب أنني لم أكنْ أفهمُها؛ كنتُ أستوعبُها كما تستوعبُ التربة البذور وتحتفظُ بها، لتعمل على إنضاجها ولكن بعد وقتٍ طويل؛ كنتُ أفهمُها كشيءٍ يشعرُ معه المرء بما مفاده: "سوف تفهمُها في الحقيقة ذات يوم".

كانتْ هذه الكلمات تصدرُ عن أفواه أناسٍ بملابس غريبة، بدوا لي معارف قدامى، مع أنه يستحيلُ أن أكون قد رأيتهم سابقاً في هذه الحياة. كانت الكلمات موجّهةً إليّ، ومع ذلك كان منشؤها يعودُ إلى الماضي البعيد؛ فقد كانتْ فجأةً حاضراً مولوداً من الماضي من جديد.

رأيتُ جبالاً مغطّاة بالثلوج تعانقُ السماء، قممُها الجليدية تعلو فوق تشكّلات الغيوم على نحوٍ غير محدود. إنه "سقف العالم"، قلتُ لنفسي "التيبت الغامضة والمنطوية على الأسرار". ثم من جديد برارٍ لا نهاية لها مع قوافل من الجمال، أديرةٌ آسيوية مغرقة في العزلة، كهنةٌ في أرديةٍ صفراء يحملون بأيديهم دواليب الصلاة*، صخورٌ منحوتٌ فيها تماثيلُ ضخمة لبوذا في وضعية الجلوس، مجاري أنهار تبدو قادمة من اللانهاية لتصبّ في اللانهاية - ضفافُها روابٍ وتلال من التربة الناعمة، وقممُها منبسطة، منبسطةٌ كموائد، منبسطةٌ كما لو أن منجلاً عملاقاً قد جزّها.

* أو أسطوانة الصلاة، وهي أداة على شكل وعاء أسطواني الشكل قابل للتدوير حول محور، تُستخدَم في التيبت كبديل ميكانيكي لتلاوة الأقوال المقدّسة (المترجم).

خمّنتُ: "لا بد أنها مناطق وأشياء وبشر، كان الجدّ الأعلى قد رآها، حينما كان لا يزال يتجوّلُ في الأرض. والآن، حيث حلّ فيّ، تغدو ذكرياته ذكرياتي أنا أيضاً".

عندما كنتُ أصادفُ أيام الآحاد شباباً في مثل سنّي، وأكونُ شاهداً على حالة العشق التي يعيشونها وعلى إقبالهم الفرِح على الحياة، كنتُ أفهمُ حق الفهم ما كان يدورُ في دواخلهم، أما في داخلي أنا فكانتْ برودةٌ خالصة.

هي ليست برودة الجمود، التي تمثّل ظاهرةً مؤقتة لألمٍ يجمّد أعماق الإحساس من البرد، ولا برودة وهن الحياة في الشيخوخة. -

كنت أشعرُ حقاً بالقديم قدم الدهر في داخلي بقوّةٍ وديمومةٍ لم أعهدْهما من قبل، وعندما كنتُ أرى نفسي في المرآة، غالباً ما كان يتملّكني الذعر من أن وجهاً فتيّاً ينظرُ إليّ، - وجهاً لم يكنْ يحمل أيّ شيءٍ واهن أو هرم؛ فالموت لم يكنْ قد حلّ سوى بالرباط الذي يقيّدُ الإنسان بمسرّات الأرض، وكانت البرودة تصدرُ عن مناطق غريبةٍ عني، عن عالمٍ جليدي، هو موطن روحي.

لم يكنْ باستطاعتي آنذاك تقدير الحالة التي اعترتْني؛ كنتُ أجهلُ أن الأمر كان واحدةً من حدثيات التحوّل الغامضة السحرية تلك، التي غالباً ما يجدُها المرء في توصيفات حياة القدّيسين الكاثوليكيين وغيرهم، من دون أن يستوعب أعماقها وحيويتها المهمّة.

ولأني لم أكن أحسُ بأيّ شوقٍ إلى الله، لم يكنْ لديّ أيّ تفسيرٍ لذلك الأمر، ولم أبحثْ عنه أيضاً. كنتُ معفىً من ذلك الشوق والتعطّش الحار الذي لا يرتوي، الذي يتكلّمُ عنه القدّيسون، والذي يحرقُ كلّ شيءٍ

دنيوي، كما يقولون، إذ إن كلّ ما كان لي أن أتشوّق إليه: هو أن أحمل "أوفيليا" في داخلي كيقينٍ من قربها الدائم. لقد مرّتْ عليّ معظم وقائع الحياة الخارجية من دون أن تترك أثراً في ذاكرتي؛ فصور ذلك الزمن تقبعُ أمامي كطبيعةٍ قمرية ميتة ذات فوّهاتٍ بركانية هامدة لا يصل فيما بينها أيّ دربٍ أو أيّ ممرّ.

لا أستطيعُ أن أتذكّر ما تكلّمنا فيه والدي وأنا، لقد انكمشتِ الأسابيع وتقلّصتْ إلى دقائق بالنسبة إلي، وطالت الدقائق إلى سنين؛ فالآن، حيث أستخدمُ اليد الكاتبة لشخصٍ غريب كي أجعل الماضي يمرُّ بي ثانيةً، يبدو من المنطقي أنني قد جلستُ على مقعد الحديقة أمام قبر أوفيليا طوال سنوات؛ - وحلقات سلسلة الأحداث، التي يمكن قياس الزمن عليها، تبدو معلّقةً في الهواء كلّ على حدة بالنسبة إلي.

هكذا، أنا أعلمُ أن الساقية التي كانتْ تديرُ مخرطة معلّم الخراطة، قد انقطعتْ ذات يوم، وأن أزيز الآلة كان قد توقّف مُفسحاً المجال لصمت القبور في الزقاق؛ - ولكن متى حدث ذلك؟ هل حدث صباح تلك الليلة أم فيما بعد؟ هذا يبدو كالمطموس في داخلي.

أعرفُ أنني كنت قد زوّرتُ توقيع والدي، وقد أخبرتُه بذلك؛ ولا بد أن هذا قد حدث من غير أيّ انفعال، إذ إنني لا أذكرُ مثل هذا الأخير. كما أنني لم أعدْ أعرفُ الأسباب التي دفعتني إلى فعل ذلك. ما أذكرُه فقط، وبشكلٍ مبهم جداً، أنني أحسستُ بشيءٍ من الفرح والسرور لأنه لم يعدْ بيني وبينه أيّ سرّ؛ - وفيما يخصُّ الناعورة أو الساقية المتوقّفة لا يطفو في داخلي سوى الإحساس بأنني كنتُ سعيداً لإدراكي أن معلّم الخراطة المسنّ قد توقّف عن العمل.

غير أنني أعتقدُ أنني شخصياً لم أمتلكْ كلا الشعورين إطلاقاً - فقد انتقلا من روح أوفيليا إليّ ليس إلاّ -، بمثل هذا الشحوب والموت بالنسبة إلى كلّ ما هو إنساني تمثُل أمامي صورة كريستوفر تاوبنشلاغ الآن. -

لقد كانت تلك الفترة التي أثّر في خلالها اسم "تاوبنشلاغ"[5] الذي كان يرفرفُ حولي كنبوءةٍ من فم القدَر، حيث كنتُ قد صرتُ بالحرف الواحد: برج حمامٍ عديم الحياة، مكاناً تسكنُ فيه أوفيليا والجدّ الأعلى والقديم قدم الدهر، الذي يُسمّى كريستوفر.

في حوزتي الكثير من المعارف التي لم تردْ في الكتب أبداً؛ لم يخبرْني بها أحدٌ في أيّ وقت، ومع ذلك هي حاضرة. والحق أنني أُرجِعُ استفاقتها إلى ذلك الوقت الذي تحوّل فيه شكلي الخارجي كما في نوم الموت الظاهري من غلاف الجهل إلى وعاء المعرفة.

كنتُ أعتقدُ آنذاك، مثلما اعتقدَ والدي حتى مماته، أن النفس قد تزدادُ خبرةً، وأن الحياة في الجسد تخدمُها لهذا الغرض. وكنتُ قد فهمتُ تنبيهَ الجدّ الأول بهذا المعنى كذلك. واليوم أعرفُ أن نفس الإنسان عليمة وقديرة منذ البدء، وأن الشيء الوحيد الذي يمكن للإنسان أن يفعله من أجلها هو: تذليلُ وإزالة كلّ العوائق التي تقفُ في طريق تفتّحها وانطلاق قواها. - هذا إنْ كان ثمة شيء أصلاً يقع في نطاق فعله!

إن السرّ الأعمق لكلّ الأسرار واللغز الأشد خفاءً لكلّ الألغاز، هو التحوّل الخيميائي لـ الشكل.

---

[5] Taubenschlag تعني برج الحمام (المترجم).

هذا ما أقولُه لك، أنت يا من أعرتَني يدك، وذلك تعبيراً مني عن الشكر والامتنان على أنك تكتبُ نيابةً عني! إن الطريق الخفيّة إلى الولادة الثانية في الروح، والتي جاء ذكرها في الكتاب المقدّس، هي تحوّل الجسد وليس الروح. الروح تتمظهر وفق طبيعة الجسد؛ - فهي تنحتُ فيه وتعملُ عليه باستمرار، مستخدمةً القدَر كأداة؛ كلما كان الشكل أشدّ تصلّباً وجموداً وأقلّ كمالاً، كانتِ طبيعة إلهام الروح أشد تصلّباً وجموداً وأقلّ كمالاً؛ وكلما أصبح الشكل أكثر طاعةً ورهافةً، تجلّت الروح بتنوّعٍ أكبر.

الله وحده، الروح الكلّية، هي من تحوّلُه وتروِّحنُ الأعضاء وتسمو بها، بحيث لا يوجِّهُ الإنسانُ الأول، القابعُ في العمق، صلاته نحو الخارج، بل يقدّسُ شكله الخاص عضواً عضواً، كما لو أن الألوهة تسكنُ في كلّ جزءٍ كصورةٍ تظهر بشكلٍ مختلف...

ولا يتجلّى تغيّر الشكل، الذي أعنيه، للعين الخارجية، إلاّ عندما تنتهي حدثية التحوّل الخيميائي؛ فهي تتّخذُ بدايتها في الخفاء: في التيّارات المغناطيسية التي تحدّدُ نظام أقطاب البنية الجسدية، - تتحوّلُ أولاً طريقة تفكير الإنسان وميوله وغرائزه، يتلوها تحوّلُ الأفعال ومعها تحوّلُ الشكل، إلى أن يغدو هذا الأخير جسدَ قيامة البشارة.

واقع الحال أشبه بتمثالٍ من الجليد يبدأ بالذوبان من الداخل إلى الخارج. سوف يأتي اليوم الذي يُعادُ فيه تأسيس علم الخيمياء هذا لأجل كثيرين؛ فقد رقدَ كالميت، ككومةٍ من الأنقاض، والتنسّكُ الجامد في الهند هو أطلاله.

كما قلتُ، كنتُ قد أصبحتُ تحت التأثير المحوِّل للجدّ الأول آلةً ذاتية الحركة باردة الحواس؛ وبقيتُ كذلك حتى يوم "ذوباني مع الجثّة" .

إن أردتَ أن تفهم كيف كنتُ وقتذاك، يجب عليك أن تقيّمني كبرج حمامٍ عديم الحياة، تدخلُ إليه الطيور وتخرجُ منه، من غير أن يشارك في حركتها؛ لا يجوز لك أن تقيسني بمقاييس البشر، الذين لا يعرفون سوى أمثالهم.

10

المقعد في الحديقة

يُشاعُ في البلدة أن معلّم الخراطة موتشلكناوس قد أُصيبَ بالجنون.

تغلبُ على وجه السيدة أغلايا ملامحُ الحزن. هي تذهبُ في الصباح الباكر إلى السوق ومعها سلّة يدٍ صغيرة للتسوّق بنفسها، ذلك أنها استغنتْ عن خادمتها. ويزدادُ ثوبها اتّساخاً وإهمالاً يوماً بعد يوم؛ كما استُهلك كعبا حذائها أيضاً. تتوقّفُ أحياناً في الشارع كمن أعيتْه الحيلة وحارَ في أمره من كثرة الهموم، وتتكلّمُ مع نفسها بصوتٍ منخفض.

حينما أصادفُها، تشيحُ ببصرها، أم أنها لم تعدْ تعرفني؟ وهي تقولُ باختصار لكلّ من يسألها عن ابنتها: هي في أمريكا.

ها قد مضى آخر الصيف، ثم الخريف والشتاء، ولم تقعْ عيناي مرةً واحدة على معلّم الخراطة. والحق أنني لم أعدْ أعرفُ ما إذا مرّتْ سنوات منذ ذلك الحين، أم توقّف الزمن، أم أن شتاءً واحداً بدا لي بهذا الطول اللانهائي؟ –

ما أشعرُ به فقط: لا بد أن الربيع على الأبواب، إذ إن الهواء مثقَلٌ بعبير الأزهار الخيَمية، والدروب مفروشة بطبقةٍ من الأزهار إثر العاصفة الرعدية. ثمة غناءٌ في الجوّ. ومن فوق أرصفة النهر تتدلّى

حتى المياه فروعُ الورد البرّي المتسلّق، بينما يحملُ النهر الرغوة الناعمة لباقاته ذات اللون الأحمر الفاتح من حجرٍ مربّع إلى آخر من غير جهد، وصولاً إلى دعائم الجسر، حيث تزيّنُ الجذوعَ الهشّة المتداعية، فتبدو وكأنها تحيا من جديد. ويسطعُ العشب في الحديقة أمام المقعد لامعاً كالزمرّد.

حينما أذهبُ إلى هناك، غالباً ما أتبيّنُ في مختلف التغيّرات الطفيفة، أن أحداً كان هناك قبلي؛ فتارةً تقبعُ أحجارٌ صغيرة على المقعد على شكل صليبٍ أو دوائر، كما لو أن طفلاً كان يلعبُ بها، ومرةً أخرى أجدُ وروداً مبعثرةً هنا وهناك.

ذات يوم، وأنا أعبرُ الممرّ، صادفتُ معلّم الخراطة المسنّ قادماً من الحديقة، وخمّنتُ أنه هو الذي اعتاد الجلوس على المقعد، حين أكونُ غائباً. ألقيتُ عليه التحية، إنما بدا أنه لم يلاحظْني، على الرغم من أن ذراعه مسّ ذراعي. كان ساهم النظرة وتعلو وجهه ابتسامةٌ صغيرة.

بعد ذلك بقليل اتّفق أن التقينا في الحديقة.

جلس بجانبي بصمت، وشرع يخطُّ بعصاه اسم أوفيليا في الرمل الأبيض. جلسنا على هذا النحو مدةً طويلة، وكنتُ في حالةٍ من الاستغراب الشديد؛ ثم شرع فجأةً يدمدمُ بصوتٍ خافت، ولاح لي في البداية كما لو أنه يتكلّم مع نفسه أو مع شخصٍ غير مرئي؛ ورويداً رويداً أصبحت الكلمات مفهومةً لي:

"أنا سعيد لأننا أنا وأنت فقط نأتي إلى هنا! حسنٌ أن أحداً غيرنا لا يعلمُ بهذا المقعد".

كنتُ أصغي مشدوهاً. لقد خاطبني رافعاً الكلفة بصيغة المفرد؟ – هل خلط بيني وبين شخصٍ آخر؟ أم كان مضطرب الذهن؟ هل نسيَ

بأيّ خضوعٍ وتذلّل كان يتعاملُ معي في السابق؟ ماذا قصد عندما قال: "حسنٌ أن أحداً غيرنا لا يعلم بهذا المقعد"؟.

فجأةً اتّضح لي قربُ أوفيليا كما لو أنها انتصبتْ أمامنا. والحق أن هذا الأمر قد هزّ الرجل المسنّ أيضاً، إذ إنه رفع رأسه بسرعةٍ وومض شعاعٌ من السعادة في ملامح وجهه.

دمدم: "أتعرفُ، هي هنا دائماً! ترافقُني شوطاً من هنا نحو المنزل، ثم تعودُ أدراجها، وقد قالتْ لي إنها هنا تنتظرك. قالتْ إنها تحبّك!".

وضع يده على ذراعي بتودّد، وأطال النظر في عينيّ سعيداً، ثم أضاف بصوتٍ خافت:

"أنا سعيد لأنها تحبّك".

حُرْتُ بداية بِمَ أجيب، ثم تلعثمتُ بقولي: "ولكن ابنتك - ولكن ابنتك في أمريكا؟".

قرّبَ الرجل المسنّ شفتيه من أذني وهمس بشكلٍ سرّي: "هسّ! كلا! هذا ما يظنُّه الناس وزوجتي فقط. فهي قد ماتتْ! إنما لا يعرفُ بهذا الأمر سوى اثنين: أنت وأنا! فقد قالتْ لي إنك أنت أيضاً تعرفُ هذا؛ حتى السيد باريس لا يعلمُ بالأمر" - لاحظ دهشتي، فأومأ برأسه وكرّر بحماس: "نعم، لقد تُوفِّيتْ! ولكنها ليستْ ميتة؛ فقد أشفق علينا ابن الله، الدومينيكاني الأبيض، وسمح لها بالبقاء معنا!".

أوقِنُ أن الحالة العقلية العجيبة، التي تدعوها الشعوب البدائية بالجنون المقدّس، قد استحوذتْ على الرجل المسنّ. فقد أصبح طفلاً، يلعبُ بالحجارة كطفل، يتكلّم بسذاجةٍ وصراحة كطفل، بيد أن تفكيره بصير.

أسألُ: "ولكن كيف اتّفق أنك علمتَ بكلّ شيء؟".

أخذ يروي لي: "كنتُ أعملُ على المخرطة في الليل، فإذا بالناعورة تتوقّفُ فجأةً، ولم أستطعْ تدويرها أبداً. ثم غطّيتُ في النوم على الطاولة. وفي الحلم رأيتُ أوفيليتي. وقد قالتْ لي: "أبي، لا أريدُك أن تعمل. أنا ميتة. والنهر يأبى أن يحرّك الناعورة، وسوف أضطرُ أنا إلى فعل ذلك، إن أنت لم تتوقّفْ عن العمل. توقّفْ، أرجوك! وإلاّ كنتُ مضطرّةً إلى المكوث دائماً خارجاً عند ضفّة النهر ولا يمكنني الدخول إليك".

ثم عندما استيقظتُ، هرعتُ على الفور، في الليلة نفسها، إلى كنيسة مريم. كانت الظلمة حالكة والسكون مطبقاً. ولكن الأرغن كان يعزف في الداخل. كنتُ أظنّ أن الكنيسة مغلقةٌ ولا يمكن الدخول إليها. ولكنني فكّرتُ عندئذ في أنني إذا كنتُ أشكّك في ذلك، فلا يمكنني الدخول بالطبع، وتوقّفتُ عن الشكّ في ذلك. كانت العتمة شديدة في الداخل، ولكن لأن جبّة الدومينيكاني الأبيض كانت ناصعة البياض كالثلج، استطعتُ رؤية كلّ شيء، من مكاني أسفل تمثال النبي يونس.

كانتْ أوفيليا تجلسُ بجانبي، وشرحتُ لها كلّ ما قام به القدّيس، الأبيضُ العظيم. فقد تقدّم إلى أمام الهيكل بدايةً ووقف هناك وذراعاه مبسوطتان مثل صليبٍ كبير، وحذتْ حذوه تماثيلُ كلّ القدّيسين والأنبياء، الواحد تلو الآخر، إلى أن باتت الكنيسة مليئة تماماً بصلبانٍ حيّة.

ثم توجّه صوب صندوق الآثار التذكارية الزجاجية ووضع شيئاً في داخله، شيئاً بدا أشبه بحصاةٍ سوداء صغيرة.

قالتْ ابنتي أوفيليا: "إنه دماغك المسكين، أبي؛ فقد حجزه الآن في خزانة النفائس خاصته، إذ إنه لا يريدُك أن ترهق نفسك في التفكير لأجل خاطري أكثر من ذلك. وإذا استرجعتَه ذات يوم، سيكون حجراً كريماً".

في الصباح التالي وجدتُ نفسي مدفوعاً للمجيء إلى المقعد، من دون إدراك السبب. أنا أرى أوفيليا هنا يومياً. وهي تخبرُني كم هي سعيدة، وكم هو الوضع جميل في الجانب الآخر في أرض الأبرار والصالحين. والدي صانع التوابيت هو هناك أيضاً، وقد غفر لي كلّ شيء. لم يعدْ غاضباً عليّ لأنني أحرقتُ الغراء بسبب ولدنتي.

تقولُ أوفيليا إنه عند حلول المساء في الفردوس، ينعقدُ هناك مسرح، ويتفرّجُ الملائكة كيف تقومُ بدور أوفيليا في مسرحية "ملك الدانمارك" وتتزوّجُ في الختام من وليّ العهد، ويفرحون جميعاً لأنها تجيدُ ذلك. "والفضل يعود لك، أبي"، تقول دوماً، "إذ إنك أتحتَ لي تعلّم ذلك على الأرض. وقد كانتْ أشدّ أمنياتي حرارةً أن أصبح ممثّلة، وقد حقّقتَها لي، أبي!"".

يصمتُ الرجل المسنّ ويتطلّعُ هائماً إلى السماء. أشعرُ بطعمٍ كريه على لساني. هل يكذبُ الأموات؟ أم إنه يتخيّل كلّ هذا ليس إلاّ؟ لماذا لا تخبرُه أوفيليا الحقيقة بصورةٍ لطيفة وخفيفة اللهجة، إذا كانتْ قادرة على إخباره؟

وبدأتْ تنهشُ في قلبي الفكرةُ المخيفة المتمثّلة في أن عالم الكذب قد يمتدّ إلى العالم الآخر. فإذا بالمعرفة تومضُ في ذهني؛ ويهزّني قربُ أوفيليا بقوةٍ بدائية، إلى درجة أدركُ معها الحقيقة فجأةً وأعرف: أن مَن

يراها الرجلُ المسنّ ويتكلّمُ معها، ليست سوى صورتها، وليست هي بشخصها.

إنها ولادةٌ كاذبة وهمية لأمنياته المضمَرة طويلاً؛ فقلبه لم يصبحْ بارداً كقلبي، لذلك يرى الحقيقة مشوَّهة.

يبدأ الرجل المسنّ من جديد: "الأموات قادرون على صنع المعجزات، إذا أذنَ الله بذلك؛ يمكنهم أن يصبحوا أحياء من لحمٍ ودم ويجولون وسطنا. أتعتقدُ ذلك؟!". يسألُ بصوتٍ هو من الحزم إلى حد كاد يكون له وقع التهديد.

أجيبُه جواباً ملتوياً: "لا أرى أيّ شيءٍ مستحيلاً".

يبدو الرجل المسنّ راضياً، ويصمت. ثم لا يلبثُ أن ينهض وينصرف. من دون إلقاء التحية. ثم يعودُ أدراجه بعد لحظة، ويقفُ أمامي ويقول: "كلا، أنت لا تعتقد ذلك! أوفيليا تريدُك أن ترى بنفسك وتعتقدُ بذلك. تعالَ!". يمسكُ بيدي كما لو أنه يريدُ أن يسحبني معه. يتردّد. ينصتُ إلى الهواء كما لو أنه يستمعُ إلى صوت. "كلا، ليس الآن. اليوم ليلاً" – دمدم بينه وبين نفسه شارد الذهن؛ "انتظرْني الليلة هنا!".

ينصرف. أتبعُه بنظري وهو يتلمّسُ طريقه، مترنّحاً كالثمل، على امتداد جدار المنزل. لستُ أدري بِمَ عليّ أن أفكّر أو ماذا أتصوّر.

11

رأس ميدوزا[6]

نجلسُ حول طاولةٍ في غرفةٍ صغيرة وفقيرة على نحو لا يوصف: معلّمُ الخراطة موتشلكناوس، وخيّاطةٌ حدباء قصيرة القامة، يُقال عنها في البلدة إنها ساحرة، وامرأةٌ مسنّة بدينة ورجلٌ طويل الشعر، لم يسبقْ أن رأيتهما يوماً، وأنا.

---

[6] رأس ميدوزا (Medusenhaupt): ميدوزا هي ربّة الحكمة والثعابين الأمازيغية في الميثولوجيا الإغريقية. كانت فتاة ذات جمالٍ باهر إلى أن وقعت في حبّ بوزيدون، وارتكبت معه الخطيئة في معبد أثينا. وعندما وصل الخبر إلى أثينا، غضبت عليها وحوّلتها إلى امرأةٍ قبيحة وحوّلت شعرها إلى ثعابين. راحت ميدوزا تصبّ نقمتها على كل من يقابلها أو حتى ينظر إليها، وتحوّله إلى حجر. أنجبت ميدوزا من بوزيدون ابنتين لهما قدرة الأم نفسها على تحويل كل من ينظر إليهما إلى حجر. وحينما عجز الجميع عن التخلّص من ميدوزا، تمكّن برسيوس من القضاء عليها بمساعدة درع الإلهة أثينا وهرمس رسول الآلهة، فقطع رأسها وأهداه لـ أثينا. بقي رأس ميدوزا بعد ذلك على درع منيرفا "إلهة الحكمة" محتفظاً بقدرته على تحويل كل من ينظر إليه إلى حجر (المترجم).

ثمة سراجٌ مشتعل، زجاجه أحمر اللون فوق خزانة؛ وإلى الأعلى منه هناك صورة ورقية فاقعة الألوان معلّقة على الجدار، تمثّلُ والدة الإله، وقلبها مطعونٌ بسبعة سيوف.

يقولُ الرجل ذو الشعر الطويل: "دعونا نصلّي"، ويضربُ على صدره ويُرغي بالصلاة الربّانية.

يداه نحيلتان بلونٍ أبيض مصفرّ كأيدي المدرّسين الفقراء شاحبي اللون؛ وقدماه العاريتان تنتعلان صندلاً.

تتنهّدُ المرأة البدينة وتبلعُ ريقها، كما لو أنها على وشك الانفجار بكاءً في كلّ لحظة.

يقولُ الرجل ذو الشعر الطويل بجملةٍ واحدة: ""لأن لك المُلْكَ والقوة والمجدَ إلى الأبد. آمين"*، نشكّلُ السلسلة ونغنّي، فالأرواح تحبُّ الموسيقا".

نمسكُ بأيدي بعضنا البعض فوق قرص الطاولة، ويبدأ الرجل والمرأة بترنيم ترتيلةٍ بصوتٍ خافت.

صحيح أن كليهما ينشدان بصورةٍ رديئة، ولكن صوتيهما ينمّان عن خشوعٍ وتأثّرٍ حقيقيين، إلى حد أنني شعرتُ بالتأثّر لاإرادياً.

أما موتشلكناوس فهو جالسٌ بلا حراك؛ عيناه تشعّان من شدّة الترقّب بغبطة.

تصمتُ الأغنية الورعة.

غطّتْ الخيّاطة في النوم؛ فأنا أسمعُ أنفاسها المتحشرجة. وقد أرقدتْ رأسها بين ذراعيها على الطاولة.

---

* إنجيل متى 6:13 (المترجم).

ثمة ساعة تتكتكُ على الحائط؛ وكلّ شيءٍ آخر صامتٌ صمت القبور.

يقولُ الرجل: "لا توجدُ طاقةٌ كافية هنا"، ويرمقُني بنظرة لوم، كما لو أنني أنا السبب في ذلك.

فإذا بصوت صريرٍ في الخزانة أشبه بصوت خشبٍ يتشقّق.

يهمسُ الرجل المسنّ منفعلاً: "إنها قادمة!".

"كلا إنه فيثاغورس"، يُفهمُنا الرجل ذو الشعر الطويل.

تبلعُ المرأة البدينة ريقها. ويُسمَع هذه المرة صوتُ صريرٍ وطقطقة في الطاولة، وتبدأ يدا الخيّاطة بالارتجاف بشكلٍ رتيب، كما لو أنهما ترتجفان على إيقاع ضربات قلبها. ترفعُ رأسها للحظة - قزحيتا عينيها مقلوبتان نحو الأعلى تحت جفنيها ولا يُرى سوى بياض العينين -، ثم تخفضُه ثانيةً.

رأيتُ ذات مرةٍ كلباً صغيراً يحتضر؛ وكانت حاله مشابهه تماماً؛ وأشعرُ أنها تخطّتْ عتبة الموت. وينتقلُ رجفان يديها الإيقاعي إلى الطاولة، كما لو أن حياتها دلفتْ إليها.

أشعرُ بنقْرٍ خافت في الخشب تحت أصابعي أشبه بفقاعاتٍ تتصاعدُ وتُفرقع. وتصدرُ عنها برودةٌ كالثلج حينما تفقع، ثم تنتشرُ لتبقى محلّقةً فوق قرص الطاولة.

يقولُ الرجل ذو الشعر الطويل مشدّداً: "إنه فيثاغورس!".

تدبُّ الحياة في طبقة الهواء الباردة فوق الطاولة وتبدأ بالدوران؛ فأجدُ نفسي مضطرّاً إلى التفكير في "ريح الشمال القاتلة"، التي تكلّم عنها والدي إلى القسّ في منتصف تلك الليلة وقتذاك.

تهزُ الغرفةَ فجأةً ضربةٌ قوية: الكرسي التي كانتْ تجلسُ عليه الخيّاطة يتكسّر؛ فتنطرحُ الخيّاطة على الأرض بكامل طولها.

يقومُ الرجل والمرأة برفعها ووضعها على مقعدٍ بالقرب من المدفأة؛ وعندما أسألهما: "ألم تؤذِ نفسها؟" يهزّان رأسيهما، ثم يجلسان إلى الطاولة ثانيةً.

لا أستطيعُ أن أتبيّن من مكاني سوى جسد الخيّاطة، فوجهها يغطّيه ظلّ الخزانة.

تمرُ عربة نقلٍ في الأسفل أمام المنزل، ترتجفُ الأيدي؛ بيد أنه من الغريب أن اهتزاز الجدران يستمرُ حتى بعد مدةٍ طويلة من ابتعاد العربة وتلاشي دوران عجلاتها.

أم أن ظنّي مخطئ؟ أمِن المحتمل أن حواسّي قد أصبحتْ أشدّ حدّةً وبإمكانها إدراك ما كان يفوتُها عادةً: الاهتزاز الارتدادي للأشياء، الذي يخبو بعد مدة أطول بكثيرٍ مما يُعتقَدُ عموماً؟

أضطرُ في بعض الأحيان إلى إغماض عينيّ من شدّة تأثير ضوء السراج الأحمر فيَّ؛ فحيثما يقعُ تتمدّد أشكال الأشياء وتتداخل المعالم بعضها ببعض؛ وجسد الخيّاطة يشبهُ كتلةً رخوة؛ فقد انزلقتْ من على المقعد إلى الأرض.

عقدتُ العزم على عدم رفع نظري إلى أن يحدث أمرٌ حاسم؛ أريدُ أن أظلّ مالكاً زمام حواسّي. أشعرُ بالتحذير الداخلي: كنْ على حذر! ثمة سوء ظنٌ عميق كما لو أن شيئاً خبيثاً على نحوٍ شيطاني، كائناً فظيعاً وكأنه تخثّر من سمٍ في الغرفة. وتخطرُ لي كلماتٌ من رسالة أوفيليا بوضوحٍ شديد، إلى حد أنني أكاد أسمعها: "سأكونُ معك وأحميك من أيّ خطر".

فإذا بالثلاثة ينادون بصوتٍ واحد : "أوفيليا !" .

أرفعُ نظري وأرى: ثمة مخروطٌ سديمي من ضبابٍ دوّار يحلّق فوق جسد الخيّاطة وذروته نحو الأعلى، وهناك مخروطٌ آخر مشابه يهبطُ من السقف وذروته نحو الأسفل ويتحسّسُ المخروط الأول، إلى أن يتّصلا على هيئة ساعةٍ رملية بحجم إنسان.

ثم يصبحُ الشكل واضح المعالم دفعةً واحدة - مثل صورةٍ غائمة يلقيها جهاز إسقاط، فيقومُ أحدهم بضبط وضوحها فجأةً بكلّ دقةٍ، - وتمثُل أمامنا أوفيليا شخصياً وواقعياً .

والحق أنها كانتْ من التجسّد والوضوح، إلى حد أنني أردتُ أن أطلق صيحةً وأهرع إليها .

ولكن نداء خوفٍ داخلي - في صدري -، صرخة خوفٍ مزدوجة من صوتين اثنين تردعُني في آخر لحظة.

"قوِّ قلبك، كريستوفر!" .

تدوّي في داخلي عبارة "قوِّ قلبك!" كما لو أن الجدّ الأول وأوفيليا صاحا في وقتٍ واحد واختلط صوتاهما .

يخطو الشبح متقدّماً نحوي بوجهٍ مشرق. كلّ ثنيةٍ في الثوب كما كانت في الحياة بالضبط. تعبير الوجه نفسه، العينان الجميلتان الحالمتان ذاتهما، الأهداب السوداء الطويلة، الحاجبان دقيقا القسمات، اليدان البيضاوان الدقيقتان، - وكذلك فإن الشفتين حمراوان وتضجّان بالحيوية. - باستثناء الشعر، فهو مستورٌ بحجاب. تميلُ عليّ بحنوّ، وأشعرُ بدقّات قلبها؛ تقبّلُ جبيني وتطوّقُ عنقي بذراعيها . - تتغلغلُ فيّ حرارةُ جسدها . - أقولُ لنفسي: "لقد عادت إلى الحياة! ما من شكٍّ في ذلك!" .

أفيضُ حيويةً، ويبدأ سوء الظنّ بإخلاء المكان لشعورٍ لذيذ بالسعادة، بيد أن صوت أوفيليا لا يزال يصرخُ في داخلي بقلقٍ متزايد؛ إنه أشبه بفركِ يدين يائسٍ وعاجز:

"لا تتركْني! ساعدْني! ... هو يلبسُ قناعي ليس إلاّ!" - أعتقدُ أن هذا ما فهمتُه من كلامها أخيراً، ثم يختنقُ الصوت وكأنه يختنقُ خلف قطعة قماش.

"لا تتركْني!؟" كان هذا نداء استغاثة! وقد مسّني في الصميم.

كلا، أوفيليتي، يا من تسكنين في داخلي، لن أتركك! أعضُ على أسناني وأشعرُ بالبرد، - بالبرد الناجم عن سوء الظنّ وفقدان الثقة.

أتساءلُ بيني وبين نفسي: "من هو هذا الـ "هو" الذي يُفترَض أنه يلبسُ قناع أوفيليا؟"، وأحدّقُ في وجه الهيئة الشبحية متفحّصاً: فإذا بتعبيرٍ صنمي لانعدام الحياة الحجري يهفُ على وجه الشبح، وتتقبضُ حدقتاه كما لو أن ضوءاً سقط عليهما.

كان ذلك أشبه بتهرّبٍ خاطف لكائنٍ يخشى أن يُعرَف؛ ولكن على الرغم من حدوثه بهذه السرعة، إلاّ أنني رأيتُ في عينيّ الشبح، للحظة، صورة دقيقة لرأسٍ غريب، بدلاً من أن أرى صورتي أنا.

بعد لحظة ابتعدتْ عني الهيئةُ الشبحية، وحلّقتْ بذراعين ممدودتين صوب معلّم الخراطة، الذي طوّقها بذراعيه وغمر وجنتيها بالقبلات، وهو يذرفُ دموع المحبة والسعادة.

يتملّكني ذعرٌ لا يوصف. أشعرُ كيف يقفُ شعري من الفزع. الهواء الذي أتنفّسه يشلُ رئتيّ كنسيمٍ بارد كالثلج. صورة الرأس الغريب تحلّقُ أمامي ضئيلةً كرأس إبرة، ومع ذلك أشدّ وضوحاً وحدّةً من كلّ ما يمكن أن تراه عين.

أطبقُ جفوني وأسجّلها في مخيّلتي. الوجه مُدار نحوي باستمرار ويحاولُ التملّص والإفلات؛ فيتوهُ كشرارةٍ في مرآة، ثم أرغمُه على التوقّف، ويشرعُ كلّ منا يحدّقُ في الآخر.

إنه وجه كائنٍ أنثويّ الملامح، وفي الوقت نفسه وجه شاب، وجه ذو جمالٍ غريب على نحو لا يوصف. العينان لا قزحية لهما، فارغتان كعيني تمثال من الرخام وتلمعان كحجر الأوبال.

حول الشفتين الرقيقتين الشاحبتين، المشدودتين للأعلى عند زاويتي الفم بثنياتٍ ناعمة، يكمنُ تعبيرُ قوةٍ مدمّرٍ خفيف يكاد لا يُرى، بيد أن استتاره هذا يجعله مخيفاً بشكلٍ مضاعف. - الأسنان البيضاء تبرقُ من خلال الجلد الرقيق رقة الحرير؛ وثمة ابتسامةٌ مروّعة في عظام الفكّين. أحسُّ بأن هذا الوجه هو البؤرة البصرية الفاصلة بين عالمين؛ ففيه تجتمعُ أشعة عالم إبادةٍ حقود، كما في عدسةٍ حارقة: تربضُ خلفه هوّة كلّ ذوبان، الهوّة التي يُعدّ ملاك الموت، عزرائيل، أضعف رموزها.

أسألُ نفسي بقلق: "ما هذه الهيئة التي تتظاهرُ بملامح أوفيليا؟ من أين جاءتْ، وأية قوةٍ كونية بعثتِ الحياة في صورتها؟ فهي تتبدّلُ وتتنقّلُ مفعمةً بالسحر والفتنة والطيبة، ومع ذلك فهي قناع قوةٍ شيطانية؛ - هل سيرمي العفريت الموجود فيها بالغلاف فجأةً ويبتسمُ لنا ابتسامة شماتةٍ بفظاعةٍ جهنّمية، لمجرد أن يخلّف وراءه بضع أشخاصٍ خسيسين في حالةٍ من اليأس والخيبة؟".

وأدركُ داخلياً: "كلا؛ فالشيطان يأبى أن يبوح بسرّه لغرضٍ تافه كهذا"؛ ولم أعدْ أعرفُ ما إذا كان القديم قدم الدهر هو الذي همسَ في داخلي، أم أن صوت أوفيليا النابض بالحياة في قلبي هو الذي تكلّم، أم

منهل المعرفة الصامت في طبيعتي الخاصة، ولكنني فهمت: "القوة اللاشخصية لكلّ شرٍ هي التي تمارسُ في الحقيقة لعبةً جهنّمية بمعنى المفارقة والتناقض، وفق قوانين الطبيعة الصامتة، ساحرةً أشياء مثيرةً للإعجاب. - إن من يلبسُ قناع أوفيليا هنا هو ليس كائناً يملأ حيّزاً مكانياً، - إنما هو الصورة السحرية للذاكرة داخل معلّم الخراطة، والتي تمظهرتْ وباتتْ ملموسةً في ظروف ماورائية لا نعرفُ مسارها ولا أساسها - ربما للغاية الشيطانية المتمثّلة في توسيع الفجوة الفاصلة بين عالم الأموات وعالم الأحياء أكثر فأكثر. - لا شكّ في أن نفس الخيّاطة الهيستيرية المسكينة، التي لم تتشكّلْ بعد في شكل شخصيةٍ متبلورة خالصة، قد أعارتْ، منبثقةً من جسد الوسيط ككتلةٍ مغناطيسية لدنة تشكيلياً، الغلافَ الذي خلقَ منه شوقُ معلّم الخراطة المسنّ ذلك الشبح. - إن رأس ميدوزا، رمز القوة المتحجّرة للانحطاط، يعمل هنا على التفاصيل، يأتي إلى الفقراء والمساكين مباركاً كالمسيح، ويتسلّلُ كلصٍ إلى أكواخ البشر ليلاً".

أرفعُ بصري: الشبح قد اختفى، والخيّاطة تتحشرجُ أنفاسها، ويداي لا تزالان على الطاولة؛ بينما شبكَ الآخرون أيديهم. - يميلُ موتشلكناوس نحوي ويهمس: "لا تقلْ إنها كانت ابنتي أوفيليا، ينبغي ألاّ يعلم أحد أنها ميتة؛ هم لا يعرفون سوى أنه كان ظهوراً لكائنٍ من الفردوس يحبُني".

يبدأ صوت الرجل ذو الشعر الطويل، وكأنه يردُ على اعتباراتي، موجّهاً الكلام إليّ بنبرةٍ منبريةٍ صارمة ككبير مدرّسين:

"اركعْ شاكراً لـ فيثاغورس، أيها الشاب! فقد توجّهتُ إليه عن طريق الوسيط بناءً على طلب موتشلكناوس كي يأذن بجلستنا هذه، بغية

شفائك من شكوكك! - لقد انفصل النجم الروحي فيكستوس في الكون وهو يطيرُ نحو أرضنا. - قيامة جميع الأموات قريبة. - والبشائر الأولى في الطريق سلفاً. سوف تجولُ أرواح الموتى بيننا كأمثالنا، وسوف تعودُ الوحوش الكاسرة لتقتات على العشب، كما كانتْ في جنّة عدن فيما مضى. - أليس كذلك؟ ألم يقلْ فيثاغورس هذا؟".

تنقُ المرأة البدينة موافقةً.

"أيها الشاب، دعْك من زخارف الدنيا وأباطيلها! لقد تجوّلتُ عبر أوروبا بكاملها (يشير إلى صندله) وأقولُ لك: ما من شارعٍ، ولا حتى في أصغر قرية، لا يوجدُ فيه اليوم أشخاصٌ أرواحيون. وسرعان ما سوف تجتاحُ الحركة العالم كلّه كفيضانٍ عارم. لقد انهارتْ سلطة الكنيسة الكاثوليكية، إذ إن المخلِّص يجيءُ بشخصه".

يومئُ كلٌ من موتشلكناوس والمرأة البدينة برأسه مسروراً، - فقد استشفّا من كلام الرجل رسالةً مُفرحة تبشّرُ بإرواء شوقهما؛ أما بالنسبة إلي فيتحول كلامه إلى نبوءةٍ في زمنٍ مخيفٍ قادم.

مثلما رأيتُ رأس ميدوزا في عينيِّ الشبح قبل قليل، أسمعُ الآن صوته من فم الرجل ذي الشعر الطويل؛ كلاهما يلبسان قناع السموّ والجلال. مَن يتكلّمُ هنا هو اللسان المنشطر لأفعى الظلام. يتحدثُ عن المخلِّص ويقصدُ الشيطان. يقول: الوحوش الكاسرة سوف تعود لتقتات على العشب! - وهو يقصدُ بالعشب طيّبي السريرة وسليمي النيّة - الكمّ الأكبر من البشر -، وبالوحوش الكاسرة: عفاريت اليأس.

أشعرُ أن المخيف في النبوءة هو أنها سوف تتحقّق! أما الأشدّ إخافةً، فهو أنها خليطٌ من الحقيقة والخبث الجهنمي! سوف تقومُ الأقنعة

الخاوية للأموات، إنما ليس الأموات المفتقَد إليهم، الراحلين الذين يبكيهم الأرضيّون! سوف يأتون إلى الأحياء راقصين، إنما لن يكون ذلك فجرَ مملكة الألف عام: - سوف يكونُ حفلة الجحيم الراقصة، سوف يكونُ ترقّباً فرحاً مرحاً بشكلٍ شيطاني لصياح ديك أربعاء رمادٍ هزلي مروّع لا نهاية له!

"أيُفترَض أن يبدأ منذ اليوم زمن اليأس بالنسبة إلى الرجل المسنّ وإلى الآخرين الذين يجلسون هنا؟ أتتمنّى هذا؟" - أسمعُ هذا كتساؤلٍ متهكّمٍ بصمت يدوّي في صوت ميدوزا، "لا أريدُ أن أمنعك، كريستوفر! تكلّمْ! - قلْ لهم، وأنت الذي تعتقدُ أنك أفلتَّ من جبروتي، - قلْ لهم إنك رأيتني في حدقتيّ الشبح، الذي صنعتُه من البذور السرطانية لثوب نفْس تلك الخيّاطة المتفسّخة وأخذ يتجوّل! - ألا قلْ لهم كلّ ما تعرفُه! أريدُ أن أعاضدك كي يصدّقوك!

يُرضيني أن تؤدي مهام خادمي. - كنْ بشيرَ الدومينيكاني الأبيض الكبير، الذي ينبغي أن يأتي بالحقيقة، كما يأملُ جدّك الأعلى الطيّب! - كنْ خادمَ الحقيقة الرائعة، ويطيبُ لي أن أساعدك في الصلْب! - قلْ لهؤلاء الحاضرين الحقيقة بشجاعة؛ ويسرّني سلفاً أن أرى مدى شعورهم بـ "الخلاص"!".

ينظرُ إليّ الأرواحيون الثلاثة بتشوّق، منتظرين أن أعطي الرجل ذا الشعر الطويل جواباً. أتذكّرُ الموضع في رسالة أوفيليا الذي رجتْني فيه أن أقف إلى جانب مربّيها وأساعده، فأتردّد: أعليّ أن أقول ما أعرف؟ ولكن نظرةً إلى عينيّ الرجل المسنّ اللامعتين من الغبطة، سلبتْ مني الشجاعة. وألتزمُ الصمت.

ما عرفتُه بفهمٍ سطحي حتى ذلك الحين، مثلما "يعرف" بنو آدم، يحرّكُ نفسي بكاملها الآن: المعرفة المهمة: الشرخ المخيف الذي يخترقُ الطبيعة بكاملها لا يقتصرُ على الأرض وحسب، - فالصراع بين الحبّ والكراهية، الشقاق بين الجنّة والنار، يتجاوز القبر ممتداً إلى عالم الأموات.

أشعرُ أن الأموات لا يستريحون حقاً إلاّ في قلوب من أصبحوا أحياء في الروح؛ فهناك فقط يجدون الراحة والملاذ؛ وإذا نامتْ قلوب البشر، نام فيها الأموات أيضاً؛ وإذا استفاقتْ القلوب روحياً، دبّت الحياة في الأموات كذلك، وشاركوا في عالم الظواهر، من دون أن يكونوا خاضعين للعذاب الملازم للوجود الأرضي.

يتملّكني شعور العجز والحيرة التامة فيما أنا أفكّر: ماذا عليّ أن أفعل، الآن، حيث بات في يدي أن أصمت أو أن أتكلّم؟ ماذا عليّ أن أفعل فيما بعد كرجلٍ ناضج، ربما كإنسان كامل، كإنسانٍ أصبح كاملاً بشكلٍ سحري؟ الزمن الذي سيجتاحُ فيه البشرية مذهبُ الوساطة الأرواحية كموجة طاعونٍ هو على الأبواب، هذا ما أشعرُ به شعوراً يقينياً. أتخيّلُ: "لا بد أن هوّة اليأس سوف تبتلعُ البشر، حينما يرون ذات يومٍ بعد نشوةٍ قصيرة من السعادة: الأموات الذين يخرجون من القبور يكذبون، يكذبون ويكذبون بشكلٍ أسوأ مما يمكن لمخلوقٍ على الأرض أن يكذب، - هم كائناتٌ قذرة عفريتية، هم أجنّةٌ تنبتُ من نكاحٍ جهنّمي!

أيّ نبيٍّ سيكون إذذاك من القوة والعظمة بما يكفي لوقْف مثل هذه النهاية الروحية للعالم؟!" ..

وسط مناجاتي الصامتة لنفسي، يداهمُني فجأةً إحساسٌ عجيب: كما لو أن يديّ، اللتين لا تزالان ترقدان على قرص الطاولة بلا عمل،

تُمسَكان مـن قبـل كائنـات لا يمكـنني أن أراهـا ؛ وأخمّـنُ أن سلسـلة مغناطيسية جديدة قد تشكّلتْ، - على غرار الحال عند بداية الجلسة، سوى أنني المشارك الحيّ الوحيد الآن. تنهضُ الخيّاطة من على الأرض وتتقدّمُ إلى الطاولة؛ ملامحها هادئةٌ ومطمئنة، كما لو أنها بكامل وعيها.

"إنه فيثا - إنه فيثاغورس"، يقولُ الرجل ذو الشعر الطويل متلعثماً، بيد أن نبرة صوته المرتجفة تنمّ عن الشكّ؛ يبدو أن المظهر الطبيعي الواقعي للوسيط يذهلُه. تثبّتُ الخيّاطة نظرها عليّ وتقولُ لي بصوتٍ خفيضٍ كصوت رجل: "أنت تعرفُ أنني لستُ فيثاغورس!". ومن نظرةٍ سريعة إلى المجموعة، أفهمُ أن الآخرين لا يسمعون ما تقول؛ فتعبيرُ وجوههم خاوٍ. تومئُ الخيّاطة برأسها مؤكّدةً: "أنا أتحدّثُ إليك فقط، آذان الآخرين صمّاء! إنّ مَسْكَ الأيدي عمليةٌ سحرية؛ فإذا اتّحدتْ أيادٍ ليستْ حيّة روحياً بعد، ظهر عالمُ رأس ميدوزا من قاع الماضي، وبصقتِ الهوّةُ العميقة يرقاتِ الموتى؛ ولكن سلسلةَ الأيادي الحيّة هي السياج الحصين الذي يحمي كنزَ النور الأعلى؛ إن خدَم رأس ميدوزا هم أدواتنا، ولكنهم يجهلون ذلك؛ فهم يعتقدون أنهم يخرّبون ويُفسدون، ولكنهم في الحقيقة يخلقون فضاء المستقبل؛ هم كالديدان التي تلتهمُ الجيفة، يقضمون جثّة النظرة المادية إلى الحياة، التي كان لرائحة تعفّنها أن تجعل الأرض تتفسّخُ لولا وجود الديدان. هم يأملون بحلول يومهم، إن هم أرسلوا أشباح الموتى بين البشر! ويسرُّنا أن ندعهم وشأنهم. هم يريدون خلق مكانٍ فارغ، يُسمّى ضلالاً ويأساً أقصى، يُفترَض به أن يبتلع كلّ حياة؛ بيد أنهم يجهلون قانون "الملء"! هم لا يعرفون أنه لا ينبثقُ من عالم الروح سوى ينبوع المساعدة، إن حلّتْ ساعة الشدّة.

وساعة الشدّة هذه يخلقونها بأنفسهم.

إنهم يعملون أكثر منا: يستنزلون النبيّ الجديد. هم يعملون على إسقاط الكنيسة القديمة، ولا يدرون أنهم يستدعون الجديدة. هم يريدون التهام الحيّ ولا يلتهمون سوى المتفسّخ. يريدون تدمير رجاء البشر بالعالم الآخر، ولا يدمّرون سوى ما ينبغي أن يتداعى وينهار. لقد أصبحت الكنيسة القديمة سوداء مظلمة، ولكن الظلّ الذي تلقي به على المستقبل هو أبيض؛ إن المذهب المنسيّ لـ "الذوبان مع الجثّة والسيف" سيكونُ أساس الدين الجديد وعدّة البابا الروحي.

لا تشغلْ بالك بهذا الموجود هنا" - وصوّبت الخيّاطة نظرها إلى الخرّاط الناظر أمامه بجمودٍ وبلا اكتراث - "ولا بأمثاله؛ ما من أحدٍ صادق النيّة يتّجه نحو القاع".



أمضيتُ بقية الليلة على المقعد في الحديقة، إلى أن أشرقت الشمس، وكنتُ سعيداً بمعرفتي أن ما ينام هنا عند قدميّ هو شكلُ حبيبتي فقط، أما هي نفسها فيقظةٌ في قلبي، متّحدةٌ معي على نحوٍ لا ينفصم. بزغتْ حمرةُ الفجر من وراء الأفق، وكانتْ غيوم الليل تتدلّى من السماء إلى الأرض كستائر سوداء ثقيلة، فشكّلتْ بقعٌ برتقالية وبنفسجية اللون وجهاً عملاقاً ذكّرتْني ملامِحه الجامدة برأس ميدوزا؛ أخذ يحلّقُ متربّصاً بلا حراكٍ كما لو أنه يريدُ ابتلاع الشمس. الصورة الكلّية: منديلُ الجحيم وعليه وجه الشيطان. قبل أن تشرق الشمس كسرتُ فرع شجرة بيلسان وغرستُه في التربة تحيةً لها كي ينمو ويزدهر ويصبح شجرة؛ وقد خُيِّلَ إليّ وكأني أغنيتُ بذاك عالم الحياة. حتى قبل أن

يظهر النور العظيم، كانتْ أولى بشائر سطوعه قد أبادتْ رأس ميدوزا؛ وأخذت الغيوم، التي كانتْ قبل ذلك قاتمةً ومتوعِّدة، تتحوّلُ إلى قطيعٍ من الحملان البيضاء، وتتساقُ في قبّة السماء المشرقة.

12

ذاك ينبغي أن يزيد وأنا ينبغي أن أنقص[7]

استيقظتُ ذات صباح، وقول يوحنا المعمدان هذا يجري على لساني؛ وقد أصبح شعار حياتي ابتداءً من اليوم الذي نطق به لساني وحتى عامي الثاني والثلاثين.

حينما كنتُ أصادفُ الناس المسنّين في البلدة، كنتُ أسمعُهم يتهامسون بالقول: "سوف يغدو غريبَ الأطوار كجدّه؛ فمن شهرٍ إلى شهر تتدهورُ حاله".

وكان المجتهدون يدمدمون: "إنه تنبلٌ ويسرق الأيام من ربّنا، - هل سبق لأحدكم أن رآه يعمل؟".

وفي السنوات اللاحقة، حينما أصبحتُ رجلاً، كانت الشائعة قد تكثّفتْ متحوّلةً إلى صيتٍ وسمعة: "إنه يمتلكُ نظرةً شرّيرة، وعليكم أن تتجنّبوه؛ فهو يصيبُ بالعين ويجلبُ الشؤم!"، وكانت النساء المسنّات في السوق تمددن لي "الشوكة" - وهي وضعية التبعيد بين السبابة والوسطى لدرء "السحر" -، أو ترسمن إشارة الصليب. - ثم أصبح يُقالُ إنني مصّاصُ دماء، حيٌ ظاهرياً فقط، يمصُ دماء الأطفال وهم نيام؛

[7] إنجيل يوحنا 3:30 (المترجم).

وإذا ما وُجِدَ على عنق رضيعٍ ما نقطتان حمراوان، تداولتِ الألسن أنها آثار أسناني.

كان الكثيرون يدّعون أنهم رأوني في الحلم في هيئة نصف ذئبٍ ونصف إنسان، وحينما يبصرونني في الشارع كانوا يولّون الأدبار هاربين وهم يصرخون. كما أن الموضع الذي اعتدتُ الجلوس فيه في الحديقة عُدّ مسحوراً، ولم يعدْ أحد يجرؤ على عبور الممرّ.

والحق أن سلسلةً من الأحداث العجيبة أضفتْ على الشائعات طابعاً، جعلها تبدو وكأنها تستندُ إلى حقيقة. ذات مرة، في وقتٍ متأخّر من المساء، هرع من بيت الخيّاطة الحدباء كلبٌ ضخم منفوش الشعر له مظهر وحشٍ كاسر وهو يعدو، ولم يكنْ يعرفه أحد، فهتف أولاد الزقاق: "الإنسان الذئب، الإنسان الذئب". فما كان من أحد الرجال إلاّ أن ضربه على رأسه ببلطةٍ وقتله.

وفي الوقت نفسه تقريباً جُرِح رأسي بحجرٍ ساقطٍ من السطح، وبينما كنتُ أضع ضماداً في اليوم التالي، راح يُقالُ عني إنني كنتُ ذلك الكابوس، وإن جرح الإنسان الذئب قد انتقل إليّ.

ثم حدث مجدداً أن شخصاً غريباً، أحد المتشرّدين من المحيط، وكان يُعدّ مختلاً عقلياً، رفع ذراعيه في ساحة السوق في رابعة الظهيرة بكلّ علامات الرعب والذعر، بينما كنتُ أنعطفُ حول الناصية، ثم هوى صريعاً بوجهٍ مشوّه، كما لو أنه رأى الشيطان.

وفي مرةٍ أخرى كان رجال الشرطة يجرّون عبر الشوارع رجلاً ما فتئ يشكو ويتظلّمُ مدافعاً عن نفسه بكلّ ما أوتي من قوة: "كيف يمكن أن أقتل أحداً؟ فقد كنتُ نائماً في مخزن الغلال طوال اليوم".

وحينما رآني الرجل ماراً في الطريق بالمصادفة، ارتمى على الأرض وصرخ وهو يشيرُ إليّ: "اتركوني، فها هو يمشي هناك. لقد دبّتْ فيه الحياة ثانيةً".

وفي كلّ مرة يحدثُ شيء من هذا القبيل، تمرُّ في ذهني فكرةٌ تقولُ لي: "هم جميعاً رأوا رأس ميدوزا فيك، إنه يسكنُ فيك؛ ومن يرونه يموتون، ومن يشعرون به شعوراً فقط يُصابون بالذعر. لقد رأيتَ في حدقتيّ الشبحِ آنذاك القاتلَ، المميتَ، الذي يسكنُ في كلّ إنسان، وفيك أيضاً. إن الموت يسكنُ في البشر، ولذلك لا يرونه؛ فهم ليسوا حاملي المسيح؛ إنما هم حاملو الموت؛ فهو ينخرُ فيهم ويجوّفُهم من الداخل كما تفعلُ دودة. – من طرده خارجاً، مثلك، يمكنه أن يراه، – يغدو بالنسبة إليه "موضوعاً"، و"يواجهه"".

لعمري أن الأرض باتتْ بالنسبة إلي آنذاك وادياً للموت، يزدادُ عتمةً من سنة إلى سنة.

حيثما نظرتُ، في كلّ مكان، في الشكل، في الكلمة والصوت والحركات، كانتْ تحيطُ بي سيدةُ العالم المفزِعة والمروّعة كمؤثّرٍ متقلّبٍ ومتبدّلٍ باستمرار: ميدوزا بوجهها الجميل، إنما المروّع والمرعب بشدة.

"الحياة الأرضية هي الولادة الأليمة المستمرّة لموت ينشأ كلّ ثانيةٍ من جديد"؛ هذه كانتْ المعلومة التي لم تفارقْني ليلاً نهاراً؛ "الحياةُ موجودةٌ لكشف النقاب عن الموت ليس إلاّ". هكذا كان كلّ تفكيرٍ ينقلبُ في داخلي إلى نقيض كلّ إحساسٍ بشري. "وقد بدتْ لي الرغبة في الحياة أشبه بسلب وسرقة أُناسيٍّ"، و"عدم القدرة على الموت" أشبه بإكراهٍ تنويمي من قِبل ميدوزا: "أريدُك أن تبقى لصّاً وسارقاً وقاتلاً، وأن تتجوّل في الأرض بوصفك كذلك".

وبدأتْ تتصاعدُ من الظلمة عبارة الإنجيل المنيرة الساطعة بالنسبة إلي: "من يحبُ نفسَه يُهلكُها، ومن يبغضُ نفسَه في هذا العالم يحفظُها إلى حياةٍ أبدية"؛ وفهمتُ المغزى: ذاك الذي يجب أن يزيد وينمو هو الجدّ الأول، أما أنا فيجب أن أنقص وأذوي!

عندما خرّ المتشرّدُ صريعاً في ساحة السوق، وبدأ تعبيرُ وجهه بالجمود، وقفتُ وسط الجمّع الذي التفّ حوله، وكان لديّ الشعور الرهيب بأن حيويته قد دخلتْ في جسدي كزخّة مطرٍ منعشة. وكما لو أنني مصّاص دماء فعلاً، تسلّلتُ مبتعداً كمذنب، حاملاً معي الإدراك الشنيع: لا يستمرُ جسدي على قيد الحياة إلاّ بسرقته حياة جسدٍ آخر - فهو جثّة متنقّلة تغبنُ القبر حقّه؛ ولا يحولُ دون تفسّخي حيّاً مثل لِعازَر سوى البرودة الغريبة في قلبي وحواسّي...

مضت السنوات؛ ويكاد يمكنني القول: سرعان ما لم أعدْ ألاحظ ذلك، إلاّ من ابيضاض شعر والدي أكثر فأكثر، واشتداد مظاهر الشيخوخة في هيئته، وانحناء جسده. وبغية عدم إعطاء الناس أيّ مبرّرٍ لاعتقادهم الخرافي، رحتُ أقلّلُ من خروجي من المنزل شيئاً فشيئاً، إلى أن جاء أخيراً الوقت الذي لازمتُ فيه المنزل طوال سنوات، ولم أعدْ أنزلُ حتى إلى مقعد الحديقة.

كنتُ قد نقلتُه ذهنياً إلى غرفتي في الأعلى، وبتُ أجلسُ عليه طوال الوقت، تاركاً قُرْب أوفيليا يتغلغلُ فيّ. والحق أن تلك كانت الساعات الوحيدة التي لم يكنْ يضيرني فيها عالم الأموات أو ينالُ مني. كان والدي قد أصبح صموتاً بشكلٍ عجيب؛ وغالباً ما كانتْ تمرُ أسابيع من دون أن نتبادل فيها كلمةً واحدة - باستثناء تحيةٍ في الصباح وأخرى في المساء .

كنا قد أقلعْنا عن الكلام تقريباً، وحينما كان أحدنا يرغبُ في شيءٍ ما، كان الآخر يخمّنُه كما لو أن أفكارنا قد شقّتْ لنفسها طرقاً جديدة للتواصل. ذات مرة كنتُ أنا من ناوله شيئاً، ثم أحضرَ هو كتاباً عن الرفّ وراح يتصفّحه وأعطاني إياه، وفي كلّ مرة تقريباً كنتُ أجدُه مفتوحاً على الموضع الذي كنتُ قد فكّرتُ فيه للتو.

كنتُ أرى في ملامحه شعوراً بالسعادة التامة؛ وفي بعض الأحيان كانتْ نظرته تستقرُ عليّ طويلاً وفيها تعبيرٌ عن الرضا الكامل. كنا نعلمُ حق العلم أحياناً: أن السلاسل الفكرية نفسها كانتْ تدورُ في رأسينا مدة ساعةً كاملة؛ كنا نسيرُ ذهنياً، إن جاز التعبير، جنباً إلى جنب على الإيقاع نفسه، بحيث تنقلبُ الأفكار الصامتة أخيراً إلى كلام. -

والحق أن هذه الحال كانتْ تختلفُ عنها فيما مضى، حيث "لم تكنِ الكلمات تأتي في الوقت المناسب أبداً، بل إما قبل الأوان أو بعد فواته"، - لقد كانتْ في الغالب متابعةً لعمليةٍ فكرية، ولم تعدْ تلمّساً لطريقٍ أو بحثاً عن بداية. إن مثل هذه اللحظات لا تزال نابضةً بالحياة في ذاكرتي إلى حد أن المحيط بكامله يستيقظُ في أدقّ تفاصيله حينما أذكرُ تلك الدقائق.

هكذا أسمعُ صوت والدي ثانيةً، كلمةً كلمة، نبرةً نبرة، فيما أنا أدوّن هنا ما قاله ذات يوم، عندما كنتُ أفكّر في ما عساه يكون الغرض من موتي العجيب: "يجب أن نصبح جميعاً باردين، بنيّ، ولكن الحياة لا تفلحُ في ذلك عند معظم الناس، فيضطرُ الموت إلى تولّي الأمر. - ولكن موتاً عن موتٍ يختلف. فبينما يموتُ عند بعض الكائنات في ساعة الاحتضار الكثيرُ إلى حدٍ يمكن معه القول: إنه لم يعدْ هناك أيّ شيء، لا يخلّفُ

بعض الناس وراءهم سوى أعمالهم التي أنجزوها في الدنيا: فتواصلُ شهرتهم وأفضالهم العيشَ لبعض الوقت، والغريب أن شكلهم قد يبقى أيضاً بمعنى من المعاني، إذ يُشيَّد لهم تماثيل. - أما صِغر الدور الذي يلعبُه الخير والشرّ في ذلك، فيلحظُه المرء في أن هناك تماثيل حتى لمدمّرين ومخرّبين وسفّاحين كبار مثل نيرون ونابليون. لا يتعلّقُ الأمر إلاّ بالبارزين من الأموات. أما فيما يخصُّ المنتحرين والأشخاص الذين قضوا نحبهم بطريقةٍ شنيعة، فيدّعي الأرواحيون أنهم يظلّون مقيَّدين بالأرض مدةً معينة؛ والحق أنني أكثر ميلاً إلى الرأي القائل إن ما يُرى ويُشعَر به في جلسات تحضير الأرواح أو في البيوت المسكونة، ليستْ هي أشباحهم، بل الأرجح أنها صورٌ طبق الأصل عنهم مع بعض الظواهر المرافقة لموتهم؛ - كما لو أن المجال المغناطيسي للمكان يحتفظُ بالأحداث، ليُفرِج عنها في بعض الأوقات.

إن الكثير من السمات والعلامات المميّزة في عمليات استحضار الموتى عند الإغريق، كتلك التي كان يقوم بها تايريزيا[8]، على سبيل المثال، تسمحُ بالقول إن هذا هو واقع الحال.

ليستْ ساعة الاحتضار سوى لحظة الكارثة، التي يتمّ فيها اكتساح كلّ ما لم يكنْ بالإمكان إهلاكه في الإنسان أثناء حياته، مثل إعصارٍ عاصف. كما يمكن القول أيضاً: إن دودة الخراب تنخرُ أولاً الأعضاء الأقل أهمية: وهذه هي حدثية الشيخوخة؛ فإذا وقع سنّها على دعامات الحياة، انهار البيت. هذا هو المسار الطبيعي. وأنا سوف أنتهي مثل هذه

[8] Teiresia: عرّاف طيبا الأعمى (المترجم).

النهاية، إذ إن جسدي يحتوي على أكثر مما ينبغي من العناصر التي يفوق تحويلُها خيميائياً طاقتي. - لو لم تكنْ أنت، بني، لتوجّب عليّ العودة ثانيةً لإتمام العمل المنقطع في وجودٍ أرضي جديد.

جاء في كتب الحكمة الشرقية: هل أنجبتَ طفلاً وزرعتَ شجرةً ووضعتَ كتاباً؟ في هذه الحالة فقط يمكنك أن تبدأ بـ "العمل الكبير". - بغية تجنّب العودة، كان الكهنة والملوك في مصر القديمة يطلبون تحنيط أجسادهم؛ وقد أرادوا بذلك الحيلولة دون أن يؤول ميراث خلاياهم إليهم أنفسهم ثانيةً، ويرغمهم على الرجوع إلى الأرض من أجل عملٍ جديد.

إن المواهب الأرضية والعيوب والعاهات، العلم والقرائح العقلية، هي صفاتٌ للشكل الجسدي، لا للنفس. وبالنسبة إلى نصيبي أنا، كآخر فرعٍ من سلالتنا، فقد ورثتُ الخلايا الجسدية لأسلافي؛ إذ كانتْ تنتقلُ من جيلٍ إلى جيل، حتى وصلتْ إليّ في نهاية المطاف. - أشعرُ أنك تفكّرُ الآن متسائلاً، بنيّ: كيف يمكن أن يكون ذلك؟ كيف يمكن للخلايا الجسدية للجدّ أن تنتقل إلى الأب، في حال لم يمتْ المنجِب السلف قبل ولادة الخلف؟ -

يحدثُ توريث الخلايا بشكلٍ مختلف؛ فهو لا يبدأ بعد الإلقاح مباشرة، كما لو أن المرء يسكبُ من وعاءٍ في وعاءٍ آخر مثلاً. إن ما يتمّ توريثه هو الطريقة الفردية المحدَّدة التي تتبلّرُ بها الخلايا حول مركز، وحتى هذا الأمر لا يحدث فجأةً، بل بشكلٍ تدريجي. ألم تلحظْ أبداً - وهذه حقيقةٌ غريبة كثيراً ما تثيرُ الضحك - أن العزّب المسنّين، الذين يقتنون كلباً محبّباً، ينقلون شبههم إلى حيوانهم بمرور الوقت؟ ما يحدثُ

هنا هو انتقال نجمي لـ "الخلايا" من جسدٍ إلى آخر: ما يحبُه المرء، يدمغُه بختم طبيعته الخاصة. ليست الحيوانات المنزلية بهذا الذكاء الاجتماعي، إلاّ لأن خلايا البشر تنتقلُ إليها.

كلما أحبّ الناس بعضهم بعضاً بحميميةٍ أكبر، تبادلوا "خلايا" أكثر، واشتدّ اندماجهم بعضهم مع البعض الآخر، إلى أن يتمّ بلوغ الحالة المثالية ذات يومٍ بعد مليارات السنين، والتي تشكّلُ فيها البشرية جمعاء كائناً واحداً مجموعاً من أفرادٍ لا عدّ لهم ولا حصر.

في اليوم نفسه الذي تُوفّي فيه جدّك، استلمتُ الميراث الأخير لسلالتنا بوصفي ابنه الوحيد. وقد دخل فيّ كيانُه بالكامل بحيويةٍ لم تسمحْ لي بالحزن دقيقةً واحدة. قد يبدو هذا مخيفاً للشخص العادي، إنما يمكنني القول: إنني شعرتُ في الحقيقة كيف كان جسده يتحلّلُ في القبر من يومٍ إلى يوم، من دون أن أحسّ بأن ذلك أمرٌ مخيف أو شنيع؛ فقد عنى تفسّخُه بالنسبة إلي تحرّراً للقوى المقيَّدة؛ وقد انتقلتْ إلى دمي كموجات أثير.

لو لم تكنْ أنت، كريستوفر، لاضطررتُ إلى العودة باستمرار، إلى أن تشاء "العناية الإلهية" - إنْ كان لا بد من استعمال هذه المفردة - أن أحظى بالأهلية والكفاءة مثلك: وأكونُ قمّة الشجرة، بدلاً من كوني فرعاً. أنت، بنيّ، سوف ترثُ في ساعة احتضاري آخر خلايا شكلي، والتي لم أستطعْ إكمالها، وسيكون عليك أنت أن تحوّلها خيميائياً، أن تسمو بها وتروّحنها، وتروّحن معها سلالتنا كلها.

لم يكنْ بالإمكان أن يحدث معي ومع آبائي أن "نذوب مع الجثّة"، إذ إن سيدة التعفّن لم تكرهْنا كما تكرهك. لا يفلحُ في ذلك إلاّ من تكرهُه

ميدوزا وتخشاه في آنٍ معاً، مثلما تكرهُك أنت وتخشاك؛ فهي نفسها تنفّذ بك ما تودُّ الحيلولة دونه.

حينما تأتي الساعة، سوف تنقضُ عليك بغضبٍ لا حدود له، كي تحرق كلّ ذرّةٍ فيك، بحيث تُبيدُ معك صورتها المنعكسة فيك، وعلى هذا النحو تخلقُ ما لا يستطيعُه الإنسان بقواه الذاتية أبداً: سوف تميتُ جزءاً منها نفسها وتجلبُ لك الحياة الأبدية، سوف تتحوّلُ إلى العقرب الذي يلدغُ نفسه بنفسه.

عندذاك يحلُ التحوّل الكبير: لا تعودُ الحياة تلدُ الموت، بل الموت ينجِبُ الحياة! يسرُني ويفرحُني أن أرى أنك أنت، ابني، القمّة المصطفاة لسلالتنا! لقد أصبحتَ بارداً في سنٍّ مبكرة، بينما بقينا نحن جميعاً ساخنين رغم الشيخوخة والتدهور. إن الدافع الجنسي - سواء تكشّفَ وظهرَ في سنّ الشباب أو توارى كما عند الشخص الهرم - هو جذر الموت؛ ومحقه أو استئصاله هو المجهود الذي لا طائل منه عند كلّ الزهّاد. فهم أشبه بسيزيف الذي يعملُ بلا انقطاع على دحرجة صخرةٍ صعوداً من الأسفل إلى قمّة الجبل، ليجد، وهو مفعمٌ باليأس، أنها تعودُ وتهوي من القمة إلى الوادي ثانيةً؛ فهم يبغون إحراز حالة البرودة السحرية التي لا وجود للإنسان الخارق من دونها، ويعتزلون المرأة؛ ومع ذلك فالمرأة وحدها هي التي يمكنها تقديم المساعدة لهم.

لا بد للأنثويّ المفصول عن الرجل هنا على الأرض، من أن يدخل فيه، لا بد أن يتوحّد معه؛ فعندها فقط يرتوي كلّ شوقٍ إلى اللحم ويهدأ. لا ينعقدُ القران - وتنغلقُ الحلقة - إلاّ عندما يتطابقُ القطبان، وعندها فقط تحلُ البرودة، التي تستمرُ قائمةً في ذاتها، البرودةُ السحرية

التي تحطِّمُ قوانين الأرض، البرودةُ التي تكفُ عن كونها نقيض السخونة، البرودة التي تقعُ فيما وراء الصقيع والقيظ، والتي يتدفّقُ منها، كما من اللاشيء، كلُ ما تستطيعُ سلطة الروح أن تخلقه بإيمان.

الدافع الجنسي هو النيِّر الموضوع أمام عربة نصر ميدوزا، والذي نحن مشدودون إليه. نحنَ المسنّون جميعاً قد تزوّجنا، ولكننا لم نعقد "القران"، أما أنت فلم تتزوّجْ، ولكنك الوحيد المعقود قرانه؛ لذلك أصبحتَ بارداً، بينما كان علينا نحن أن نبقى ساخنين. أنت تفهمُ ما أقصدُه، كريستوفر!".

انتفضتُ واقفاً وأمسكتُ يد والدي بكلتا يديّ؛ وقال لي البريقُ في عينيه: أنا *أعرف*.

❖❖❖

حلّ يوم صعود مريم؛ إنه اليوم الذي عُثِرَ فيه عليّ كمولودٍ جديد على عتبة باب كنيسة مريم قبل اثنتين وثلاثين سنة.

من جديد، كما فيما مضى وأنا في حالة الحمّى في أعقاب جولتي بالقارب مع أوفيليا، سمعتُ الأبواب تُفتَحُ في المنزل ليلاً، وفيما أنا أنصتُ عرفتُ خطوات والدي وهو يصعدُ من الأسفل ويدخلُ غرفته. وترامتْ إليّ رائحة شموعٍ تحترق وأوراق غارٍ تتوهّج.

انقضتْ ساعة أو أكثر، فإذا به ينادي باسمي بصوتٍ خافت. سارعتُ إليه في غرفته، يتملّكني اضطرابٌ عجيب، ورأيتُ في الخطوط الحادة العميقة في خدّيه وفي شحوب وجهه أن ساعة احتضاره قد حلّتْ. كان يقفُ منتصباً، ولكنه يستندُ بظهره إلى الحائط كي لا يسقط.

كان منظره من الغرابة إلى حد أنني اعتقدتُ لثانيةٍ أن من يقفُ أمامي شخص آخر. كان يرتدي معطفاً طويلاً تصلُ أطرافه إلى الأرض؛

وحول خصره سيفٌ مجرد معلّق بسلسلةٍ ذهبية. وقد حدّثني قلبي أنه قد أحضر الاثنين – المعطف والسيف – من طوابق المنزل السفلية.

كان قرص الطاولة مفروشاً بقطعةٍ من الكتّان ناصع البياض كالثلج، وعليها بضعة شمعدانات مشتعلة ومبْخَرة. ورأيتُ أنه كان يترنّحُ ويجاهدُ مع أنفاسه المتحشرجة، ولما أردتُ أن أهرع إليه لمنعه من السقوط، صدّني بذراعين مبسوطتين.

"هل تسمعُهم قادمين، كريستوفر؟" . أنصتُ، ولكن كلّ شيءٍ ظلّ في صمتٍ مطبق.

"هل ترى كيف ينفتحُ الباب، كريستوفر؟" .

نظرتُ، ولكنه بقي مغلقاً بالنسبة إلى عينيّ.

بدا أنه سينهارُ من جديد، ولكنه شدّ جسمه وانتصب مرة أخرى، ولاح في عينيه بريقٌ لم يسبقْ أن رأيته فيه من قبل. "كريستوفر!"، نادى فجأةً بصوتٍ حازم اقشعرّ له بدني. "كريستوفر! ها أنا قد أتممتُ رسالتي. ربّيتك ورعيتك كما هو مرسومٌ لي. تعالَ إليّ، أريدُ أن أعطيك العلامة!" .

أخذ يدي وشبك أصابعه مع أصابعي بطريقةٍ خاصة.

"بهذه الطريقة"، أضاف بصوتٍ خافت، وسمعتُ كيف بدأتْ أنفاسه تضطرب مجدداً، "بهذه الطريقة ترتبطُ حلقات السلسلة الكبيرة غير المرئية؛ من دونها لا تستطيعُ سوى القليل؛ أما إذا كنتَ مضموماً إليها، فإن شيئاً لا يمكنُه مقاومتك أو الصمود أمامك، إذ إن قوى جماعتنا تساعدُك حتى في أقاصي الكون. اسمعْني: لا تثقْ بالهيئات التي تواجهُك في عالم السحر! يمكن لقوى الظلام أن تتظاهر بكلّ الأشكال، حتى

بشكل معلّمنا؛ بل إن في مقدورها تقليد مسكة اليد التي أطلعتُك عليها كي تخدعك، ولكنها لا تستطيعُ أن تبقى غير مرئية في الوقت نفسه. وإذا حاولتْ أن تنضمّ إلى سلسلتنا على أنها غير مرئية: فسوف تتمزّقُ إلى ذرّاتٍ في اللحظة نفسها!".

كرّرَ علامة اليد. "تذكّرْ جيداً، مسكة اليد! إذا ما اقتربتْ منك هيئةٌ من العالم الآخر وقُيِّضَ لك أن تعتقد أنني أنا: طالبْ دوماً بالمسكة! عالم السحر مليء بالمخاطر".

تحوّلتْ كلماته الأخيرة إلى حشرجة، وجثمتْ على نظرته غلالة، وهبطتْ ذقنه على صدره. ثم توقّف تنفّسه فجأةً؛ فتلقّفتُه بين ذراعيّ وأرقدتُه بحذرٍ على سريره، والتزمتُ بالبقاء بقربه إلى أن أشرقتِ الشمس، ويده اليمنى في يدي، وأصابعهما في وضعية المسكة التي كان قد علّمني إياها.

❖❖❖

وجدتُ على الطاولة قصاصة من الورق مكتوب عليه: "دعْ جثّتي تُدفَن بالرداء الرسمي والسيف بجوار زوجتي الحبيبة! وعلى القسّ أن يقيم قدّاساً. ليس لأجلي، فأنا حيّ، إنما من أجل طمأنته: فقد كان لي صديقاً وفياً ومخلصاً". تناولتُ السيف وتأمّلته طويلاً. كان مصنوعاً من الحديد الأحمر، مما يُسمّى "الهيماتيت أو حجر الدم"، الذي كثيراً ما يُشاهَد في الخواتم؛ وعلى ما يظهر كان عملاً آسيوياً مغرقاً في القدم.

كانتْ قبضته ضاربة إلى الحمرة وتحاكي الجزء العلوي من جسم الإنسان ببراعة فائقة. الذراعان الممدودتان إلى الأسفل ونصف المبسوطتين تشكّلان عارضةً دفاعية، بينما كان الرأسُ مقبضَ السيف.

أما الوجه فكان من نمطٍ منغولي، لا تخطئه عين، لرجلٍ طاعن في السنّ له لحيةٌ طويلة وخفيفة، مثلما نراها في صور القدّيسين الصينيين.

كان يضعُ على رأسه غطاء أذنين شكله عجيب. وكانت الساقان المثلّثتان بخطوطٍ محفورة بشكلٍ خفيف تنتهيان بالنصل الحاد اللامع. والكلّ كان مسكوباً أو مطروقاً في قطعةٍ واحدة. وحينما أمسكتُه بيدي، تملّكني شعورٌ عجيب يفوقُ الوصف، إحساسٌ كما لو أن تيّارات الحياة تخرجُ منه. وضعتُه ثانيةً بجانب الميت، وأنا أفيضُ تهيّباً ووجلاً. قلتُ لنفسي: ربما هو واحدٌ من تلك السيوف التي تحكي عنها الأساطير أنها كانتْ إنساناً فيما مضى.

13

السلام عليك يا ملكة الرحمة

مجدداً انقضتْ أشهر.

وقد هدأتْ منذ زمنٍ طويل الشائعات الخبيثة التي تناولتْني؛ والأرجح أن أهل البلدة كانوا يعدّونني شخصاً دخيلاً؛ والحق أنني أطلتُ السكنى مع والدي هناك في الأعلى تحت السقف، كزاهدٍ في الدنيا، بعيداً عن أيّ اتّصالٍ بهم، إلى حد أنهم نادراً ما ينتبهون لي أو يكترثون بي.

عندما أستحضرُ في ذهني تلك الفترة، يستحيلُ عليّ الاعتقاد بأن نضجي من فتىً صغير إلى رجلٍ كهل، لم يتمّ في الواقع إلاّ ضمن نطاق جدراننا الأربعة، وبمعزلٍ تام عن العالم الخارجي.

إن بعض التفاصيل، كاضطراري إلى تأمين ملابس جديدةٍ وأحذيةٍ وبياضاتٍ وما شابه من مكانٍ ما في البلدة على سبيل المثال، يدعوني إلى الاستنتاج: أن موتي الداخلي كان آنذاك من العمق إلى درجة أن الأحداث اليومية، كانتْ تمرُ بوعيي، من غير أن تترك أيّ أثرٍ أو انطباعٍ على الإطلاق.

حينما خرجتُ إلى الشارع في الصباح بعد موت والدي - للمرة الأولى كما أعتقد - للقيام بالتحضيرات اللازمة لمراسم الدفن، أدهشني أن كلّ شيءٍ قد تغيّر: ثمة شبكٌ حديدي كان يغلقُ المدخل إلى حديقتنا؛

وقد رأيتُ من خلال القضبان شجرة بيلسانٍ كبيرة في المكان الذي كنتُ قد غرستُ فيه الغصن فيما مضى؛ وقد اختفى المقعد، وانتصب في مكانه، على قاعدةٍ رخاميةٍ مرتفعة، التمثال الذهبي لوالدة الإله، مرصَّعاً بالأكاليل والأزهار.

لم أستطعْ تفسير سبب هذا التغيّر، ولكن أن يزيّن الآن تمثالُ مريم العذراء المكان الذي ترقدُ فيه أوفيليا، كان أمراً وقعَ من نفسي موقع معجزةٍ مقدّسة.

عندما قابلتُ القسّ فيما بعد، بدا لي مسنّاً إلى حدٍ كدتُ معه لا أعرفُه. كان والدي يزورُه بين الفينة والأخرى ويبلّغُني تحياته في كلّ مرة، غير أنني لم أعدْ أراه طيلة سنوات. وهو بدوره كان شديد الدهشة حينما أبصرني، إذ راح يتأمّلني مستغرباً، ولم يشأْ أن يصدّق أنني أنا.

وقد شرح لي قائلاً: "كان السيد البارون قد طلب مني ألاّ أدخل منزله، وقال إنه من الضروري أن تبقى وحيداً لعددٍ معين من السنين. وقد احترمتُ رغبته غير المفهومة لي بكلّ أمانة".

خلتُني كمن يعودُ إلى مسقط رأسه بعد غيابٍ طويلٍ طويل؛ - قابلتُ أناساً راشدين كنتُ قد عرفتُهم وهم أطفال؛ ورأيتُ سحناتٍ جادّة وقد حلّتْ محلّ ابتسام الصبا والشباب السابق؛ والفتيات اللواتي كنّ نابضاتٍ بالفتوة والحيوية، أصبحن زوجاتٍ تثقلُ كواهلهن الهموم.

لا يمكنني القول إن شعور الجمود الداخلي كان قد فارقني آنذاك، فقد أُضيفَ إليه شيءٌ ما ليس إلاّ، ولو مجرد طبقةٍ خفيفةٍ ورقيقة، ما جعلني أرى العالم المحيط ثانيةً بعينٍ أشدّ بشريةً؛ وقد فسّرتُ الأمر بأن نفحةً من طاقة الحياة الحيوانية، كانتْ قد انتقلتْ إليّ من والدي كميرات.

وكما لو أن القسّ أحسّ غريزياً بهذا التأثير، فسرعان ما أخذ يحيطُني بمودّةٍ وتعاطفٍ كبيرين، ويُكثرُ من زيارتي مساءً.

كان يقول: "كلما أكونُ بقربك، يُخيَّل إليّ وكأن صديقي القديم يجلسُ أمامي".

كان يخبرُني بين الحين والآخر بالتفصيل، بما كان قد حدث في البلدة طوال هذه السنوات. وها أنا أستحضرُ هذه الفترة الزمنية من جديد:

"ألا زلتَ تذكر، كريستوفر، أنك قلتَ لي ذات يوم، وأنت فتىً صغير، إن الدومينيكاني الأبيض قد سمع اعترافك؟ أنا لم أكن متأكّداً في البداية ما إذا لم تكنْ مخيّلتك قد مكرتْ بك، إذ إن ما أخبرتَني به فاق قدرتي على التصديق. والحق أنني تقلّبتُ طويلاً بين الشكّ والافتراض بأن الأمر قد يتعلّق بحالة شبحٍ شيطاني، أو بحالة مسٍّ أو استحواذ - إنْ كان لهذا وقع أفضل على مسامعك -.

واليوم، أي نعم، حيث حدث ما لم يُسمَعْ به من قبل، ليس هناك بالنسبة إلي سوى تفسيرٍ واحد: نحن نواجهُ هنا، في بلدتنا، زمن المعجزات!".

سألتُ: "ولكن ما الذي حدث؟ فقد أمضيتُ نصف عمري في عزلةٍ عن العالم، كما تعلم".

فكّر القسّ، ثم قال: "من الأفضل أن أتناول مباشرةً المراحل الأخيرة؛ وإلاّ فأنا لست أدري من أين أبدأ. إذاً: بدأ الأمر بأن عدداً متزايداً من الناس أخذوا يدّعون جازمين أنهم رأوا بأمّ أعينهم في أول كلّ شهر، عندما يكون القمر هلالاً، الظلّ الأبيض الذي تلقي به كنيستنا في بعض الأحيان بحسب الأسطورة.

وقد قاومتُ هذه الشائعة وكافحتها ما أمكنني ذلك، إلى أن شهدتُ الحقيقة بنفسي - نعم بنفسي! -. ولكن لنتابعْ؛ فالتطرّق إلى هذا الموضوع يهزُني في أعماقي. يكفي أن أقول إنني رأيتُ "الدومينيكاني" نفسه! اعفِني من الوصف؛ فما شهدتُه هو بالنسبة إلي أقدس ما يمكن أن أتخيّله".

"وهل تعدُ الدومينيكاني إنساناً يتمتّع بقوىً خاصة، أم أنك تعتقد، حضرتك، أنه نوعٌ - من الظاهرة الروحانية؟".

تردّد القس. "بصراحة: لستُ أدري! لقد ظهر لي في رداء بابا. أعتقد - نعم أعتقدُ جازماً: لقد كانتْ رؤيا مستقبلية، تنبّؤاً مستقبلياً؛ رؤيا للبابا القادم، الذي سيكون اسمه "زهرة الأزهار". أرجوك ألاّ تواصل طرح الأسئلة عليّ! فيما بعد بدأ القيل والقال بأن معلّم الخراطة موتشلكناوس فقدَ صوابه من شدة حزنه على فقدان ابنته.

استوثقتُ من الأمر وأردتُ أن أواسيه: ولكن - هو الذي واساني. وسرعان ما وجدتُ نفسي أمام إنسانٍ مبارك! واليوم نعلمُ جميعاً أنه صاحب معجزات".

"معلّم الخراطة صاحب معجزات؟"، سألتُ مدهوشاً.

صاح القسّ في ذهول: "أجل، ألا تعلمُ أن مدينتنا الصغيرة هي على الطريق لتصبح مَحجّاً! يا رجل، هل نمتَ طوال الوقت مثل راهب هايسترياخ؟ ألم ترَ إذاً تمثال والدة الإله تحت في الحديقة؟".

وافقتُه قائلاً: "بلى، أعرفُه، ولكن ما شأنه بذلك؟ - أنا لم ألحظْ حتى الآن أن أناساً كثيرين يحجّون إليه!".

أوضح القسّ: "هذا مردّه إلى أن موتشلكناوس المسنّ يجوبُ الأرياف في هذه الأيام ويشفي المرضى بلمسة يد. والناس يتبعونه زرافاتٍ زرافات. وسوف يعودُ إلى البلدة غداً في يوم مريم".

سألتُ بحذر: "ألم يخبرك أبداً أنه يشاركُ في جلسات تحضير أرواح؟".

"لقد كان محضّر أرواح في بادئ الأمر، ولكنه يتحاشى ذلك الآن. أعتقدُ أنها كانتْ مرحلةً انتقالية بالنسبة إليه. من المؤسف أن هذه الطائفة انتشرتْ بشكلٍ كبير. أقول "من المؤسف"، - لا بد أن أقول ذلك، إذ كيف لتعاليم هؤلاء الناس أن تتّفق أو تنسجم مع تعاليم الكنيسة! ومن ناحيةٍ أخرى أتساءل: أيهما أفضل: طاعون المادية الذي داهم البشرية، أم هذه العقيدة المتعصّبة التي ظهرتْ على حين غرة وتهدِّدُ بابتلاع كلّ شيء؟ من المؤكّد أن المرء يقف هنا بين نارين".

نظر إليّ القسّ نظرةً متسائلة، وبدا أنه ينتظرُ مني ردّاً؛ ولكنني التزمتُ الصمت - فقد وجدتُ نفسي مضطراً إلى التفكير في رأس ميدوزا من جديد.

تابع كلامه: "ناداني أحدهم ذات يوم وأنا في غرفة القسّ. خرجتُ، وكان الصراخ الانفعالي يختلطُ بالقول: "موتشلكناوس المسنّ يجوبُ الشوارع؛ وقد أحيا ميتاً". والحق أن حدثاً في منتهى الغرابة كان قد وقع. كانتْ عربية نقل الموتى تعبرُ البلدة، فإذا بالرجل المسنّ يأمرُ الحوذي بالتوقّف. ثم أصدرَ أمره بصوتٍ عالٍ: "أخرجوا النعش!". وامتثل الناس للأمر من غير اعتراض، وكأنهم تحت تأثير إيحاء. ثم فكّ الرجل المسنّ الغطاء بنفسه. وكانتْ ترقدُ في داخل النعش جثّة صاحب العاهة، الذي تعرفُه بالطبع - ذاك الذي كان في طفولته يتقدّمُ بعكّازيه مواكب الزفاف دائماً -.

انحنى الرجل المسنّ فوقه وقال، على غرار يسوع فيما مضى: "قمْ وامشِ!". - و - و"- أخذ القسّ ينشجُ باكياً من شدة التأثّر، "واستفاق

صاحب العاهة من ضجعة الموت! والحق أنني سألتُ موتشلكناوس وقتذاك كيف جرى كلّ شيء. ولا بد أنك تعلم، كريستوفر، أنه يكاد يكون من المستحيل استدراجه ليقول شيئاً؛ فهو في حالةٍ من الشرود والانجذاب الدائم تقريباً، كانتْ تشتدُ عمقاً شهراً بعد شهر. واليوم لم يعدْ يجيبُ عن أيّ سؤالٍ على الإطلاق. كنتُ آنذاك لا أزال أنجحُ أحياناً في معرفة بعض الأمور منه. وحينما ألحّيتُ عليه، قال: "لقد ظهرتْ لي والدة الإله، صعدتْ من الأرض أمام المقعد في الحديقة، حيث تنتصبُ شجرة البيلسان". وعندما أقنعته بأن يصف لي كيف بدت السيّدة المقدّسة، قال وعلى وجهه ابتسامة هانئة بشكلٍ عجيب: "مثل ابنتي أوفيليا بالضبط".

"كيف خطر لك أن تطلب إيقاف عربة نقل الموتى، عزيزي موتشلكناوس؟"، واصلتُ الاستفسار منه؛ "هل أمرتْك بذلك والدة الإله؟".

"كلا، أنا عرفتُ أن صاحب العاهة كان ميتاً ظاهرياً فقط!".

"وكيف استطعتَ معرفة ذاك؟ فالطبيب نفسه لم يعرفْ!".

فجاءني جواب الرجل المسنّ العجيب: "لقد عرفتُ ذلك، لأنني أنا نفسي كدتُ أُدفَنُ حيّاً ذات مرة"؛ ولم أستطعْ أن أُفهمه عدمَ منطقية تفسيره. وعندما أردتُ معرفة التفاصيل، أخذ يكرّرُ كلامه بصيغٍ شتى، من دون الدخول في صميم الموضوع: "ما عاشه المرء بنفسه يعرفُه عند الآخرين. لقد كانتْ نعمةً حبتْ عليّ بها مريم العذراء أن يشاء المرء أن يدفنني حيّاً في طفولتي؛ وإلاّ لما عرفتُ أبداً أن موت صاحب العاهة كان موتاً ظاهرياً فقط"؛ لم يكنْ لنا لنتفاهم إطلاقاً. فأحدنا كان يتكلّم في الشرق والآخر في الغرب".

"وماذا كان مصير صاحب العاهة؟"، سألتُ القسّ. "ألا يزال على قيد الحياة؟".

"كلا، وهذا هو الغريب في الأمر - إذ وافتْه المنية في الساعة نفسها. فقد جفلَ حصان العربة نتيجة صراخ الجموع، وانطلق بسرعةٍ جنونية في ساحة السوق، ورمى بصاحب العاهة على الأرض، فحطّمتْ عجلةُ العربة عمودَه الفقري".

كما أخبرني القسّ عن حالات شفاءٍ غريبة أخرى قام بها معلّم الخراطة؛ ووصف لي بكلامٍ بليغ كيف انتشر خبر ظهور والدة الإله في طول البلاد وعرضها، رغم سخرية واستهزاء من يُسمّون بالمتنوّرين، وكيف تكوّنت الأساطير الورعة، وكيف أصبحتْ شجرة البيلسان محور جميع المعجزات.

المئات ممن لمسوها برؤوا، والآلاف من المرتدّين داخلياً عادوا إلى إيمانهم نادمين. والحق أنني لم أعدْ أصغي بكامل انتباهي، فقد خُيِّلَ إليّ وكأني أرى من خلال عدسةٍ مكبّرة العجلات المحرّكة الدقيقة، إنما الجبّارة، للحدث الكوني الروحي وهي تتداخلُ وتتعاشق. فبعد أن تمّ إحياء صاحب العاهة بمعجزة، أُحيلَ إلى الموت ثانيةً في الساعة نفسها - هل هناك رمزٌ أشدّ وضوحاً وصراحةً على أن ثمة قوةً عمياء، هي نفسها مشوَّهة وصاحبة عاهة، إلاّ أنها فعّالة على نحوٍ مدهش، كانتْ هنا في حالة عمل؟

ثم قولُ معلّم الخراطة! صحيح أنه قول صبياني وغير منطقي في الظاهر، ولكنه من منظورٍ داخلي: يكشفُ عن حكمةٍ عميقة. ثم الطريقة البسيطة إلى حدٍ يثير الإعجاب التي أفلتَ بها الرجل المسنّ من أحابيل

ميدوزا - من سرابات وخداعات تحضير الأرواح -: أوفيليا، الصورة المثالية التي تعلّقتُ بها نفسُه بكلّ جوارحها، أصبحتْ بالنسبة إليه المقدَّسةَ مانحة النعمة، جزءاً منه هو، منبثقةً عنه، تجازيه بشكلٍ مضاعف عن كلّ تضحياته، تصنعُ المعجزات، تنوّرُ عقله، ترتقي به إلى السماء وتظهر له كإلهة! النفسُ مكافأةٌ لنفسها! نقاء القلب وطهره: مرشدة إلى الإنسانية الخارقة - صاحبة القوة الشافية كلها.

وقد انتقلَ إيمانه الحيّ الملموس، أشبه بعدوى روحية، إلى المخلوقات النباتية الصامتة: فشجرة البيلسان تشفي المرضى. غير أن ثمة شيئاً من اللغز هنا لا يزال يحيّرُني، ولا أستطيع تخمين حلّه إلاّ بشكلٍ مبهم: لماذا تنبثقُ القوة من المكان الذي ترقدُ فيه عظام أوفيليا، وليس من أيّ مكانٍ آخر؟

لماذا تمّ اصطفاء الشجرة، التي غرستُها إحساساً مني بإثراء عالم الحياة بها، لتكون محور الحدث الخارق؟

كان من المؤكّد بالنسبة إلي أن تحوّل أوفيليا إلى والدة الإله لا بد أنه تمّ بالطريقة السحرية/ الحتمية نفسها الشبيهة بما حدث فيما مضى في جلسة تحضير الأرواح. ولكن أين هو التأثير المُميت لرأس ميدوزا؟ سألتُ نفسي. أيُفترَض أن يكون الشيطان والله واحداً من منظورٍ فلسفي، وذلك بوصفهما آخر الحقائق والمتناقضات جميعاً؟ - أيُفترَض أن المدمّر والباني واحد؟

"من موقعك كرجل دينٍ كاثوليكي، حضرتك، أمن الممكن أن يتّخذ الشيطان هيئة شخصٍ مقدّس، هيئة يسوع أو مريم مثلاً؟".



حدّق بي القسّ للحظة، ثم سدّ أذنيه براحتي يديه وصاح: "توقّفْ، كريستوفر! لقد أوحتْ لك بهذا السؤال روحُ والدك. دعني في إيماني! أنا أكبر سنّاً من أن أتحمّل هذه الصدمات. أريدُ أن أموت ذات يومٍ بهدوء مع إيماني بألوهية المعجزات التي رأيتُها ولمستُها. كلا، أقولُ لك، كلا وألف كلا: قد يستطيع الشيطان اتّخاذ كلّ الهيئات - ولكنه يجب أن يتوقّف عند العذراء المقدَّسة وابنها ابن الله!".

أومأتُ برأسي والتزمتُ الصمت؛ كان فمي مغلقاً. على غرار الحال في "الجلسة" آنذاك، حينما سمعتُ باطنياً كلمات رأس ميدوزا الساخرة: "قلْ لهم كلّ ما تعرفه!". وشعرتُ أن الأمر بحاجةٍ فعلاً إلى مرشدٍ قادمٍ عظيم، يكونُ سيّد الكلمة الكامل، ويستطيعُ استعمالها للكشف عن الحقيقة، من دون إماتة من يسمعها: وإلاّ سيبقى كلّ دينٍ مجرد صاحب عاهةٍ ميتٍ ظاهرياً.



في صبيحة اليوم التالي، أيقظني باكراً صوتُ أجراس الأبراج! وسمعتُ ترتيل جوقةٍ خافت، ينمّ عن إثارةٍ جنونية مكظومة، وهو يقتربُ أكثر فأكثر: "مريم، مباركة أنت بين النساء!".

وسرَتْ عبر جدران المنازل دمدمةٌ رهيبة كما لو أن الحياة دبّت في الأحجار، فراحتْ تشاركُ في الترتيل بطريقتها. وفكّرتُ بيني وبين نفسي، وأنا أنزلُ الدرج، في أن أزيز المخرطة هو الذي كان يملأ الممرّ في السابق - أما الآن فقد نام عذاب العمل، بينما تستيقظُ في الأرض كالصدى ترتيلةُ والدة الإله. وقفتُ في بوّابة المنزل، حيث مرّتْ من أمامي في الزقاق الضيّق جماهيرٌ حاشدة من أناسٍ في زيٍّ احتفالي، يحملون أكواماً من الأزهار، ويتقدّمُهم موتشلكناوس المسنّ.

"مريم المقدَّسة، اشفعي لنا!".

"السلام عليك يا ملكة الرحمة!". كان الرجل المسنّ يمشي حافي القدمين وحاسر الرأس، يرتدي ثوب راهبٍ متجوّل كان لونه أبيض فيما مضى، ولكنه الآن رثٌ مهلهلٌ ومليءٌ بالرقع، وكانتْ مشيته مضطربةً ومتلمّسة كمشية عجوزٍ أعمى. رمقني بنظرةٍ عابرة، التصقتْ بوجهي مدة ثانية، إنما لم يكنْ يُقرأ فيها أيّ أثرٍ يدلّ على أنه عرفني أو تذكّرني؛ فقد كان محورا عينيه متوازيين، كما لو أنه ينظرُ من خلالي ومن خلال الجدران، إلى عمق العالم الآخر. على هذا النحو كان يمشي بخطىً بطيئة، مشدوداً من قبل قوةٍ غير مرئية، كما بدا لي، أكثر منه بدافعٍ ذاتي، نحو الشبك الحديدي الذي يغلقُ الحديقة، ثم فتحه واتّجه صوب تمثال مريم.

اندسستُ وسط الحشد، الذي كان يتدافعُ خلفه متردّداً على مسافة هي مسافة التهيّب والرهبة ليتوقّف أمام الشبك. كان الترتيل يخفتُ أكثر فأكثر، غير أن الإثارة الكامنة فيه كانتْ تتزايدُ من دقيقةٍ إلى أخرى. وسرعان ما لم يعدْ أكثر من تذبذب أصواتٍ من غير كلامٍ؛ وساد في الجوّ توتّرٌ يفوقُ الوصف. فما كان مني إلاّ أن قفزتُ إلى بروزٍ في الجدار، أتاح لي إطلالةً على كلّ شيءٍ بدقة.

أطال الرجل المسنّ الوقوف أمام التمثال بلا حراك. كان مشهداً رهيباً؛ وقد راودني إحساسٌ عجيب: مَن من الاثنين ستدبُ فيه الحياة أولاً! وداخلني شيءٌ من القلق الغامض شبيه بذلك الذي شعرتُ به سابقاً في جلسة تحضير الأرواح، وسمعتُ صوت أوفيليا في قلبي مجدداً: "كنْ على حذر!".

بعد ذلك مباشرةً، رأيتُ لحية الرجل المسنّ البيضاء تتحرّكُ مرتعشةً، وخمّنتُ من اهتزاز شفتيه أنه يتكلّم مع التمثال. وأطبق الصمت فجأةً على الجموع من خلفي، كما صمت الإنشاد المنخفض للمتزاحمين، وكأنما بناءً على إشارةٍ معطاة. ولم يبقَ سوى صوت صليل إيقاعي خافتٍ متكرّر. بحثتُ بنظري عن مصدره: فرأيتُ رجلاً مسنّاً بديناً وقد ضغط نفسه في كوّةٍ في الجدار بكلّ تهيّب، كما لو أنه يتوارى عن نظرات معلّم الخراطة، وعلى رأسه الأصلع إكليلٌ من الغار، ويغطّي نصف وجهه بيد، ويمدّ اليد الأخرى إلى الأمام، حاملةً علبةً كبيرة من الصفيح. وبجانبه السيدة أغلايا في ثوبٍ حريري أسود، وقد طلتْ وجهها بالأصباغ والمساحيق إلى حد التنكّر.

أنفُ السكّير قد فقدَ تناسقه وأصبح أزرق اللون، والعينان اللتان تصعبُ رؤيتهما خلف البروزات الدهنية - ما من شكٍّ في أنه كان الممثّل باريس. كان يجمعُ المال من الحجّاج، وتساعدُه في ذلك السيدة موتشلكناوس؛ فقد رأيتُها كيف كانتْ تنحني إلى الأمام على عجلٍ بين الفينة والأخرى، وتتطلّعُ إلى زوجها بتهيّب، كما لو أنها تخشى أن يكتشفها، وتهمسُ بشيءٍ ما للناس الذين يمدّون أيديهم إلى جيوبهم بعد ذلك مباشرةً، ويرمون بالقطع النقدية في علبة الصفيح، من دون أن تحيد عيونهم عن تمثال والدة الإله.

داهمني سخطٌ جنوني، ورحتُ أنظر بحدّةٍ في وجه الممثّل الهزلي، ولم تلبثْ أن تلاقتْ نظراتنا، ورأيتُ كيف هبطتْ ذقنه وفغر فمه، وأصبحتْ ملامحه رماديةً بمجرد أن رآني. وسقط صندوق التبرّعات من يده من شدة ذهوله.

أما أنا فقد ولّيتُ له ظهري تقزّزاً واشمئزازاً.

❖❖❖

سرَتْ في الحشد فجأةً دمدمةٌ مبحوحة تكاد تكونُ غير مفهومة، وكأن رعشة ذعرٍ طارئ تخنقُها، وراحتْ تنتقلُ من فمٍ شاحبٍ إلى آخر: "إنها تتحرّك! - تتكلّم! - مريم المقدّسة، اشفعي لنا! - إنها تتحدّثُ معه! هاكم! هاكم! إنها تميلُ برأسها!".

"هاكم! هاكم! والآن مجدداً!". اعتقدتُ أنه لا بد أن تنطلق في أيّة لحظة صرخةٌ واحدة رنّانة من مئاتٍ عديدة من الشفاه الحيّة، وتمزّق التوتّرَ المخيف، غير أن الجميع ظلّوا كالمشلولين؛ ولم أسمعْ سوى تأتأةٍ منفردة هنا وهناك: اشفعي لنا!

كنتُ أخشى من احتدام حالةٍ من الصخب والشغب؛ بيد أن هذه الجموع تراختْ بدلاً من ذلك وهبطتْ بمقدار ارتفاع الرأس فقط. والحق أنه كان لها أن ترتمي على ركبها، إلاّ أن تزاحم الناس وتراصّهم الشديد حالَ دون ذلك. أغمض الكثيرون عيونهم وأُغميَ عليهم، ولكنهم لم يستطيعوا السقوط على الأرض؛ فقد كانوا محشورين بين الواقفين، وبدوا، وشحوب الموت يكسوهم، أشبه بالجثث المنتصبة بين الأحياء بانتظار معجزةٍ تعيدُها إلى الحياة.

كان الجوّ قد أصبح خانقاً مغناطيسياً، إلى درجةٍ شعرتُ معها بأن استنشاق الهواء أشبه بخنْقٍ بيدين غير مرئيتين. وسرَتْ في كامل جسدي رعشةٌ، كما لو أن لحمي يريد الانفكاك عن عظامي؛ وتمسّكتُ بحافّة النافذة كي لا أسقط من إفريز الجدار على رأسي. كان الرجل المسنّ يتكلّمُ بشفتين سريعتي الحركة؛ وقد استطعتُ رؤية ذلك بوضوح؛ وكان

وجهه النحيل يسطعُ بما يشبهُ حمرة الشباب، وقد غمرتْه أشعة الشمس المشرقة.

ثم أمسك عن الكلام مجدداً، كما لو أنه تلقّى هاتفاً، منصتاً بفمٍ فاغر ومصوّباً عينيه بثبات إلى التمثال، وأومأ برأسه بسحنة مجذوبة وأعطى بسرعةٍ جواباً خافتاً، ثم بدا أنه ينصتُ مرة أخرى وهو يرفعُ ذراعيه في حالةٍ من الإثارة المسرورة. وكلما اشرأبّ برأسه منصتاً، سرَتْ في الجموع همهمةٌ هي حشرجة أكثر منها همس.

"هاكم! هاكم! إنها تتحرّك! هاكم! - لقد أومأتْ برأسها!" -، ولكن أحداً لم يجرؤْ على التدافع إلى الأمام؛ بل كان هناك تقهقرٌ مفزوع أشبه بتقهقرٍ أمام صاعقةٍ جوية.

حدّقتُ في ملامح الرجل المسنّ بما أمكنني من الحدّة: أردتُ أن أقرأ من فمه وحركة شفتيه ما كان يتفوّه به. كنتُ آمل في سرّي - ولم أكنْ أعلم لماذا - أن أسمع اسم أوفيليا أو أن أخمّنه. بيد أن شفتيه، وبعد جملٍ طويلة غير مفهومةٍ بالنسبة إلي، لم تكنْ تصوغُ سوى كلمةٍ مثل "مريم". عجباً! لقد صدمني المشهد كالصاعقة: كان التمثال قد مال برأسه مبتسماً. لم يتحرّكْ هو وحده فقط، بل شارك ظلّه أيضاً في الحركة على الرمل الناصع!

عبثاً قلتُ بيني وبين نفسي: إنها هلوسةٌ أو ضلالُ حواس، وإن حركات الرجل المسنّ انتقلتْ في نظري لاإرادياً إلى التمثال، وأيقظتْ فيَّ انطباعاً، كما لو أن الحياة دبّتْ في التمثال. أشحتُ بنظري بعيداً، عازماً على أن أبقى سيّد وعيي ومالك زمامه، ثم نظرتُ إلى التمثال ثانيةً: وكان يتكلّم! وقد انحنى فوق الرجل المسنّ! لم يعدْ هناك من شكّ!

"كنْ على حذر!" - ماذا أفادني أنني تذكّرتُ التحذير الداخلي بكل ما أوتيتُ من قوة! ماذا أفادني أنني شعرتُ في قلبي بشكلٍ واضح: أن هذا الشيء غير محدَّد الشكل والغالي عليّ بشكلٍ لامحدود، والذي أعرف أنه هو القرْب الدائم لحبيبتي الغالية، يشبُ ويتمرّدُ ويريدُ الإقدام على الحد الأقصى وانتزاع الشكل لنفسه، كي يتمكّن من التقدّم مني بذراعين مبسوطتين مدافعاً وحامياً.

بدأتْ دوّامةٌ مغناطيسية أقوى من إرادتي بالدوران حولي: كلّ ما كان قد انتقل إليّ وإلى دمي الموروث من تديّنٍ وتقوى وورعٍ في طفولتي، وكان يرقدُ كالميت، استعرَ وتفجّر فيّ، خليةً بعد خلية؛ إعصارٌ روحي في جسدي بدأ يطرقُ باطن ركبتي: "أريدك أن تخرّ على ركبتيك وتعبدني!".

قلتُ لنفسي: "إنه رأس ميدوزا"، ولكنني شعرتُ في الوقت نفسه أن العقل كلّه قد تحطّم هنا. فإذا بي ألجأ إلى الوسيلة الأخيرة: "لا تقاوموا الشرّ!". ولم أعدْ أُبدي أيّة مقاومة، وتركتُ نفسي أغرقُ في هاوية التنازل عن الإرادة والاستسلام التام. أصبحتُ في هذه اللحظة من الضعف، إلى حد أن هذا الأخير تملّك حتى جسدي؛ فارتختْ يداي وتركتْ ممسكَها، وسقطتُ فوق رؤوس وأكتاف الجموع.

وعندما عدتُ إلى بوّابة منزلنا، نسيتُ كلّ شيء. لا شكّ في أن تفاصيل أحداث غريبة من هذا النوع غالباً ما تتملّصُ من قدرتنا على الإدراك، أو تعبُرُ من دون أن تترك أيّ أثرٍ في الذاكرة. لا بد أنني زحفتُ مبتعداً كيسروعٍ فوق رؤوس الحجّاج المتزاحمين وقوفاً! لا أعرف سوى أنني وقفتُ أخيراً في مدخل البوّابة وأنا أشعرُ بالانقباض، وكنتُ عاجزاً عن الحركة إلى الأمام أو إلى الوراء، بيد أن منظر التمثال كان قد

انسحب من ذهني، وبالتالي غاب عني سحرُ تأثيره: كان التيّار المغناطيسي للجموع يمرُّ بي مرور الكرام.

عندها دوّى نداءٌ قادم من الحديقة: "إلى الكنيسة!"، واعتقدتُ أنني عرفتُ فيه صوت الرجل المسنّ. وراح النداء ينتقل من فمٍ إلى فم: "إلى الكنيسة!"، "إلى الكنيسة!". "إلى الكنيسة! مريم أمرتْ بذلك!" - وسرعان ما تحوّل النداء إلى صرخةٍ مُريحة متعدّدة الأصوات مزّقت التوتّر. لقد زال السحر؛ وتراجعت الجموع القهقرى من الممرّ، خطوة خطوة، ببطءٍ كحيوانٍ خرافي ضخم له مئات الأرجل خلّص نفسه من مصيدة.

تحلّق آخر الحجّاج حول الرجل المسنّ ومرّوا بي وهم يتدافعون من حوله، وراحوا يمزّقون قطعاً من ردائه، إلى حدٍ كاد معه الرجل أن يغدو عارياً، ثم يقبّلونها ويطوونها ويدسّونها في أعبابهم كأثرٍ تذكاري. وعندما خلا المكان من الناس، عبرتُ الممرّ المغطّى بالأزهار المُداسة بارتفاع القدم، متوجّهاً إلى شجرة البيلسان. فقد أردتُ المرور مرةً أخرى بالمكان الذي ترقدُ فيه عظام حبيبتي. وشعرتُ بشكلٍ واضح: أنها المرة الأخيرة.

"أليس من الممكن إذاً أن أراكِ مرةً ثانية، أوفيليا؟! مرةً واحدة فقط!"، تضرّعتُ في قلبي. "أودّ أن أرى وجهك ثانيةً ولو مرةً واحدة فقط!"

رفعتُ رأسي لاإرادياً، وأنا أسمعُ العبارة التالية قادمة من البلدة على أجنحة موجةٍ من الهواء: "السلام عليك يا ملكة الرحمة". فإذا بنورٍ مبهرٍ يجلّ عن الوصف يبتلعُ التمثال أمامي. وللحظةٍ خاطفة للغاية، إلى درجة بدا لي معها أن دقة قلبٍ واحدة تساوي عمراً بكامله، تحوّل التمثال إلى

أوفيليا، وابتسم لي، ثم لمعَ الوجه الذهبي لتمثال مريم تحت الشمس ثانيةً، جامداً بلا حركة. كنتُ قد ألقيتُ نظرة على الحاضر الأبدي، الذي هو بالنسبة إلى الفانين مجرد كلمةٍ فارغة لا يمكن تصوّرها.

14

قيامة السيف

لن أنسى الانطباعات التي أحسستُ بها، عندما شرعتُ ذات يومٍ بتفقّد تركة والدي وأجدادي.

رحتُ أعاينُ الطوابق واحداً تلو الآخر: وقد خُيِّلَ إليّ وكأني أنزلُ من قرنٍ إلى قرن، وصولاً إلى القرون الوسطى. الأثاثُ مركّبٌ بفنٍّ ومهارة، والدروجُ مليئة بطرحات الدانتيلا؛ مرايا معكَّرةٌ في أطرٍ ذهبية لمّاعة، أبصرتُ نفسي فيها بلونٍ حليبي مائل للخضرة أشبه بشبح؛ صورٌ شخصية داكنة لرجالٍ ونساءٍ في أرديةٍ قديمة الطراز متبدّلة النمط بحسب خصوصية العصر، ومع ذلك ثمة شبهٌ عائلي في كلّ الوجوه، بدا أحياناً أنه يضعفُ متحوّلاً من الشقرة إلى السمرة، ليعود إلى الظهور فجأةً في أصالةٍ ونقاء كاملين، كما لو أن السلالة قد تذكّرتْ طبيعتها.

علبٌ ذهبيةٌ مرصَّعة بالأحجار الكريمة، بعضها لا يزال يحتوي على آثار نُشوق، كما لو أنها استُعملَت بالأمس؛ مراوحُ صدفية، أحذيةٌ عالية الكعب مستهلَكة وذات تصميمٍ غريب، تخيّلتُ، عندما صففتُها جنباً إلى جنب ذهنياً، هيئاتٍ أنثوية شابة تنبثقُ عنها: أمّهاتُ وزوجاتُ أجدادنا؛ عصيٌ مرصَّعة بالعاج المصفرّ، خواتمُ تحملُ شعار العائلة، منها ما هو

صغيرٌ وكأنه مخصَّصٌ لأصابع أطفال، ومنها ما هو ضخمٌ كما لو أن عمالقةً كانوا يلبسونه؛ مغازلُ خشبية أصبحتْ خيوط الكتّان عليها رفيعةً وهشّة إلى درجة تفتّتها بفعل نفخةٍ واحدة.

كان الغبار الناعم في بعض الغرف من الارتفاع، إلى حد أنه اضطرّني إلى الخوض فيه حتى كاحلي، وكانت الكثبان تتجمّعُ وترتفعُ حينما أفتح الأبواب؛ بينما كانتْ خطواتي تكشفُ عن نقوش السجّاد، فتلمعُ عند موطئ قدميّ زخارفُ زهرية ووجوهُ حيوانات.

والحق أن تأمّل هذه الأشياء أسرني إلى درجة أنني أمضيتُ فيه أسابيع، ناسياً تماماً أحياناً أن ثمة أناساً غيري يعيشون على هذه الأرض.

فيما مضى، وكنت لا أزالُ فتىً مراهقاً، زرتُ إثناء رحلةٍ مدرسية متحف بلدتنا الصغير، ولا زلتُ أدركُ أيّ تعبٍ وإرهاقٍ أصابنا، ونحن نعاينُ الأشياء القديمة الغريبة جداً عن دواخلنا؛ وكم كان الأمر مختلفاً كلياً هنا!

كلّ شيءٍ أمسكته بيدي أراد أن يحكي لي قصة؛ ثمة حياةٌ خاصة كانتْ تنبثقُ منه: فقد ارتبط به ماضي أسلافنا، وتحوّل بالنسبة إليّ إلى مزيجٍ عجيبٍ من الحاضر والماضي. -

أناسٌ تعفّنتْ عظامهم في القبور منذ زمنٍ طويل كانوا يتنفّسون هنا. أجدادٌ أحملُ حياتهم في داخلي، كانوا قد سكنوا هذه الأمكنة، واستهلّوا وجودهم رضّعاً ناشجين، وختموه بحشرجة النزع الأخير، كانوا قد أحبّوا وحزنوا، هلّلوا وفرحوا وتأوّهوا وتنهّدوا، وكانتْ قلوبهم قد تعلّقتْ بأشياء لا تزال إلى الآن موجودةً من حولي هنا وهناك كما تُرِكَتْ، وأصبحتْ مليئة بالهمس الخفي كلما لمستُها.

ثمة خزانةٌ ركنية زجاجية، تحوي عملات تذكارية، موضوعة في أغلفةٍ مخملية حمراء، كانت الذهبية منها لا تزالُ برّاقةً وساطعة وعليها وجوه فرسان، بينما كانت الفضّية قد أصبحتْ داكنةً كما لو أنها ماتتْ، وجميعها مرتَّب على شكل صفوف، وكلّ منها مزوَّدٌ ببطاقةٍ تحملُ كتابةً باهتة غير مقروءة؛ وتنبثقُ منها رغبةٌ متهالكة ولكنها حارة: "اجمعْنا، اجمعْنا، يجب أن يلتمّ شملنا ويكتمل عددنا"، وهفتْ نحوي صفاتٌ ما عرفتُها يوماً، وراحتْ تتملّقُ وتتوسّل: "اقبلْنا، ضمّنا إليك، سوف نجعلك سعيداً".

ثمة كرسيٌّ عتيقة ذات مسندٍ وساعدين محفورين بشكلٍ رائع، كانت الوقارَ والسكينة بعينها، أغرتْني كي أجلس عليها وأحلم، ووعدتْني: "أريد أن أروي لك قصصاً من الأيام الخوالي"، وعندما وثقتُ بها، خنقني عذابٌ شبحي صامت، كما لو أنني جلستُ في حضن الهمّ والغمّ نفسه، وأصبحتْ ساقاي ثقيلتين ومتصلّبتين، كما لو أن مشلولاً كان مقيّداً فيها طيلة قرنٍ من الزمن، ويريدُ الخلاص عن طريق إحالتي إلى صورةٍ طبق الأصل عنه.

كلما زاد توغّلي نحو الغرف الأعمق، اشتدّ الانطباع وجوماً وجدّيةً، وبات الوقع أقلّ بهاءً وفخامة. طاولاتٌ فظّة وخشنة من خشب الصنوبر؛ موقدٌ بدلاً من مدفأة أنيقة، جدرانٌ مبيَّضة بالكلس؛ أطباقٌ قصديرية؛ سلسلةُ قفّازٍ يدوي صدئة؛ أباريقُ حجرية؛ ثم من جديد حجرةٌ لها نوافذ ذات شبكٍ حديدي؛ مخطوطاتٌ رقّية مبعثرة هنا وهناك، وقد قضمتْها الفئران؛ أنابيقُ فخّارية كالتي كان يستعملُها الخيميائيون؛ شمعدانٌ حديدي؛ زجاجاتٌ تحوي سوائل تحوّلتْ إلى رواسب جيرية: المكان بأكمله مفعمٌ بجوٍّ موحش لحياةٍ بشرية خائبة الآمال.

أما القبو الذي يُفترَض، بحسب التاريخ والتسلسل الزمني، أن جدّنا الأول، موقد الفوانيس كريستوفر يوخَر، قد عاش فيه، فكان مغلقاً بباب رصاصي. وما من إمكانية لفتحه. حينما أنهيتُ أبحاثي في منزلنا - بعد جولة أشبه برحلة طويلة في عالم الماضي - وعدتُ إلى غرفتي ثانيةً، كان لديَّ الشعور كما لو أنني مشحونٌ حتى رؤوس أصابعي بتأثيراتٍ مغناطيسية؛ فقد رافقتني الأجواء المنسية هناك في الأسفل كجمْعٍ من الأشباح فُتِحَ له باب الحبس إلى الهواء الطلق، والأمنيات التي تركها وجود أسلافي من غير تحقيق انكشفتْ، استفاقتْ وأخذتْ تسعى إلى زجّي في أتون القلق والاضطراب، وانهالتْ عليّ بوابلٍ من الأفكار: "افعلْ هذا، افعلْ ذاك، هذا لم يكتملْ بعد، ذاك لم يحدثْ سوى نصفه؛ لا أستطيعُ النوم قبل أن تنفّذه عوضاً عني!".

وهمسَ لي صوتٌ: "انزلْ إلى الأنابيق مرةً أخرى؛ أريدُ أن أخبرك كيف يُصنَع الذهب ويحضَّر حجر الحكماء؛ فأنا أعرفُ ذلك الآن، ولم أفلحْ فيه آنذاك لأنني متُ مبكراً"، - ثم أسمعُ مجدداً وبشكلٍ خافت كلماتٍ مثقَلة بالدموع، يبدو أنها صادرةٌ عن فمٍ نسائي: "قلْ لزوجي إنني أحببتهِ دوماً رغم كلٍ شيء؛ فهو لا يصدّقُ ذلك، هو لا يسمعُني الآن، ذلك أنني ميتة، أما أنت فسوف يفهمُك!". ويهمسُ في أذني نَفَسٌ متّقد، ويُخيَّل إلي وكأنني أسمعُ سلسلة القفّاز اليدوي تصلصل: "الثأر! لاحِقْ صغارَه! اقتلْهم! سأقول لك أين هم. اذكرْني! أنت الوريث وعليك واجب الانتقام الدموي!". - ثم يأتيني نداء المشلول في الكرسي ذات المسند قاصداً أن يسلبني لبّي: "اخرجْ إلى الحياة! استمتعْ! أريد أن أرى الدنيا مرة أخرى بعينيك!".

فيما أنا أطردُ الأشباح من دماغي، بدا أنها استحالتْ إلى مزقٍ عديمة الوعي من حياةٍ تائهة كهربائياً تمتصُها الأشياء في الغرفة: قرقعة شبحية في داخل الخزائن؛ خشخشة دفترٍ موضوع على الكنار؛ صرير ألواح الأرضية الخشبية، كما لو أن قدماً تمشي عليها؛ سقوط مقصٍ عن الطاولة وانغراز ذروته في الأرضية، كما لو أنه يريد أن يحاكي راقصة تقفُ على رؤوس أصابعها. أذرَعُ الغرفة جيئة وذهاباً والقلق يتملّكني؛ وأشعرُ: "إنه إرث الأموات"؛ أشعلُ المصباح، إذ إن الليل يزداد حلكةً والظلمة تزيدُ من رهافة حواسّي؛ الأشباح مثل الخفافيش: "النور سوف يطردُها؛ ولا يجوز أن تسلب وعيي أكثر من ذلك!".

ها قد أسكتُ أمنيات الموتى، ولكن اضطراب الإرث الشبحي لا يريد أن يفارقِ أعصابي. أنبشُ في خزانةٍ كي أصرف انتباهي وأنسى: تقع يدي على لعبةٍ كان والدي قد أهداني إياها ذات يوم بمناسبة عيد الميلاد: علبة غطاؤها وقعرها زجاجيان، وفي داخلها تماثيل من لبّ البيلسان، رجلٌ وامرأةٌ صغيران وأفعى؛ إذا مرّر المرء قطعة من الجلد على الزجاج، يتكهربُ الاثنان، فيتّحدان، يفترقان، يثبان، يلتصقان في الأعلى تارةً وفي الأسفل تارةً أخرى، بينما تُسَرُ الأفعى وتقومُ بأشدّ التلوّيات غرابةً.

أفكّرُ بيني وبين نفسي: "حتى مَن هم في داخل العلبة يعتقدون أنهم أحياء، ومع ذلك فإن ما يمنحهم الحركة هي القدرة الكلية ليس إلاّ!". إنما لا يخطرُ لي أن أسحب المثال على نفسي: تداهمُني فجأةً همّةٌ عالية، إقبالٌ على العمل، ولا أُبدي أيّ تشكيكٍ أو سوء ظنٍّ فيه؛ فالدافع إلى الحياة عند الموتى يقتربُ بقناعٍ مختلف.

أشعر: "أفعال، أفعال، أفعال يجب أن يتمّ تنفيذها! أجل، هذا هو واقع الحال! وليس ما أراده الأسلاف بأنانيةٍ أن يحدث" - هكذا حاولتُ إيهام نفسي -، "كلا، ينبغي أن أقوم بشيءٍ ما أعظم بكثير". ثمة شيءٌ كان يهجعُ في داخلي كما تهجعُ البذور في التربة، والآن ينبتُ ويتفتّحُ بذرةً بذرة: يجب أن تخرج إلى الحياة، يجب أن تقوم بأفعالٍ من أجل البشرية التي تنتمي إليها، وأنت جزءٌ منها! كنْ سيفاً في الكفاح العام ضد رأس ميدوزا!

يسودُ في الغرفة قيظٌ رطب لا يُطاق؛ أفتحُ النافذة: لقد أصبحت السماء سقفاً رصاصياً، صفحةً رمادية كثيفة ضاربة إلى السواد. وفي الأفق البعيد يومضُ برقٌ ينذرُ بعاصفة. أحمدُ الله أن عاصفةً تقترب. ما من قطرة مطرٍ منذ شهور، المروج يابسةٌ والغابات تصلصلُ نهاراً في الأنفاس المرتعشة للأرض التي تموتُ عطشاً.

أتّجهُ إلى الطاولة وأريدُ الكتابة. ماذا أكتب؟ لِمَن أكتب؟ لستُ أدري. ربما أكتبُ للقسّ لأخبره أنني أريدُ الرحيل لأشاهد العالم؟ أتناولُ قلماً وأجلسُ إلى الطاولة، فإذا بالنعاس يغلبني؛ فيهبطُ رأسي على ذراعي وأغطُّ في النوم.

يردّدُ قرص الطاولة دقّات قلبي كالصدى، مقوّياً إياها كخشبٍ ذي رنين، ثم يتحوّلُ الأمر إلى طرْق، وأتخيّلُ أنني أفتحُ باب القبو المعدني عنوةً ببلطة.

وفيما ينخلعُ الباب عن مفصّلاته، أرى رجلاً مسنّاً يخرج من الداخل، وأستيقظُ في اللحظة نفسها. هل أنا مستيقظ فعلاً؟ فالرجل المسنّ بشحمه ولحمه ينتصبُ في الغرفة، وينظرُ إليّ بعينين هرمتين مطفأتين!

كوني لا أزال أمسكُ القلم بيدي، هو أمرٌ يؤكّدُ لي أنني لا أحلم، وأنني يقظٌ وفي كامل وعيي. أفكّرُ بيني وبين نفسي: "لا بد أنني سبق أن رأيتُ هذا الغريب ذات مرة؛ ولكن لماذا يضع غطاءً للأذنين من الفراء في هذا التوقيت من السنة؟".

يقول المسنّ: "لقد طرقتُ الباب ثلاث مرات؛ وعندما لم يردّ أحد، دخلت".

أسأل مذهولاً: "من أنت؟ ما اسمك؟".

"أنا قادم بتكليفٍ من الجماعة". يساورني للحظة شكٌ فيما إذا لم أكنْ أمام شبح: الوجه الشيخي ذو اللحية غريبة الشكل لا يتواءم مع اليدين العاملتين والذراعين مفتولتي العضلات! لعلّ ما أراه هو صورةٌ متخيَّلة، علّني أستطيعُ القول إنها مشوّهة! ثمة شيءٌ غير صحيح في الأبعاد! والإبهام الأيمن منكمش؛ وهذا أيضاً يبدو معروفاً لي على نحوٍ يثيرُ الاستغراب.

أمسكُ كمّ الرجل خلسةً لأتأكّد ما إذا لم أكنْ ضحية هلوسةٍ أو ضلالٍ حسّي، وأرفقُ حركتي هذه بالإشارة: "تفضّلْ بالجلوس!".

يتجاهلُ المسنّ ذلك ويبقى واقفاً.

"تلقّينا خبراً مفاده أن أباك قد تُوفّي. لقد كان واحداً من جماعتنا. وبموجب قوانين الجماعة، فمن حقّك أن تطلب الانضمام بوصفك ابنه من صلبه. وأنا أسألك: هل تستخدمُ حقّك هذا؟".

"يُسعدني للغاية أن أنتمي إلى الجماعة نفسها التي كان ينتمي إليها والدي فيما مضى، بيد أنني أجهلُ الأهداف التي ترمي إليها الجماعة وما هي غايتها. هل يمكنني أن أعلم تفاصيل أكثر عن ذلك؟".

تطوفُ في وجهي نظرة العجوز الباهتة.

"ألم يتكلّمْ معك والدك عن ذلك أبداً؟".

"كلا. مجرد تلميحات. إنما أستطيعُ أن أستنتج من ارتدائه نوعاً من رداء الجماعة في الساعة التي سبقتْ موته، أنه كان ينتمي حتماً إلى جمعية سرّية؛ وهذا كلّ ما أعرفه".

"إذاً أريدُ أن أقول لك: منذ القدم تعيشُ في الأرض مجموعةٌ من الرجال توجّهُ مصير البشرية. لولاها لدبّتِ الفوضى منذ زمنٍ طويل. جميع زعماء الشعوب الكبار كانوا أدواتٍ عمياء بيدنا، هذا في حال لم يكونوا من المطّلعين في جماعتنا. أما هدفنا فهو إلغاء الفوارق بين الفقير والغني، بين السيد والعبد، بين العارف والجاهل، بين الحاكم والمظلوم، وتحويل الحياة اليائسة البائسة، المسمّاة الحياة الدنيا، إلى فردوس، إلى أرضٍ تنتفي من قاموسها مفردات مثل "شقاء أو بؤس أو معاناة أو ألم".

إن العبء الذي ترزحُ تحته البشرية هو بلاء الشخصية. لقد تشظّتِ النفسُ الكلّية إلى أفراد، ونشأ عن ذلك كلّه فوضى. ومشيئتنا إعادة إنتاج الوحدة من الكثرة والتعدّد. وقد وضع أنبلُ أصحابِ العقول أنفسّهم في خدمتنا، وأوان الحصاد على الأبواب. ينبغي على كلّ إنسانٍ أن يكون قسَّ نفسه. والجماهير ناضجة للتحرّر من ربقة رجال الدين.

الجمال هو الإله الوحيد الذي ستصلّي له البشرية من الآن فصاعداً. إنما هي لا تزال بحاجةٍ إلى رجالٍ يتمتّعون بالحزم والفاعلية، يدلّونها على الطريق إلى العلا. لذلك أرسلنا، نحن آباء الجماعة، إلى العالم، تيّاراتٍ فكرية تجتاحُ الأدمغة كالنار في الهشيم، لحرْق جنونِ عظمةِ مذهبِ الفردية.

حاربِ الكلّ من أجل الكلّ! المهمّة التي كرّسنا أنفسنا لها، هي تحويل الأرض المقفرة إلى حديقة! ألا تشعرُ كيف أن كلّ شيءٍ في داخلك يُطلِق صيحة العمل؟! لماذا تجلسُ هنا وتحلم؟! هيّا، أنقذْ أخوتك!".

يتملّكني حماسٌ جنوني. وأصيح: "وماذا عليّ أن أفعل؟ مرْني بما عليّ فعله! أنا أرغبُ في بذل حياتي فداءً للبشرية، إذا لزم الأمر. ما هي الشروط التي تضعها الجماعة لانتسابي إليها؟".

"الطاعة العمياء! التنازل عن كلّ مشيئةٍ خاصة! العمل العام من أجل الجمهور، لا من أجل نفسك! هذه هي الطريق المؤدّية من الكثرة والتعدّد إلى أرض الوحدة الموعودة".

أسألُ، وقد ساورني شكٌ مفاجئ: "وكيف لي أن أعرف ما عليّ فعله؟ هل عليّ أن أكون مرشداً، ما الذي سأعلّمه؟".

"من يُعلِّم يتعلَّم. لاَ تسألْ: ما الذي سأقوله! من يكلّفُه الربّ بوظيفة يمنحُه العقل أيضاً. امضِ وتكلّمْ! سوف نلهمك الأفكار، لا تشغلْ بالك بذلك! هل أنت مستعدّ لأداء قسَم الطاعة؟".

"أنا مستعدّ".

"إذاً ضعْ يدك اليسرى على الأرض، وكرّرْ ما سأقوله لك!".

أطيعُه كالمخدَّر، وأنحني للأسفل، فإذا بالتشكيك وسوء الظنّ يتملّكني على نحوٍ غير متوقَّع. أتردّد، وأرفعُ بصري، وتثبُ إلى ذهني الذكرى: وجه المسنّ الواقف هنا سبق أن رأيتُه كمقبض سيفٍ منحوت من الهيماتيت أو حجر الدم؛ والإبهام المشوَّه يعودُ إلى يد المتشرّد الذي خرّ صريعاً في ساحة السوق حينما رآني.

أشعرُ بالبرد من شدة الذعر، ولكنني أعرفُ الآن ما عليّ فعله؛ أنتفضُ واقفاً، وأصرخُ في وجه المسنّ: "أعطني العلامة!"، وأمدُّ له يدي اليمنى بـ "المسكة" التي علّمني إياها والدي. بيد أن من يقفُ أمامي لم

يعدّ إنساناً حيّاً: بل هيئةً مكوّنة من أطراف معلّقة بالجذع بشكلٍ رخو كما هي الحال عند مخبولٍ منهَك! وفوقه يحلّقُ الرأس مفصولاً عن الرقبة بشريط من الهواء بعرض الإصبع؛ والشفتان تهتزّان بفعل النفَس المتسرّب. حطامٌ قبيح من لحمٍ ودم. أغطّي عينيّ بيديّ مرتعشاً؛ وعندما أرفعُ نظري، يكون الشبح قد اختفى، ولكن ثمة حلقةً منيرة معلّقة في المكان بشكلٍ حرّ: في داخلها وجه المسنّ مع غطاء الأذنين بملامح ناعمةٍ وشفّافة مثل نسمة ضبابٍ زرقاء شاحبة.

وهذه المرة يخرجُ من فمه صوت الجدّ الأول: "لقد رأيتَ حطاماً، كتلاً خشبية لسفنٍ جانحة تطوفُ في محيط الماضي؛ وقد قام سكّان القاع الشبحيون بتشكيل صورة معلّمنا من بقايا لا روح لها لهيئات غارقة، من انطباعات ذهنك المنسيّة، جاعلين منها وهماً كاذباً، بغيةً خداعك وتضليلك، وتحدّثوا إليك بلسانٍ ناعم بكلام الفتنة الخاوي الرنّان، بغية إغوائك واستدراجك، كما يفعلُ السراب، إلى المستنقعات المُميتة للأفعال الطائشة، والتي غرق فيها شقاءً الآلافُ من قبلك وممن هم أكبر منك.

هم يسمُون ضوءَ الفوسفور "التنازلَ عن الذات"، ويتحايلون به على ضحاياهم، وقد ابتهج الجحيم حينما أشعلوه لأول إنسانٍ وثق بهم. ما يريدون تدميره هو الخير الأسمى الذي يمكن لكائنٍ أن يحرزه: الوعي الأبدي بوصفه شخصية. وما يعلّمونه هو الإبادة، ولكنهم يعرفون قوة وسطوة الحقيقة، ولذلك فإن جميع الكلمات التي يختارونها هي حقيقة - إلاّ أن كلّ جملة تُصاغ منها هي كذبٌ عميق لا قرار له.

حيثما تسكنُ الأباطيل وشهوة السلطة في قلب إنسانٍ ما، يكونون في متناول اليد ويؤجّجون هذه الشرارات الخافتة إلى أن تسطع ناراً مستعرة، ويظنُ الإنسان أنه يتّقد حبّاً خالصاً للغير، فيمضي ويبدأ

بالوعظ، من غير أن يكون مختاراً أو مدعوّاً أو كفؤاً لذلك - يصيرُ مرشداً أعمى ويسقطُ في الحفرة مع الكسيحين.

هم يعرفون حق المعرفة أن قلب الإنسان شرّيرٌ منذ حداثة سنّه، وأن الحبّ لا يمكن أن يسكن فيه، اللهم إلاّ إذا وُهِبَ من الأعلى. هم يكرّرون عبارة: "أحبّوا بعضكم بعضاً" إلى أن تصبح عبارةً بليدة وباردة؛ والحق أن من نطق بها أولاً أعطى بها من سمعوه هديةً سحرية؛ أما هم فيبصقون الكلمات في الأذن كالسمّ - وينبتُ منها الوبال والشؤم واليأس، القتل، المذابح والخراب.

هم يقلّدون الحقيقة كما تقلّد الفزّاعةُ المسيحَ المصلوب على قارعة الطريق. حينما يرون أن ثمة قطعة كريستال تتشكّل وتعدُ بأن تصبح صورةً عن الله، يجنّدون كلّ شيءٍ لتحطيمها وتدميرها. ما من مذهبٍ شرقي بالنسبة إليهم أشدّ رقةً نعومةً وجلالاً من أن يغلّظوه، ويجعلوه دنيوياً، ويغيّروه ويخرقوه، إلى أن يمثّل عكسَ ما كان مقصوداً منه.

هم يقولون: "من الشرق يأتي النور"، ويقصدون بذلك سرّاً الطاعون.

الفعل الوحيد الذي يستحقُ الإنجاز هو: العمل على الذات، وهم يسمّونه أنانية؛ هم يزعمون إصلاح العالم، ولكنهم لا يعرفون كيف، - فيسترون الجشع بـ "الواجب"، والحسد بـ "الطموح"، هذه هي الأفكار التي يُلهمونها لبني البشر الضالّين.

عالم الوعي المجزّئ والمفتّت هو فضاؤهم المستقبلي، والجنون في كلّ مكانٍ هو أملهم؛ يعظون على لسان المجانين المسكونين بـ "مملكة الألف سنة"، كما فعل الأنبياء فيما مضى، ولكنهم يسكتون عن أن هذه المملكة "ليست من هذا العالم"، ما دامت الأرض لم تتحوّلْ والإنسان لم يتغيّرْ

عن طريق الولادة الثانية بالروح؛ يعاقبون الممسوحين كذباً بأن يستبقوا نضج الزمن.

إذا قُيِّضَ لمخلّصٍ أن يأتي، قلّدوه وعبثوا به مسبقاً؛ وبعد أن يذهب يقلّدونه ويعبثون به أيضاً. هم يقولون: أدِّ دور المرشد! وهم يعلمون حق العلم أنه لا يمكن إلاّ لمن اكتمل أن يكون مرشداً. هم يلفّون ويدورون ويخادعون: العبْ دور المرشد، تكتملْ. يُقال: من يكلّفه الربّ بوظيفة، يمنحه العقل أيضاً؛ بيد أنهم يوحون قائلين: تولَّ وظيفة، وسوف يمنحك الربّ العقل. هم يعرفون أن الحياة على الأرض يُفترَض أن تكون حالةً انتقالية، ولذلك يغوون بدهاءٍ قائلين: "اجعلْ من هذه الحياة الدنيا فردوساً"، وهم يعرفون حق المعرفة عبثية مثل هذا الجهد.

لقد حرّروا ظلال الآخرة وأحيوها بقوةٍ شيطانية مؤثّرة، كي يعتقد البشر أن قيامة الأموات قد حلّتْ. وقد صنعوا قناعاً مطابقاً لوجه معلّمنا، وهو يظهرُ هنا وهناك، في أحلام العرّافين تارةً، وتارةً في أوساط محضّري الأرواح كهيئة تتظاهر بالمادية تارةً، وتارةً أخرى كرسمٍ للوسطاء يتشكّلُ تلقائياً؛ ويُسمّى الشبح بالنسبة إلى من يسألون عن اسمه بفضول جون كينغ - أي يوحنا الملك، كي ينشأ الاعتقاد بأنه يوحنا الإنجيلي.

هم يقلّدون الوجه مسبقاً من أجل كلّ الذين أصبحوا ناضجين، مثلك، بغية رؤيته *في الحقيقة*؛ هم يحتاطون لزرع بذور الشكّ، إذا ما دنت الساعة التي يحتاج الأمر فيها إلى العقيدة التي لا تتزعزع أبداً، كما هي الحال معك أنت. لقد حطّمتَ القناع، ذلك أنك طالبتَ بـ "المسكة"؛ والآن يتحوّلُ الوجه الحقيقي إلى مقبض السيف السحري، منحوتاً من

قطعةٍ واحدة من الهيماتيت أو حجر الدم؛ من يتسلّمه، تدبّ الحياة بالنسبة إليه في المزمور: "تقلّدْ سيفك على فخذك، أيها الجبّار، جلالَك وبهاءَك. وبجلالك اقتحمْ. اركبْ. من أجل الحقيقة والدّعة والبرّ، فتُريك يمينك الأعمالَ العجيبة."".

15

قميص نيسوس[9]

ينتزعُ كلام الجدّ الأول جزءاً من أناي في داخلي، أشبه بصرخة نسرٍ تزعزعُ الهواء فوق قمم الجبال، وتذيبُ كثبان الثلج وتحيلها إلى كرةٍ تتدحرجُ وتكبرُ، مشكّلةً انهياراً ثلجياً، وتميطُ اللثام عن لمعان سطوح الجليد المستترة.

ثمة طنينٌ مدوٍّ في أذني يبتلعُ المزمور، ويمّحي منظر الغرفة أمام عينيّ، وأعتقدُ أنني أهوي في فضاءٍ لا حدود له. "الآن، الآن سوف أتحطّم!". ولكن السقوط لا يشاء أن ينتهي؛ ويمتصُّني القاع بسرعةٍ

---

[9] قميص نيسوس (Nessoshemd): تقول الأسطورة إن هركليس مثال القوة والشجاعة والبطولة، ابن زيوس كبير الآلهة الإغريقية، أحبّ دانيرا وأخلص لها. وحين حاول القنطور نيسوس خطف دانيرا، أطلق هركليس سهامه على نيسوس، فأعطى نيسوس قميصه الملوّث بدماء الهيدرا السامة لـ دانيرا وقال لها أن تُلبسه لـ هركليس إذا ما حاول هذا الأخير أن يتركها، فيعود إليها حبيباً عاشقاً. وحينما كان هركليس في خدمة إحدى مليكات الإغريق، انتشرت شائعات تقول إن هركليس يخون دانيرا، فأرسلت له قميص نيسوس، اعتقاداً منها أنه سوف يعيده إلى حبّها، ولكن السمّ بدأ يسري في عروق هركليس، وعجز عن اقتلاع القميص عن جسده، فسقط صريع مؤامرة حب من صنع زوجته (المترجم).

جنونيــة متزايــدة، وأحــسُّ بالــدم ينــدفعُ صــاعداً في عمــودي الفقــري ومخترقاً جمجمتي كحزمةٍ مضيئة. أسمعُ قرقعة عظام، ثم ينتهي كلّ شيء؛ أقفُ على قدميّ وأعرف: لقد كان ضلالاً حسّياً، وقد عبرَني تيّارٌ مغناطيسي من الأخمصين حتى قمّة الرأس، وأيقظ فيَّ الإحساس كما لو أنني أسقطُ في لجّةٍ لا قرار لها.

أتطلّعُ فيما حولي بدهشةٍ شديدة وأستغربُ منِ أن المصباح يشتعلُ بهدوءٍ على الطاولة وما من شيءٍ قد تغيّر! مع ذلك أخالني أنا شخصياً قد تغيّرت، كما لو أن لي أجنحةً ولا أستطيعُ استخدامها.

أعرفُ أن "حاسّةً جديدة قد انطلقتْ لديّ"، ومع ذلك لا أستطيعُ سبر مكمنها إطلاقاً ولا كيف أصبحتُ شخصاً آخر، إلى أن أدرك ببطء أنني أمسكُ بيدي شيئاً مدوّراً. أنظر إليه: لا أرى شيئاً؛ أفتحُ أصابعي: فيختفي الشيء، إلاّ أنني أسمعُ صوت سقوط شيءٍ ما على الأرض؛ أقبضُ يدي: فإذا بالشيء موجودٌ فيها من جديد، باردٌ وقاسٍ ومدوّر ككرة. خمّنتُ فجأةً: "إنه مقبض السيف"؛ أتحسّسُه وأجدُ النصل، ويخدشُ يدي بحدّه.

أيحلّقُ السيف في الهواء؟ أبتعدُ خطوة عن الموضع الذي كنتُ أقفُ فيه، وأمدّ يدي نحوه. وتقبضُ أصابعي هذه المرة على حلقاتٍ معدنية ملساء تشكّل سلسلةً ملتفّة حول خصري والسلاح معلّق بها. يداخلُني تعجّبٌ بالغ لا يغادرني إلاّ عندما يتّضحُ لي تدريجياً ما حصل: لقد استفاقتْ في داخلي حاسة اللمس الباطنية، وهي الحاسة الأعمق نوماً عند الإنسان؛ وقد تم اختراق الغشاء الرقيق الفاصل بين الحياة الآخرة والحياة الدنيا إلى الأبد.

عجباً! على ضآلة وضحالة العتبة بين العالمين، إلاّ أن أحداً لا يرفعُ قدمه لتخطّيها! حدود الحقيقة الأخرى متاخمة للجلد تماماً، بيد أننا لا نحسُ بها! هنا، حيث يمكن للمخيّلة أن تخلق أرضاً جديدة، تتوقّف. لا شكّ في أن ما يمنعُ الإنسان من إطلاق القوى السحرية الهاجعة فيه، هو شوقه إلى الآلهة، وخوفه من أن يكون وحيداً مع نفسه، ومن أن يصبح خالق عالمه الخاص؛ فهو يرغبُ في أن يكون لديه رفقاء وطبيعة تحيط به بقوة؛ يريدُ أن يمارس الحبّ والكراهية، وأن يرتكب أفعالاً، وأن يعيشها بنفسه!

فكيف له أن يفعل ذلك إن هو جعل نفسه خالقاً للأشياء الجديدة؟! أشعرُ بإغراءٍ شديد يقول لي: "حسبك أن تمدّ يدك، وسوف تلامسُ وجه حبيبتك"، ولكن بدني يقشعرُ مع فكرة أن الواقع والخيال هما الشيء نفسه. وتبتسمُ خصوبةُ الحقيقة الأخيرة في وجهي بشماتة!

أما الأمر الأكثر ترويعاً من احتمال أن أغدو ضحية مسٍ شيطاني أو أن أخرج إلى بحر الجنون والهلوسات الذي لا برّ له، فهو معرفة أنه لا وجود لحقيقةٍ واقعة في أيّ مكان، لا هنا ولا هناك، لا وجود سوى للخيال! أتذكّرُ الكلمات المفعمة بالخوف: "هل رأيتَ الشمس؟"، والتي تفوّه بها والدي ذات يوم، حينما حكيتُ له عن تجوالي في الجبل؛ "من يرَ الشمس، يكفّ عن التجوال؛ فهو ينتقلُ إلى الأبدية".

"كلا؛ أريدُ أن أبقى متجوّلاً وأراك ثانيةً، أبي! أريدُ أن يجتمع شملي مع أوفيليا، لا مع الله! أريدُ اللانهائية، لا الأبدية. ما تعلّمتُ رؤيته وسماعه بعيني وأذني الباطنيتين، أريده أن يكون أيضاً حقيقة واقعة بالنسبة إلى حسّي الشعوري. أنا أتنازلُ عن صيرورتي إلهاً متوّجاً بقدرة

الخلْق؛ أريدُ أن أبقى إنساناً خلاّقاً، وذلك محبّةً بكم؛ أريدُ أن أقتسم الحياة معكم".

أشدُ يدي على مقبض السيف، وكأنني أتّقي إغراءَ بسطِ ذراعي شوقاً: "عونك، أيها المعلّم، ثقْ بي! كنْ أنت خالق كلّ ما يحيط بي". تدركُ يدي المتلمّسة الوجهَ المنقوش على مقبض السيف بوضوحٍ شديد، إلى درجة أعتقدُ معها أنني أعيشه في أعماق نفسي. إنها رؤية وشعور في آنٍ معاً: تشييدُ هيكلٍ لحفظ قدس الأقداس. تتدفّقُ منه قوةٌ غامضة، تنتقلُ إلى الأشياء، وتنفخُ فيها الروح. أعرفُ ما يلي كما لو أنني سمعتُه كلاماً: إن المصباح الموجود على الطاولة صورةٌ طبق الأصل عن حياتك الأرضية، وقد أنار غرفة عزلتك، وهو يتحوّلُ الآن إلى ضوءٍ خافت بلا لهب؛ فقد انتهى زيته.

تهفو نفسي إلى أن أكون في الهواء الطلق تحت قبة السماء المفتوحة، عندما تدقُ ساعة اللقاء الكبير!

ثمة سلّمٌ يقودُ إلى السطح المنبسط، كثيراً ما جلستُ عليه سراًّ في طفولتي، لأرقب مدهوشاً كيف تنفخُ الريح في الغيوم وجوهاً وهيئاتٍ تنّينية بيضاء. أصعدُ إلى الأعلى وأجلسُ على الدرابزين. في الأسفل تقبعُ البلدة غارقةً في ظلمة الليل. يحلّقُ ماضيّ بالكامل، صورةً تلو صورة، صاعداً إليّ ويلتصقُ بي خائفاً، كما لو أنه يوصيني: "تمسّكْ بي، خذْني معك، كي لا أموت في النسيان، كي يُتاح لي أن أعيش في ذاكرتك".

تبرقُ السماء في كلّ مكانٍ على مدار الأفق البعيد: عينٌ عملاقة متّقدة ومستطلعة على عجل، والبيوت والنوافذ تقذفُ عليّ اللهيب، وتُعيدُ بغدرٍ علامة الشعلة: هناك، هناك! هناك يقفُ من تبحثُ عنه!

ويسري في الجوّ عويلٌ بعيد : "لقد قتلتَ كلّ خدَمي، أنا قادمٌ الآن بنفسي"؛ فأجدُ نفسي مضطراً إلى التفكير في سيدة الظلام، وفي ما قاله والدي عن كراهيتها وحقدها.

تهمسُ هبّةُ ريح: "قميص نيسوس"، وتمزّقُ ردائي. ويزأرُ رعدٌ بقوله: "نعم" تصمّ الآذان. أكرّر مفكّراً: "قميص نيسوس! قميص نيسوس؟!".

ثم تسودُ حالة من التربّص الصامت؛ فالعاصفة والبرق يتشاوران في ما عليهما البدء به. وفي الأسفل يهدرُ النهر فجأةً بصوتٍ عالٍ، كما لو أنه يريد أن يحذّرني: انزلْ إليّ! اختبئْ! وأسمعُ حفيفَ الأشجار المذعور:

"الإعصار ذو اليدين الفتّاكتين! قنطورات[10] ميدوزا، الصيد المتوحّش! احنوا رؤوسكم، الفارس ذو المنجل قادم!".

يخفقُ قلبي في تهليلٍ صامت: أنا بانتظارك يا حبيبتي. يئنُ جرس الكنيسة، وقد صدمتْه قبضة غير مرئية. وتسطعُ في ضوء البرق صُلبان المقبرة متسائلةً.

"نعم يا أمّي، أنا قادم!".

تنخلعُ نافذة في مكانٍ ما وتتحطّمُ على بلاط الشارع مُحدثةً ضجيجاً شديداً: خوف الأشياء من الموت، هو من صنع الإنسان. هل سقط القمر من السماء وتاه؟ ثمة كرةٌ بيضاء متوهّجة تتلمّسُ طريقها في الهواء، تتهادى، تهبطُ وتعلو، تجولُ على غير هدى، ثم تنفجرُ على حين غرة، مُحدثةً قرقعةً مدوّية، وكأن غضباً مستعراً تملّكها؛ وتزلزلُ الأرض في ذعرٍ جنوني.

---

[10] centaur: كائن خرافي نصفه الأعلى رجل ونصفه الأسفل فرس (المترجم).

تظهرُ كراتٌ جديدة باستمرار؛ تبحثُ واحدةٌ منها عن الجسر، فتتدحرجُ ببطءٍ وخبث من فوق سياجه الخشبي وتدورُ حول دعامةٍ خشبية، ثم تمسكُ بها وتمزّقها إرباً.

"بروقٌ من كُرات!". لقد قرأتُ عنها في كتب الطفولة، ورأيتُ في توصيف حركتها الغامضة مجرد خرافة، وها هي الآن أمام عينيّ واقعاً ملموساً! كائناتٌ عمياء مكوّنة من طاقةٍ كهربائية، قنابلُ القاع الكونية، رؤوسُ عفاريت لا عيون لها ولا أفواه ولا آذان ولا أنوف، وقد انبثقتْ من أعماق الأرض والهواء، دوّامةٌ تدورُ حول محور الكراهية، وتتحسّسُ نصف واعيةٍ وبلا أعضاء إدراك ضحايا لروحها الهدّامة.

أيّة قوةٍ مخيفة كانتْ ستوهَبُ لها، لو كانتْ تمتلكُ هيئةً بشرية! هل أغرى سؤالي الصامت الكرة المتوهجة بتغيير مسارها فجأةً والطيران صوبي؟ غير أنها تستديرُ على الدرابزين وتنزلقُ من فوقه نحو جدار، ثم تحلّقُ لتدخل من نافذةٍ مفتوحة، وتخرجُ من أخرى ثانيةً، تستطيلُ: ويضربُ الرملَ شعاعٌ من نارٍ مُحدثاً فيه حفرةً قُمعية الشكل وسط ضوضاء الرعد، بحيث يهتزُ المنزل وينتثرُ الغبار وصولاً إليّ في الأعلى.

ضوءه المبهر كشمسٍ بيضاء يحرقُ عينيّ؛ فتسطعُ هيئتي لمدة ثانية، إلى درجة أن الضوء المنعكس منها يملأ جفوني ويبقى في وعيي كالكيّ.

"هل ترينني أخيراً، ميدوزا؟".

"نعم أراك، أيها اللعين!" - وتصعدُ من الأرض كرةٌ حمراء.

أشعرُ على نحوٍ غامض: أنها تكبرُ وتكبر؛ والآن تحلّقُ فوق رأسي - نيزكٌ في منتهى الغضب. أبسطُ ذراعيّ: تمسكُ يداي، يدان غير مرئيتين بـ "مسكة" الجماعة، وتضمّاني إلى السلسلة التي تمتدُ إلى اللانهائية.

يحترقُ في داخلي ما هو قابل للتفسّخ، متحوّلاً عن طريق الموت إلى شعلة الحياة.

أنتصبُ واقفاً في رداء النار الأرجواني، متمنطقاً بالسلاح المصنوع من الهيماتيت أو حجر الدم.

لقد ذبتُ مع الجثّة والسيف إلى الأبد.

المحتويات

غوستاف مايرينك

الدومينيكاني الأبيض

يقف غوستاف مايرينك على حافة العالم المادي، وهو يتطلع نحو الهاوية السحيقة، ويمعن في الكوارث التي مرغت العقل البشري بالوحل والصخب. وهنا تصبح كل أفكار هذا الكائن – التي يظنها كبيرة وعملاقة ومتجاوزة – عرضة للسقوط والتحطم.

ليست هناك – هنا في هذه الرواية الذكية – أي حدود فاصلة بين الفانتازيا والواقع، بين العبقرية والجنون، بين الموتى والأحياء؛ تختلط الأشياء والأحداث بهمجية وقسوة، ويبزغ من بينها – من بين صراعاتها الشريرة – شعاع حب نبيل، نقي، ومؤلم.

ولكن هل يكفي هذا الخيط الرفيع من الضوء لإنجاح الحياة، ولاستمرار الإنسان؟

كريستوفر تاوبنشلاغ، بطل الرواية، يحكي قصة الإنسان الحالم والخيالي، في عالم يتكور على نفسه من الخوف والرعب والضياع. ولكنه يقصها متفائلاً بخيالات حبيبته أوفيليا، التي تحولت إلى روح طاغية على حياته بمجملها.

